شرح

فضـل الإسـلام

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/٢٠١٧م

شرح

فضل الإسلام

للإمام

محمد بن عبد الوهَّاب

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وبعد:

فإنَّ مصنَّفات ومؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نافعة جدًّا؛ نافعة في محتواها، حيث بيَّنت مجمل ومفصل الدين كله، ومن بركتها أنها جدَّدت الدين بعد أن اندرست معالمه في ضلال الشرك والبدع والتشبه بالكافرين، إلا من الطائفة المنصورة التي تواصت بالحق والصبر في إحياء شرائع الإسلام، ونصيحة المسلمين بتلقي العلم الصحيح من معدنه الأصيل، خير القرون الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ومن أعظم بركات مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيام الدولة السعودية التي نصرت دعوة التوحيد التي جدَّدها شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب، فقد تواصىٰ الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ نصرة التوحيد، وبالصدق والإخلاص والصبر قامت الدولة السعودية، واجتمعت كلمة المسلمين في جزيرة العرب علىٰ التوحيد وتحكيم الشريعة.

ومتن «**فضل الإسلام**» للإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنفع المتون في بيان معنىٰ الإسلام وملَّة إبراهيم، وهو من أهم المتون في الحثِّ

علىٰ لزوم الإسلام والتحذير من الارتداد عنه.

مؤلف «فضل الإسلام» فيه حث علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنة، والتحذير من البدع وبيان عظيم خطرها علىٰ الإسلام والمسلمين.

وأحمد الله علىٰ تيسيره شرح هذا المتن مشافهة لطلبة العلم، وشرحه كذلك في مؤلف يُبيِّن معاني هذا المتن النافع، والله أسأل أن ينفع به ويكتب له القبول، آمين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الباب الأول

باب فضل الإسلام

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

باب فضل الإسلام

وقول الله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وفي «الصحيح» عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: من يعمل لي من غدوة إلىٰ نصف النهار علىٰ قيراط؟ فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلىٰ صلاة العصر علىٰ قيراط؟ فعملت النصارىٰ. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلىٰ أن تغيب الشمس علىٰ قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارىٰ، وقالوا: ما لنا أكثر عملًا وأقل أجرًا؟ قال: هل نقصتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ذلك فضلي أُوتيه من أشاء**».

وفيه أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا؛ فكان لليهود يوم السبت، وللنصارىٰ يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة**».

وفيه – تعليقًا – عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أحب الدين إلىٰ الله الحنيفية السمحة**» انتهىٰ.

وعن أُبيِّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** (عليكم بالسبيل والسنَّة، فإنَّه ليس من عبد علىٰ سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار. وليس من عبد علىٰ سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من خشية الله إلَّا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها. وإن اقتصادًا في سبيل وسنَّة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** «يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يغبنون سهر الحمقىٰ وصومهم. ولمثقال ذرة من برٍّ مع تقوىٰ ويقين؛ أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة المغترين)].

الشَّرْح:

ابتدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب فضل الإسلام بقوله

تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهذا من توفيق الله له، فهذه الآية من أجمع الآيات في بيان فضل الإسلام.

وفي استفتاح الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب فضل الإسلام بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، تنبيه إلىٰ بيان أفضل النعم، وهي نعمة الإسلام، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه الآية فيها إخبار الله بإكمال الدين وإتمام النعمة علىٰ المؤمنين، ورضا الإسلام دينًا».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذه أكبر نعم الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمة، حيث أكمل تعالىٰ لهم دينهم، فلا يحتاجون إلىٰ دين غيره، ولا إلىٰ نبي غير نبيهم – صلوات الله وسلامه عليه –؛ ولهذا جعله الله تعالىٰ خاتم الأنبياء، وبعثه إلىٰ الإنس والجن؛ فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلَّا ما حرَّمه، ولا دين إلا ما شرعه».

وقال العلامة عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «اعلم أنَّ النعم نعمتان: نعمة مطلقة، ونعمة مقيدة؛ فالمطلقة هي المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٤٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢١).

(٣) التعليقات السعدية علىٰ العقيدة السفارينية (ص ٢٨٩).

ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [النساء: ٦٩]، وإذا قيل: ليس لله علىٰ الكافر نعم بهذا الاعتبار؛ فهو صحيح.

والنعم الثانية: النعم المقيدة؛ كنعم الغنىٰ، والعافية، وكثرة الولد، والزوجة، أكثر هذه مشتركة بين البر والفاجر، فإذا قيل: إنَّ لله علىٰ الكافر نعمًا بهذا الاعتبار؛ فهو حق.

فمطلق النعم مشترك بين المؤمن والكافر، والنعم المطلقة خاصة بالمؤمنين».

وهذه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، نزلت علىٰ النبي ﷺ يوم عرفة في حجة الوداع، كما قال الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واليهود عرفوا من فضل الإسلام وفضل القرآن وفضل هذه الآية خصوصًا ما أخبروا به الصحابة، فضلًا عما يتحدَّثون به في خاصتهم، قال اليهودي للفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لو نزلت علينا معشر اليهود هذه الآية لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا» متَّفق عليه. ونظير ذلك قول اليهودي لسلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن نبيكم علمكم كل شيء»، قال سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نعم، علمنا إذا دخل أحدنا الخلاء أن يقول: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث، وإذا خرج أن يقول: غفرانك. رواه مسلم.

فدين شهد له مخالفوه بالكمال حقيق بالمؤمنين به المحافظة عليه، ونحن في غنية عن شهادتهم؛ فالشرع نفسه محتواه دالٌّ علىٰ كماله، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ولكن ذكرنا شهادتهم لتستبينوا أن كفرهم عن ضلال عن الحق وعناد له، لا

عن عدم كمال شريعة الإسلام؛ قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وإكمال الدين كان بإكمال شرائعه، فقد كان ينزل شيئًا فشيئًا حسب الحوادث، وإكمال إبلاغه، وظهوره، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا بعد فتح مكَّة.

وتمام النعمة بما حصل من الإسلام - فهو أعظم النعم - من الهداية وخيري الدُّنيا والآخرة، وما حصل لمن اهتدىٰ به من الغفران؛ كما قال الله لنبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ٢،١]، وقال الله في شأن الطهارة للصلاة: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

وقد جعل الله هذه المعاني أذكارًا نلهج بها؛ تحقيقًا لها، ومناجاة لله نذكره بها؛ عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من قال إذا أمسىٰ وإذا أصبح: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا؛ كان حقًّا علىٰ الله أن يرضيه**»، قال الترمذي: حديث حسن.

وانتخاب الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «فضل الإسلام» قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]؛ فيه بيان فضل الإسلام لله، وما ينال من أسلم لله من الرحمة، فألوهية الله مبناها علىٰ الرحمة.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ألوهيته مبنية علىٰ الرحمة»، وألوهية ربنا مبنيَّة علىٰ العدل والفضل، ومعرفة هذه المعاني مما يزيد المسلم تألهًا لله وفرحًا به سبحانه لا شريك له.

قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القسط فهو العدل الكامل، والله تعالىٰ هو القائم بالعدل في شرعه وخلقه وجزائه؛ فإن العبادات الشرعيَّة والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي؛ كله عدل وقسط، لا ظلم فيه بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الإحكام والانتظام، وفي غاية الحكمة، والجزاء علىٰ الأعمال كله دائر بين فضل الله وإحسانه علىٰ الموحِّدين المؤمنين به، وبين عدله في عقوبة الكافرين والعاصين؛ فإنه لم يهضمهم شيئًا من حسناتهم، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]».

وعقيدة الإسلام وشرع الله وشرائعه كاملة في نفسها، وشرع الله ودينه ودُوَلُه والمسلمون يتعرَّضون كل وقت لغزو عسكري وفكري ثقافي، ومواجهة هذا الغزو يكون بالتمسُّك بالإسلام، وباعتزاز الانتماء به، والجهاد عنه بالعلم والسلاح، وبالعلم والدعوة بالحكمة.

والطمأنينة في مواجهة التحديات ضرورة لمواجهتها، والطمأنينة تأتي

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٠٧).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (ص ٢١).

بأسباب:

أولها: لطف الله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اللطف الباطن هو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع».

ثانيها: صحة الاعتقاد؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينصر الحق وأهله، ولا يمكن أن يديل الباطل علىٰ الحق إدالة مستمرَّة، وإنما يداول الأيام بين الناس، والعاقبة والظهور والتمكين للحق، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ثالثها: أخذ السكينة بالتعلُّم ممن حققها في مقاماته، فأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما خشي علىٰ النبي ﷺ والإسلام أن يحيط الكفار به في الغار في الهجرة؛ قال له النبي ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقد كان في مكة قبل هجرته يُطمئن أصحابه المسلمين، وقد أصابهم أعظم الأذىٰ من الكفار بسبب إسلامهم، ويأمرهم بالصبر.

وفي صلح الحديبية رأىٰ بعض الصحابة غضاضة في الصلح، فقال لهم النبي ﷺ: «**إنه ربي ولن يضيعني**»، وكذلك موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طمأن أصحابه المؤمنين عندما قصدهم فرعون وجنوده، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

فالمقصود أن حسن الظن بالله في مواجهة المتغيرات هو أوثق عرىٰ

(١) الفوائد (ص ٢٩٤).

معونته وتأييده ونصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أرجح المكاسب الثقة بالله».

ومن اعتقد كمال الدين وجب عليه حفظه من التغيير والتبديل والبدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أصول الإسلام أن تميِّز ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الكتاب والحكمة، ولا تخلطه بغيره، ولا تلبس الحق بالباطل كفعل أهل الكتاب؛ فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينًا، وقد قال النبي ﷺ: «**تركتكم علىٰ البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: **هذا سبيل الله، وهذه السبل علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»، وجماع ذلك بحفظ أصلين:

أحدهما: تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ، فلا يُخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة والتفسيرات الباطلة، بل يُعطىٰ حقه من معرفة نقله ودلالته.

والثاني: أن لا يُعارض ذلك بالشبهات لا رأيًا ولا رواية، قال الله تعالىٰ فيما يأمر به بني إسرائيل وهو عبرة لنا: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١، ٤٢] فلا يكتم الحق الذي جاء

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٤/ ٥٤، ٥٥).

به الرسول ﷺ، ولا يُلبس بغيره من الباطل، ولا يعارض بغيره».

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ديننا بحمد الله تام كامل مَرْضيٌّ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ما تركت من شيء يُقرِّبُكم إلىٰ الجنَّة ويُبْعِدُكم عن النَّار إلَّا وقد حدّثتكم به**»، فأيُّ حاجة بنا إلىٰ البدع في الأعمال والأقوال، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم»».

وقال الحافظ الذهبي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «شرع[٣] لنا نبيُّنا ﷺ كلَّ عبادة تُقرِّبنا إلىٰ الله، وعلَّمنا ما الإيمان وما التوحيد، وتركنا علىٰ البيضاء ليلها كنهارها، فأيُّ حاجة بنا إلىٰ البدع في الأقوال والأعمال والأحوال والمحدثات، ففي السُّنَّة كفاية وبركة، فيا ليتنا ننهض ببعضها علمًا وعملًا وديانةً ومعتقدًا».

وأما قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤].

فهذه الآية ساقها الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتتميم معنىٰ الآية التي ابتدأ بها الكتاب، فمن رضي بالإسلام دينًا يبرأ من عبادة من دون الله، ويجرِّد التوحيد خالصًا لله، وهذان ركنا كلمة التوحيد، أشهد أن لا إله إلا الله، فالتوحيد لا يتحقَّق إلا بالإثبات والنفي؛ لأن مجرَّد النَّفي عدم

(١) جزء في التمسُّك بالسنن (ص٣٠، ٣١).

(٢) جزء في التمسُّك بالسنن (ص٤٦).

(٣) النبيُّ ﷺ مُبلِّغ عن الله شرعه.

محض، والعدم لا كمال فيه، ومجرد الإثبات لا ينفي المشاركة، أما الإثبات والنفي فتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

وفي الآية نفسها التي استدلَّ بها الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان لركني كلمة التوحيد ﴿أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]؛ ﴿أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ [يونس: ١٠٤] هذا ركن الإثبات، ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤] فيه ركنا الإثبات والنفي، فمحاجة الكفار بذلك إبطال لآلهتهم التي يدعون من دون الله؛ فإنها لا تحيي ولا تميت، فالله هو الذي يحيي ويميت.

وهذه الآية ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾، **مطابقة لمعنىٰ قوله تعالىٰ:** ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس: ١٠٤]؛ هذا لا يكون إلا من جاهل لا يقدر الله حق قدره، ضلَّ عن التحقُّق بكمال شرع الله؛ فشرع الله غير ذي عوج، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وفي هذا الباب ذكر الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبيُّ ﷺ: «**أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة**»؛ وفيه عظيم استشعار النبي ﷺ لنعمة الله عليه وعلىٰ أمته في الهداية للعلم النافع والعمل الصالح، وهذه أعظم النعم وأحراها بالتذكُّر، وفيه حث النبيِّ ﷺ أمته علىٰ شكر هذه النعم وعدم الكفر بها، أو الغفلة عن مقدارها وأداء شكرها الواجب.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لله علىٰ العامل عملًا صالحًا ثلاث نعم عظيمة:

الأولىٰ: أنه بيَّن له العمل الصالح من العمل غير الصالح؛ وذلك بما أنزله من الوحي علىٰ رسله؛ بل هي أعظم النعم.

الثانية: توفيقه لهذا العمل الصالح؛ لأن الله قد أضل أممًا عن العمل الصالح.

الثالثة: ثوابه علىٰ هذا العمل الصالح ثوابًا مضاعفًا: الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة.

وهذا مما يدل علىٰ كمال رحمة الله بالخلق: أنه ينعم، ثم يشكر المنعمَ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]».

والمنصفون من قساوسة النصارىٰ وأحبار اليهود شهدوا بكمال الشرع، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٦٦).

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة: ٨٢،٨٣].

ونحن من الإنصاف الواجب علينا ذكره أنّ الشرع الذي أوحاه الله إلىٰ رسوله محمد ﷺ عامٌّ للخلق جميعًا؛ لأن الخلق لم يكن لهم كتاب هادٍ بعد تحرُّف الشرائع؛ فبعث الله محمدًا ﷺ بشرعة الإسلام إلىٰ قومه والناس كافة، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والإسلام رحمة للخلق، به يدخلون الجنة، فلا يكن همُّك خاصة نفسك، بل كن داعيًا الخلق جميعًا إلىٰ رحمة الله، وهكذا كان شأن النبي ﷺ كما قال الله عنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ **لأهل الكتاب عندما قالوا:** ما لنا أكثر عملًا وأقل أجرًا: «**هل نقصتكم من حقكم شيئًا؟**»، قالوا: لا، قال: «**ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»؛ جواب مجمل في بيان سبب ومرجِّح التفضيل، وهو قاعدة كبرىٰ في معرفة تعليل أحكام الله وشرعه وقضائه الكوني، وهو العدل.

وهذا الجواب المجمل تجد معانيه مفصَّلة في نصوص القرآن والسنَّة، ومما ذكره العلماء في سبب مضاعفة أجور هذه الأمة في عباداتها، الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، وبعض العبادات في بعض المواسم ثوابها يعادل مدة أعمارنا، قال الله تعالىٰ في شأن ليلة القدر: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٣]، يعني: خيرٌ من ثلاث وثمانين سنة مما سواها؛ لأن من

قبلنا مُدَّ لهم في أعمارهم؛ فنوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبث في دعوة قومه فقط ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأعمار أمة محمد ﷺ ما بين الستين إلىٰ السبعين عامًا كما قال النبيُّ ﷺ، وهذا في الغالب، فكان من العدل أن تضاعف حسناتهم؛ ليتناسب ميزان الثواب مع مقدار الأعمار، والله أعلم.

ومن الجهة الأخرىٰ أفضلية هذه الأمة من جهة عملها بالشرع الذي تُعبدوا به وحفظهم له؛ فاليهود والنصارىٰ حرَّفوا التوراة والإنجيل، والمسلمون حفظوا القرآن علمًا وعملًا ودعوة.

واليهود كانوا أهل عنت مع أنبيائهم في مخالفة أمر الله وشرعه، حتىٰ كان منهم من قتل الأنبياء، والنصارىٰ كانوا أهل تعبُّد عن جهل وابتداع؛ فعدلوا عن الوحي إلىٰ رهبانية ابتدعوها، ولم يصبروا علىٰ العمل لله بشرعه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقارنًا بين القبول لدعوة نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام[1]: «لبث نوح في قومه ألف سنةٍ إلَّا خمسين عامًا، فبلغ جميع من آمن رجالًا ونساءً الَّذين ركبوا معه سفينته، دون مائة نفس، وآمن بنبينا ﷺ - في مدَّة عشرين سنةً - النَّاس شرقًا وغربًا، ودانت له جبابرة الأرض وملوكها، وخافت زوال ملكهم؛ ككسرىٰ وقيصر، وأسلم النَّجاشيّ والأقيال رغبةً في دين الله، والتزم من لم يؤمن به

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٥٨).

من عظماء الأرض الجزية، والأيادة عن صغار، أهل نجران، وهجر، وأيلة، وأنذر دومة، فذلُّوا له منقادين، لما أيَّده الله به من الرُّعب الَّذي يسير بين يديه شهرًا، وفتح الفتوح، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: ١، ٢]».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بعد سياقه كلام أبي نعيم**(١): «مات رسول الله ﷺ، وقد فتح الله له المدينة وخيبر ومكَّة وأكثر اليمن وحضرموت، وتوفِّي عن مائة ألف صحابيٍّ أو يزيدون. وقد كتب في آخر حياته الكريمة إلىٰ سائر ملوك الأرض يدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ؛ فمنهم من أجاب، ومنهم من صانع ودارىٰ عن نفسه، ومنهم من تكبَّر فخاب وخسر، كما فعل كسرىٰ بن هرمز حين عتا وبغىٰ وتكبَّر؛ فمزِّق ملكه، وتفرَّق جنده شذر مذر. ثمَّ فتح خلفاؤه من بعده، أبو بكرٍ ثمَّ عمر ثمَّ عثمان ثمَّ عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ التَّالي علىٰ الأثر مشارق الأرض ومغاربها، من البحر الغربيِّ إلىٰ البحر الشَّرقي، كما قال رسول الله ﷺ: «**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمَّتي ما زوي لي منها**»، وقال ﷺ: «**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده، والَّذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**»، وكذا وقع سواءً بسواء، فقد استولت الممالك الإسلاميَّة علىٰ ملك قيصر وحواصله، إلَّا القسطنطينيَّة، وجميع ممالك كسرىٰ وبلاد المشرق،

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٥٨).

وإلىٰ أقصىٰ بلاد المغرب، إلىٰ أن قُتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سنة ستة وثلاثين.

فكما عمَّت جميع أهل الأرض النِّقمة بدعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما رآهم عليه من التَّمادي في الضَّلال والكفر والفجور، فدعا عليهم غضبًا لله ولدينه ورسالته؛ فاستجاب الله له، وغضب لغضبه، وانتقم منهم بسببه؛ كذلك عمَّت جميع أهل الأرض ببركة رسالة محمَّد ﷺ ودعوته؛ فآمن من آمن من النَّاس، وقامت الحُجَّة علىٰ من كفر منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما قال ﷺ: «**إنَّما أنا رحمة مهداة**».

وفي جواب الله عَزَّوَجَلَّ لأهل الكتاب: «هل نقصتكم من حقكم شيئًا؟»؛ فائدة مهمَّة في أصول الفقه، فهذا الإجمال في الجواب بيان؛ لأنَّ قاعدةَ الثوابِ العدلُ، وهذا لا يمنع طلب تفصيل الجواب من بقية النصوص مما يدل علىٰ ذلك، من غير تعالم ولا تألٍّ علىٰ الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فضَّل الله بعض النَّبيِّين علىٰ بعضٍ وإن كان الفاضل أقلَّ عملًا من المفضول، كما فضَّل الله نبيَّنا ﷺ - ومدَّة نبوَّته بضع وعشرون سنةً - علىٰ نوحٍ وقد لبث في قومه ألف سنةٍ إلَّا خمسين عامًا، وفضَّل أمَّة محمَّدٍ ﷺ وقد عملوا من صلاة العصر إلىٰ المغرب علىٰ من عمل من أوَّل النَّهار إلىٰ صلاة الظُّهر، وعلىٰ من عمل من صلاة الظُّهر إلىٰ العصر؛ فأعطىٰ الله أمَّة محمَّدٍ ﷺ أجرين، وأعطىٰ كلًّا من أولئك أجرًا أجرًا؛ لأنَّ الإيمان الَّذي في قلوبهم كان أكمل وأفضل، وكان

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٤٣).

أولئك أكثر عملًا، وهؤلاء أعظم أجرًا، وهو فضله يؤتيه من يشاء بالأسباب الَّتي تفضَّل بها عليهم وخصَّهم بها».

وفي قوله ﷺ: «فعملت اليهود من غدوة إلىٰ نصف النهار علىٰ قيراط، والنصارىٰ من نصف النهار إلىٰ صلاة العصر»، يُراد به الموحدون من اليهود والنَّصارىٰ قبل تحريف شرائعهم وقبل بعثة محمد ﷺ؛ لأن الكافر لا يُقبل عمله ولا يُثاب عليه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٥].

والذين امتدحهم الله في القرآن من أهل الكتاب هم من آمن بمحمد ﷺ وما بُعث به ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

أما من أدرك بعثته ولم يؤمن به؛ فهذا كافر بمحمد ﷺ وسائر النبيِّين عليهم السلام، وليس هو من جملة من مدح الله من مؤمني أهل الكتاب، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة من يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي؛ إلا دخل النار»**.

والصنف الثاني من الذين امتدحهم الله في القرآن من أهل الكتاب؛ مَن كان علىٰ التوحيد قبل تحريف التوراة والإنجيل، وكان معتقدًا لنبوَّة محمد ﷺ

جازمًا بالإيمان به وبشرعه ونصرته إذا بعثه الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال العلامة أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن تعظيم الحواريين لا نزاع فيه، وأنهم من خواص عباد الله الذين اتبعوا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولم يبدلوا، وكانوا معتقدين بظهور نبينا محمد ﷺ في آخر الزمان، علىٰ ما دلت عليه كتبهم، وإنما كفر وخالف الحادثون بعدهم».

فالذين اتبعوا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الشرع المنزل إليه الذين آمنوا بالله إلهًا واحدًا، لا ثالث ثلاثة، وآمنوا بالنبيين جميعًا؛ هؤلاء هم الذين امتدحهم الله.

قال أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الذين اتبعوه ليسوا النصارىٰ الذين اعتقدوا فيه أنه ابن الله، وسلكوا مسلك هؤلاء الدُّبَرَاءِ؛ فإن اتباع الإنسان موافقته فيما جاء به».

والمدح لصوامع وبيع أهل الكتاب؛ إنما كان في زمن شريعة التوراة والإنجيل قبل التبديل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، (ص ٧٦)، باختصار.

(٢) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، (ص ٧٢).

قال أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصوامع أمكنة الرهبان في زمن الاستقامة حيث يُعبد الله تعالىٰ فيها علىٰ دين صحيح، وكذلك البيعة والصلاة والمسجد، وليس المراد هذه المواطن إذا كُفر بالله تعالىٰ فيها، وبُدِّلت شرائعه، وكانت محل العصيان والطغيان، لا محل التوحيد والإيمان».

وكلام القرافي صحيح جدًّا، فقد ذمَّ النبي ﷺ كنائس وبيع أهل الكتاب بعد تحريفهم شرائع الله وتعبدهم بالشرك؛ عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصُّوَر، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»[2].

والنبيُّ ﷺ عامل أهل الكتاب في عصره معاملة الكفار، وهذا حكم الله فيهم المذكور في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وهكذا عامل النبيُّ ﷺ نصارىٰ نجران، وأرسل معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلىٰ يهود اليمن، وقال له: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله**» متفق عليه.

فدين أهل الكتاب المبدّل باطل، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ

---

(١) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، (ص ٧٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (ص٧٥ - رقم ٤٣٤)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد علىٰ القبور (ص٢١٥ - رقم ١١٨١).

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اليهوديَّة والنصرانية المتضمِّنة للمنسوخ المبدل، وهي التي عليها اليهود والنَّصارىٰ الذين كذَّبوا محمَّدًا ﷺ، فهذه ليست دين أحد من الأنبياء، لا موسىٰ ولا عيسىٰ ولا غيرهما.

فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٣٥]، فقد أمرهم الله أن يقولوا: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ فلا يجوز لنا اتِّباع ما اختصَّ به أهل التَّوراة والإنجيل من الشَّرع المنسوخ، فكيف بالمبدل؟!».

والكفر بمحمد ﷺ كفرٌ بجميع الرسل؛ فالرسل جميعًا بَشرت به، فمن كفر به فقد كفر بموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام اللذين بشَّرَا بمحمد ﷺ، وكفر بالتوراة والإنجيل اللذين بشَّرَا به، وما تكذيب أو كفر أهل الكتاب إلا عناد وتحريف للتوراة والإنجيل وما بُعث به أنبيائهم.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الرُّسل عليهم السلام كلّهم بشَّروا بوجود محمَّد ﷺ، ونعته، وصفته، وبلده، ومهاجره، وصفة أمَّته».

أما كفر اليهود بمحمَّد ﷺ فحسدًا من عند أنفسهم؛ لأنَّه لم يكن منهم، وكان من العرب من ذريَّة إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (ص٤٧٠).

وأمَّا كفر النصارىٰ بمحمَّد ﷺ فكان خوفًا علىٰ جاههم وسلطانهم؛ فإنَّ هرقل بعد أن تبيَّنت له دلائل نبوَّة محمد ﷺ من سؤالاته لأبي سفيان، أراد أن يُسلم، فعرض الأمر علىٰ قومه خصوصًا أحبارهم من القساوسة، فلمَّا رأىٰ كفرهم ووثوبهم عليه؛ صانعهم علىٰ الكفر، ثم صار يقاتل عليه، وهذا بسبب إعراضه عن الحق بعد معرفته؛ فأركسه الله في ضلال الكفر والشِّرك والقتال علىٰ الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]، هذه الآية جعلها ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مؤمني أهل الكتاب، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يُؤتَون أجرَهم مرَّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّه وآمن بي؛ فله أجران، وعبدٌ مملوك أدَّىٰ حقَّ الله وحقَّ مواليه؛ فله أجران، ورجل أدَّبَ أمَتَهُ فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوَّجها؛ فله أجران**».

وسعيد بن جبير جعل الآية في حقّ هذه الأمة، حيث افتخر مؤمنو أهل الكتاب بأنَّهم يُؤتون أجرهم مرَّتين؛ فأنزل الله هذه الآية، ومعنىٰ: ﴿كِفْلَيْنِ﴾

[الحديد: ٢٨] أي: ضِعْفين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

ورجَّح العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الآية عامَّة في مؤمني أهل الكتاب وغيرهم(١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]؛ هو نور الوحي يهتدي به المسلم في سيره إلىٰ الله، وهو فرقان يعرف به المسلم الحقَّ من الباطل.

فالقرآن فرقان؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال الله في القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الفرقان هو: العلم والهدىٰ الذي يُفرِّق به صاحبه بين الهدىٰ والضَّلال، والحقِّ والباطل، والحلال والحرام، وأهل السَّعادة من أهل الشَّقاوة».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إنَّ القرآن فرقان، يُفرِّقُ بين الحَقِّ والباطل، وبين الصِّدق والكذب، وبين الجور والعدل، وأولياء الله وأعداء الله».

فالقرآن نور يهدي به الله من اتَّبعه صراط الله المستقيم، ويكون ذلك

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٨٩٢).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (٢/ ٦١٥).

(٣) شرح عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (ص٣٣٤).

سبب هدايته ورضا الله عنه ودخوله الجنَّة، قال تعالىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ البصر إنَّما هو بنور الإيمان والعلم».

فالقرآن ميزان يُعرف به الحق من الباطل، فالقرآن كلام الله ووحيه، والله يقول الحقَّ ويهدي السَّبيل، وما خالفه فهو الباطل، قال تعالىٰ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس: ٣٢].

قال العلَّامة ابن هُبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الله تعالىٰ يقضي بالحق ويقوله، فمن أراد أن يوافق ربَّه دائمًا؛ فليكن قوله الحقّ وعمله الحقّ».

فمن أراد زكاء اعتقاده وقوله وعمله فليوافق القرآن، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا واصفةً خلق النبي ﷺ: «كان خُلقه القرآن»[٣].

قال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «أي: كان موافقًا لما نزل به القرآن».

فالقرآن هو معيار الحقّ، وهو المرجع في بيان الحقّ من الباطل.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٠٠).

(٢) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (١/ ١٣٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل (ص٣٠١ - رقم ١٧٣٩).

(٤) تفسير القرآن (٦/ ١٨).

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لم يزل لله نُصَّاحًا من خلقه في أرضه، يَعرضون أعمال العباد علىٰ القرآن، فبالقرآن يعرفون هدي من اهتدىٰ، وضلالة من ضلَّ، أولئك خلفاء الله عَزَّوَجَلَّ في أرضه».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب: «وفيه تعليقًا عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أحبُّ الدِّين إلىٰ الله الحنيفيَّة السَّمحة»».

قوله: «وفيه»: أي في «صحيح البخاري»، «تعليقًا»؛ وهذا ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به[٢]، وهو مسند رواه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، كلاهما عن يزيد بن هارون، أنا محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحبُّ إلىٰ الله؟ قال: «**الحنيفية السَّمحة**».

وهذا الحديث فيه علَّتان:

الأولىٰ: محمد بن إسحاق مدلس، لم يُصرِّح بالتَّحديث عن داود بن الحصين.

الثَّانية: رواية داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عبَّاس منكرة، كما قال عليُّ بن المديني.

وله طرق أخرىٰ مرسلة وضعيفة[٣].

---

(١) الحجة علىٰ تارك المحجَّة (٢/ ٥١٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدِّين يسر (ص٩).

(٣) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٤٨، ١٤٩).

ومعنىٰ هذا الحديث صحيح بدلالة القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والحنيف هو المقبل علىٰ الله المائل عن الشِّرك، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الحنيف: المقبل علىٰ الله، المعرض عمَّا سواه.

ومن فسَّره بالمائل، فلم يفسره بنفس موضوع اللَّفظ، وإنَّما فسَّره بلازم المعنىٰ؛ فإنَّ الحنف هو الإقبال، ومن أقبل علىٰ شيء مال عن غيره.

والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما علىٰ الأخرىٰ، ويلزمه ميلها عن جهتها، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠] فـ﴿حَنِيفًا﴾ هو حال مقرِّرة لمضمون قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، ولهذا فُسرت «مخلصًا»، فتكون الآية قد تضمَّنت الصدق والإخلاص؛ فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقىٰ في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره؛ فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإفراد أن لا ينقسم مطلوبك؛ الأول: توحيد الطلب، والثاني:

(١) بدائع التَّفسير (٣/ ٦٢).

توحيد المطلوب».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم؛ أن تعبد الله مخلصًا له الدِّين، وبذلك أمر الله جميع النَّاس، وخلقهم لها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]».

وملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي الدِّين كله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وأخصُّ صفات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي نعته الله بها هي التَّوحيد والطَّاعة، وهذا هو الدِّين كله، قال الله سبحانه في وصف خليله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

فقوله ﴿حَنِيفًا﴾ هذا وصف الخليل في توحيده، وقوله: ﴿قَانِتًا﴾ فهو وصفه في عبادته.

ومع ما كان عليه جميع الرُّسل من التَّوحيد والطَّاعة، فالخصوصيَّة التي لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ذلك:

١ - أنَّ الله اتَّخذه خليلًا[2].

---

(١) الدرر السنيّة (٢/ ٢٣).

(٢) التُّحفة العراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٣٧٩).

٢- كل نبيٍّ كان يُبعث إلىٰ قومه خاصَّة، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الإمام الَّذي قال الله فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

٣- أنَّ الله أمر المرسلين باتِّباعه خصوصًا خاتم المرسلين؛ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٤- أنَّ الله جعل في ذريَّته النبوَّة والكتاب، فكل النبيِّين من بعده فهم من ذريَّته، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ومن جملتهم نبيُّنا محمد ﷺ الذي قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ أخي عيسىٰ»، رواه أحمد[1].

٥- أنَّ الله جعل الحنيفيَّة فيمن هداه من ذريَّته، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

٦- هو الذي بنىٰ الكعبة قبلة المسلمين جميعًا، وأقام شعائر الحجّ، وأذَّن في النَّاس بالحج، وهذه أعظم شعائر الملَّة، ولذلك أمر الله باتِّخاذ مقام إبراهيم مصلًّىٰ، وهذا يعمُّ كل مقاماته في الحجِّ.

٧- أنَّه أعظم النَّاس تحقيقًا للحنيفيَّة، وصبرًا علىٰ الدَّعوة للتَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك، لذلك قال الله في وصفه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

٨- وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الذي بنىٰ الكعبة ليقيم النَّاس توحيدهم

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٧)، وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (ص١٣٧٩).

بالصَّلاة إلىٰ جهتها، حيث قال في سبب ترك إسماعيل وأمّه في مكَّة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ في سبب اصطفاء خليل الرَّحمن لبناء الكعبة في مكَّة التي اصطفاها الله لذلك ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [الحج: ٢٦].

٩ - إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو أوَّل من أول من اختتن، وأقرىٰ الضَّيف، فملَّته الفطرة ومكارم الأخلاق.

وملَّة إبراهيم هي الموالاة في الله، ولله، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد أمرنا الله أن نتأسَّىٰ بإبراهيم عليه السلام وَالَّذين مَعَه، إِذْ تبرءوا من الْمُشْركين وَمِمَّا يعبدونه من دون الله.

قال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، والبراءة ضد الولاية، وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحبُّ.

وهذا لأن حقيقة التَّوحيد ألا يحب إلَّا الله، ويحب ما يحبه الله لله، فلا يحب إلَّا لله ولا يبغض إلَّا لله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]. والفرق ثابت بين الحبِّ لله والحب مع الله؛ فأهل التَّوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله،

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٦٥).

والمشركون يحبون غير الله مع الله؛ كحب المشركين لآلهتهم، وحب النَّصارىٰ للمسيح، وحب أهل الأهواء رءوسهم».

وكل الملل تنتسب إلىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، خصوصًا أهل الكتاب: اليهود والنَّصارىٰ، الذين حرَّفوا ملَّة إبراهيم من الحنيفيَّة التي هي التَّوحيد إلىٰ الشِّرك، فقالت النَّصارىٰ: المسيح ابن الله. وقالت اليهود: عزير ابن الله. فهؤلاء ليسوا علىٰ ملَّة إبراهيم، قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ودعاوىٰ أهل الكتاب تجاوزت من الانتساب إلىٰ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ الانتساب لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة: ١٨].

والله عَزَّوَجَلَّ ذكر الفرقان في معرفة الحنفاء أتباع ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وفي سياق هذه الآيات أمرنا الله جميعًا بالدَّعوة إلىٰ توحيده، لأنَّه حق الله الخالص، وهو ملَّة إبراهيم والنبيِّين جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾، كما اتخذتم عيسىٰ وعزيرًا، وهم بشر مثلنا، أو لا نطيع الأحبار فيما حرَّموا وحلَّلوا من غير شريعة، كما قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]».

وإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أعظم النَّاس بركةً علىٰ أمَّة محمد ﷺ، فجاءت أمَّته من ذرية ولده إسماعيل، وصارت أمةً عظيمة في دينها وعقيدتها وأخلاقها، كل ذلك ببركة دعوة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حيث قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وملة إبراهيم هي الاستسلام لله في أمره كله، هذا المعنىٰ العام لكل حقائق الحنيفية؛ ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، فالاستسلام لله وتصديق خبره كله، وطاعته في فعل أمره وترك نهيه؛ هو ملة إبراهيم حقًّا، فهذا المعنىٰ الجامع لكل أفراد ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وتفسير كثير من العلماء لها في أكثره إنَّما هو بيان لبعض أفراد هذا المعنىٰ الجامع.

قال محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حنيفًا: أي: مستقيمًا»[٢].

وقال مجاهد: مخلصًا[٣].

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: حاجًّا[٤].

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٠٣).

(٢-٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٧٥).

وقال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرىٰ أنَّ حجَّه عليه إن استطاع إليه سبيلًا[١].

وقال مجاهد والرَّبيع بن أنس: حنيفًا؛ أي: متَّبِعًا[٢].

وقال أبو قلابة: الحنيف: الذي يؤمن بالرُّسل كُلِّهم من أوَّلهم إلىٰ آخرهم[٣].

وقال قتادة: الحنيفيَّة شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيها تحريم الأمَّهات والبنات والخالات والعمَّات، وما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ، والختان[٤].

والاستسلام لله والانقياد لحكمه وأمره وشرعه هو الذي يتحقَّق به التَّوحيد، وكذلك البراء من الشِّرك والمشركين، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وهذا هو دين الحقّ الذي أمر الله باتِّباعه، قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا معنىٰ التَّوحيد واستلزامه للبراء من الكافرين[٥]: «قول الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ للكفَّار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦،٢٧]، فاستثنىٰ من المعبودين ربَّه.

وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أنْ لا إله

(١-٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢٧٥).

(٥) كتاب التَّوحيد، الباب الخامس، باب تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، في المسائل (ص٣٤)، ط: دار السَّلام، الرِّياض.

إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]».

فتوحيد الله والإيمان به لا يتحقَّق إلَّا بالولاء لله وللمؤمنين، والبراء من الشِّرك والمشركين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه مستلزم لعدم ولايتهم – الكافرين –، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم.

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يوادُّ كافرًا؛ فمن وادَّ الكفار فليس بمؤمن، فالمشابهة الظاهرة مظنة المودة، فتكون محرمة».

ملة إبراهيم هي اتِّباع الوحي والحكمة، هذا معناها العام الشَّامل لجميع أفرادها، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤]، وخاتم النبيِّين محمد ﷺ من آل إبراهيم، فقد أوتي الوحي والحكمة.

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (ص٣٣١).

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد بآل إبراهيم هنا: كل من تبعه علىٰ دينه، وهو أوَّلهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد آتاهم الله الكتاب وآتاهم الحكمة، وجعل في ذريَّته النبوَّة والكتاب».

ومن معاني الحكمة التي ذكرها المفسِّرون التي أوتيها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التفقُّه في الدِّين[٢]؛ لأنَّ ملَّة إبراهيم وحكمته وما بُعث به وكذلك ما بُعث به نبيُّنا ﷺ لا يُدرك إلَّا بطلب علمه؛ فإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنَّما ورَّثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافر.

وما يدركه المسلم من بركات العلم وهدايته للاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة، وزكاء النفس والهداية إلىٰ صراط الله، وأقوم الأخلاق، والفرقان الذي يعرف به الحق من الباطل ويحاذر به سبل البدع والضَّلال يحثُّ علىٰ الاستمرار في طلب العلم والعمل به والازدياد في تعلمه وتعليمه، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الإنسان إذا شعر بنعمة الله عليه بالعلم والعبادة والدَّعوة؛ فإنَّه يزداد فرحًا وسرورًا ومثابرةً وصبرًا علىٰ ما هو عليه من طلب العلم، وازدياد العبادة، وقوة الدَّعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

وملة إبراهيم هي العزم علىٰ فعل الطَّاعات والخيرات، وهذا جعله الله

---

(١) تفسير سورة النساء (١/ ٤١٥).

(٢) رموز الكنوز (١/ ٥٣٦).

(٣) تفسير سورة المائدة (٢/ ٥١٠).

تشريعًا للنَّاس إلىٰ يوم القيامة؛ ليُثقِّل الله موازين عباده بالحسنات يوم القيامة، فالحنفاء يعزمون علىٰ فعل الطَّاعات عزمًا جازمًا، فيكتب الله لهم ثوابها ولو حيل بينهم وبين فعلها؛ فإنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُري في المنام أنَّه يذبح ابنه إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، فعزم الخليل علىٰ طاعة الله وانقاد هو وابنه إسماعيل لأمر الله، وجعل الله لهم مخرجًا بعد أن علم الله ما في قلوبهم من الصِّدق والإخلاص وما عزموا عليه من طاعة الله، وما باشروه من أسباب فعل الطَّاعة؛ ففدىٰ الله إسماعيل بذبح عظيم، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله تعالىٰ شرع لإبراهيم ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلىٰ الفداء، وإنَّما كان المقصود من شرعه أولًا إثابة الخليل علىٰ الصَّبر علىٰ ذبح ولده، وعزمه علىٰ ذلك، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الاختبار الواضح الجليّ؛ حيث أُمر بذبح ولده، فسارع إلىٰ ذلك مستسلمًا لأمر الله تعالىٰ، منقادًا لطاعته، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٥).

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾؛ أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم؛ فكان عظيمًا من جهة أنَّه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنَّه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنَّه كان قربانًا وسنَّة إلىٰ يوم القيامة».

فكان من ملَّة إبراهيم تشريع النُّسك، وذبح بهيمة الأنعام تقرُّبًا إلىٰ الله، وكذلك العزم علىٰ الطَّاعات، وذبح النُّسك من أعظم وأفضل الطَّاعات، لذلك اتَّفقت الشَّرائع علىٰ مشروعيَّته، قال تعالىٰ: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: ٣٤]، وكان في شرعة ملَّة الإسلام الثَّواب علىٰ العزم علىٰ الطَّاعات، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقال النبيُّ ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق؛ بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات علىٰ فراشه**»، رواه مسلم.

ملة إبراهيم هي حنيفية التَّوحيد، وهي الإخلاص لله بالاستقامة إليه وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الحنيفية» هي الاستقامة بإخلاص الدِّين لله، وذلك يتضمَّن حبه تعالىٰ، والذل له، لا يشرك به شيء لا في الحبِّ ولا في الذل؛ فإن العبادة تتضمَّن غاية الحبّ بغاية الذل، وذلك

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (٣/ ١٤٧٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٦٦، ٤٦٧).

لا يستحقّه إلَّا الله وحده، وكذلك الخشية والتَّقوىٰ لله وحده، والتوكل علىٰ الله وحده.

والرَّسول ﷺ يطاع ويحب، فالحلال ما أحلَّه والحرام ما حرمه، والدِّين ما شرعه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وهذا حقيقة دين الإسلام، والرسل بُعثوا بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

فَهَذَا هُوَ الأَصْل الَّذِي يجب علىٰ كل أحد أَن يعتصم بِهِ، فَلَا بُد أَن يكون مرِيدًا محبًّا لما أمره الله بإرادته ومحبته، كَارِهًا مبغضًا لما أمره الله بكراهته وبغضه».

ملَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي التَّوحيد، وعبوديَّة الله، والدَّعوة إلىٰ ذلك، والصَّبر علىٰ الأذىٰ فيه، وهي النَّهي عن الشِّرك.

ملَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي موالاة الله ورسوله والمؤمنين، والبراءة من الشرك والمشركين.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا

ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾

[الزخرف: ٢٦-٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كلِّ معبودٍ سواه، كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعضٍ، وهي كلمة: لا إله إلَّا الله، وهي الَّتي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة.

وهي الكلمة الَّتي قامت بها الأرض والسَّموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسِّست الملَّة ونُصبت القبلة، وجُرِّدت سيوف الجهاد، وهي محض حقِّ الله علىٰ جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدَّم والمال والذُّرِّيَّة في هذه الدَّار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النَّار، وهي المنشور الَّذي لا يدخل أحدٌ الجنَّة إلَّا به، والحبل الَّذي لا يصل إلىٰ الله من لم يتعلَّق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السَّلام، وبها انقسم النَّاس إلىٰ شقيٍّ وسعيدٍ، ومقبولٍ وطريدٍ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميَّزت دار النَّعيم من دار الشَّقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرض والسُّنَّة، و«**من كان آخر كلامه: لا إله إلَّا الله. دخل الجنَّة**»».

ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ محاذرة الشِّرك والخوف منه، وهذا يوجب علىٰ الحنفاء المتَّبعين له الخوف نفسه، وعدم التَّهاون فيه، وتعاهد التَّوحيد بالحفظ والصِّيانة، والتعلم والتعليم.

قال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

---

(١) الجواب الكافي (ص٤٥٦).

وملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي الابتهال إلىٰ الله بحفظ الدِّين وإقامة مبانيه، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حنيفيَّة التَّوحيد، أفسدها في جزيرة العرب عمرو بن لحيّ الخزاعي بتشبُّهه بالكافرين؛ فهذا فيه بيان خطر التشبُّه بالكافرين، وأنَّه من أسباب الشِّرك وإفساد التَّوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن عمرو بن لحي هو أول من نصب الأنصاب حول البيت، ويُقال: إنه جلبها من البلقاء من أرض الشام، متشبهًا بأهل البلقاء، وهو أول من سيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمىٰ الحامي، فأخبر النبي ﷺ أنه رآه «**يجر قصبه في النار**»، وهي الأمعاء، ومنه سُمي القَصَّابُ بذلك؛ لأنها تشبه القصب، ومعلوم أن العرب قبله كانوا علىٰ ملة أبيهم إبراهيم علىٰ شريعة التوحيد، والحنيفية السمحة، دين أبيهم إبراهيم.

فتشبَّهوا بعمرو بن لحي، وكان عظيم أهل مكة يومئذ؛ لأن خزاعة كانوا ولاة البيت قبل قريش، وكان سائر العرب متشبهين بأهل مكة؛ لأن فيها بيت الله، وإليها الحج، ما زالوا معظمين من زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتشبَّه عمرو بمن رآه في الشام، واستحسن بعقله ما كانوا عليه، ورأىٰ أن في تحريم ما حرّمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي؛ تعظيمًا لله وديناً، فكان ما كان فعله أصل الشرك في العرب، أهل دين إبراهيم، وأصل تحريم الحلال،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٩).

وإنما فعله متشبِّهًا فيه بغيره من أهل الأرض، فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتىٰ غلب علىٰ أفضل الأرض الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وتغيّر دينه الحنيف، إلىٰ أن بعث الله رسوله ﷺ، فأحيا ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأقام التوحيد، وحلَّل ما كانوا يحرِّمونه».

وفي قول النَّبيِّ ﷺ: «من تشبَّه بقوم فهو منهم» - رواه أحمد، وجوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] -؛ دلالة علىٰ حكم التشبُّه بالكافرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّه منهم في القدر الذي شابهم فيه، فإن كان كفرًا، أو معصية، أو شعارًا لها؛ كان حكمه كذلك».

وإن قلت: كيف يكون إبراهيم سيِّد الحنفاء، وإمامًا للأنبياء والمؤمنين، وقد قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؟! فهذا ليس بشكٍّ من إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قدرة الله علىٰ إحياء الموتىٰ، وإنَّما أراد أن يزداد إيمانه في ذلك فيكون عين اليقين، وإلَّا فاعتقاده في ذلك علم اليقين، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾، أي: ليزداد إيماني. وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم؛ إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾».

وفي هذا بيان ما كان عليه النبيُّ ﷺ من موالاة الأنبياء والانتصاف لهم،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦٤).

وتخريج أحوالهم علىٰ أحسن ما يكون.

وقد كان النبيُّ ﷺ أتمَّ موالاة للرسل وتواضعًا لهم، فقد قال أحد الصَّحابة للنبيِّ ﷺ: يا خير البريَّة!

فقال له النَّبي ﷺ: «**ذاك إبراهيم**»، رواه مسلم. مع أنَّه سيد ولد آدم.

وملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحنيفية السمحة، ومن سماحتها نفي الحرج، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [الحج: ٧٨]، وبُعث نبينا ﷺ بتجديد ملة إبراهيم الحنيفية السمحة بعد أن أصاب من قبلنا الآصار والأغلال بسبب عنتهم وعنادهم لأمر الله وبسبب ظلمهم وتحريفهم للشريعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا**﴾ [آل عمران: ٦٧]؛ نفي أن يكون علىٰ ما اختص به شرع التوراة والإنجيل، وليس علىٰ ملة إبراهيم، بل ملة إبراهيم أن يعبد الله وحده بما أمر، ومحمد ﷺ أمر بملة إبراهيم، وأمر بها أن يعبد الله وحده، ورفع به الآصار والأغلال التي كانت علىٰ أهل الكتاب ولم تكن مشروعة لإبراهيم، فكان الشرع الذي بُعث به أولىٰ بإبراهيم.

وأما اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المبدل، وهي التي عليها اليهود والنصارىٰ الذين كذبوا محمدًا؛ فهذه ليست دين أحد من الأنبياء، لا

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٨٣).

موسىٰ ولا عيسىٰ، ولا غيرهما».

ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هي الدين القيِّم من توحيد الله وعبادته وفعل الخيرات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨]، قال بعضهم: هو منصوب بنزع الخافض، ومال إليه ابن جرير، أي: ما جعل عليكم في دينكم من ضيق، كملة إبراهيم.

وأعربه بعضهم منصوبًا بمحذوف؛ أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم، ولا يبعد أن يكون قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨] شاملًا لما ذُكر قبله من الأوامر في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، ويوضِّح هذا قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، والدِّين القيّم الذي هو ملة إبراهيم شامل لما ذكر كله».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾: وحِّدُوه.

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٨١٨).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٩٥).

وقيل: اقصدوا بركوعكم وسجودكم وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ أبواب البرِّ كلها؛ من صلة الأرحام ومكارم الأخلاق.

أمرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالصلاة علىٰ سبيل التعيين؛ لعظم خطرها، ثم عَقَّبَ ذلك بالأمر بغيرها من أفعال الخير علىٰ سبيل العموم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذا وأنتم راجون الفلاح».

وتوحيد الله وعبادته وفعل الخيرات هو دين الأنبياء جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الزمر: ١٧]؛ أي: ابتعدوا عنه.

والطاغوت: اسم من الطُّغْيان، والتَّاء فيه للمبالغة.

فما هو الطَّاغوت الذي اشْتُقَّ من الطُّغْيان؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطَّاغُوتُ كُلُّ ما تجاوز به العَبْدُ حَدَّهُ من معبود أو مَتْبُوع أو مُطاع».

فكل ما تجاوز به الإنسان حَدَّه فهو طاغوت، وإنَّما قال: «ما تجاوز به

(١) تفسير سورة الزمر (ص١٤٢، ١٤٣).

حَدَّه» من أجل أن يَصْدُق عليه أنَّه طُغْيانٌ من مَعْبودٍ أو مَتْبوع أو مطاع، فمثلًا: الأصنام التي يَعْبُدها الكُفَّار تُسمَّىٰ: طواغيت، المَتْبوعين من العلماء طواغيت، المَتْبوعين المطاعين من الأمراء كذلك أيضًا طواغيت.

لكن كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس علىٰ ظاهره، مرادُهُ بالمعبود: الذي لا إرادة له؛ كالأصنام من الجمادات، أو المعبود الذي رضيَ بعبادتهم. وأما المعبود الذي عُبد وهو لا يَرْضىٰ بالعبادة فلا يُسَمَّىٰ طاغوتًا، ولهذا لا يُمْكِنُ أن نُسمِّيَ عيسىٰ ابن مريم «طاغوتًا»، وكذلك أيضًا: «المتبوع»، فالعلماء الذين لا يرضون أن يعبدهم الناس ليسوا طواغيت، و«المُطاعُ» أيضًا، الأمراء الذين لا يَرْضَوْنَ أن يعبدهم النَّاس لا يُسَمَّوْن طواغيت.

فكلام ابن القيم إذن ليس علىٰ إطلاقه، ويمكن أنْ نقول: إنَّ قول ابن القيِّم: «ما تجاوز به العبد حَدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع»؛ أنَّه عائد علىٰ العمل، يعني: أنَّ الطاغوت عمل الإنسان في معبوداته أو من يطيعهم أو من يَتْبَعُهُم، يعني: معصية الله في طاعة هؤلاء، فيكون الوصف الطغيان عائدًا علىٰ الفعل لا علىٰ المفعول».

ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنكار التقليد للآباء بالباطل، وتحرير العقول من أغلال التقليد المُعطل للاهتداء للحق، وأعظمه توحيد الله.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ

ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦].

فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حاج المشركين عبَّاد الأصنام بصريح المعقول الموافق للشرع والفطرة، بأنَّ المستحقَّ للألوهية والعبودية هو ربُّ السموات والأرض الذي فطرهن وخلقهن وخلقكم وخلق أعمالكم، التي نحتُّم بها الأصنام وعبدتموها تقليدًا للآباء.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ردَّ عليهم إبراهيم ردًّا بيَّن به وجه سفههم، وقلَّة عقولهم، فقال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، فجمع لهم بين الدَّليل العقلي، والدَّليل السمعيِّ:

أمَّا الدليل العقليُّ، فإنَّه قد عَلِمَ كلُّ أحد، حتىٰ هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم: أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بني آدم، والملائكة، والجنِّ، والبهائم، والسموات، والأرض، المدبِّر لهنَّ، بجميع أنواع التدبير، فيكون كلُّ مخلوق مفطورًا مدبَّرًا متصرَّفًا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عُبد من دون الله، أفيليق عند من له أدنىٰ مُسْكةٍ من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقًا متصرَّفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًّا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبِّر؟!

وأمَّا الدَّليل السمعيُّ: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (٣/ ١٠٧٢).

فإنَّ ما جاءوا به معصومٌ لا يغلط ولا يُخبرُ بغير الحقِّ، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل علىٰ ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: أنَّ الله وحده المعبودُ، وأنَّ عبادة ما سواه باطل ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، وأيُّ شهادة بعد شهادة الله أعلىٰ من شهادة الرُّسل، خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن؟!».

وقد اعتنىٰ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتحرير العقول من ضلال التقليد بالباطل للآباء والأجداد، فهلاء بخسوا عقولهم وعطلوها عن تفهُّم حقِّ الله الخالص بتجريد التوحيد له وحده لا شريك له، وأيقظ في محاجته للقبوريين والمستغيثين بغير الله دلائل القرآن والسنة والفطرة والعقل الصريح علىٰ حق الله الخالص.

وعناية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعلاج هذه المعضلة التي أورثت كثيرًا من الناس الضلال والإصرار علىٰ الباطل، بل ومحاربة ومضادة الحق، ظاهرة وواضحة جدًّا؛ لأنَّها من أعظم أسباب النظر في دلائل الحقِّ.

ففي كتابه «ستة أصول عظيمة» ذكر الأصول الستة العظيمة التي بيَّنها الله تعالىٰ بيانًا واضحًا وغلط فيها كثير من بني آدم إلَّا أقل القليل، قال شيخ الإسلام[1]: «الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك

(١) ستة أصول عظيمة (ص٨١، ٨٢)، مطبوع ضمن متون التوحيد والعقيدة، ط: دار الآثار – القاهرة.

القرآن والسنَّة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وهي: أنَّ القرآن والسُّنَّة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد المطلق هو الموصوف بكذا وكذا أوصافًا لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضًا حتمًا لا شك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدىٰ منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمهما. فسبحان الله وبحمده! كم بيَّن الله سبحانه شرعًا وقدرًا، خلقًا وأمرًا في ردِّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتىٰ بلغت إلىٰ حد الضرورات العامة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس: ٧-١١]».

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مسائل الجاهلية(١):

«**الرابعة**: أن دينهم مبني علىٰ أصول أعظمها التقليد، فهو القاعدة الكبرىٰ لجميع الكفار أولهم وآخرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، فأتاهم

(١) مسائل الجاهلية (ص١٣٤، ١٣٥).

بقوله: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقوله: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]».

ومنهج الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التحذير من التقليد علىٰ الباطل هو أشهر معالم دعوة النبي ﷺ، فقد سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ: ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يقول: اعبدوا الله واتركوا ما يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف. رواه البخاري.

وعند الحديث عن التَّقليد لا بُدَّ من بيان ما هو التَّقليد المذموم الذي حرَّمه الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد ذم الله تعالىٰ في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلىٰ ما نشأ عليه من دين آبائه، وهذا هو **التقليد الذي حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وهو أن يُتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول ﷺ وهذا حرام باتفاق المسلمين** علىٰ كل أحد؛ فإنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرسول ﷺ طاعته فرض علىٰ كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان».

والتَّقليد الذي أنكره الله علىٰ المبطلين والضَّالين هو تلقِّي العقائد الشِّركيَّة بالقبول من غير اتِّباع لبرهان الحق في ذلك، وإنَّما لمجرَّد أنَّه دين الآباء والأجداد، وهذه طريقة المبطلين غبنوا عقولهم عن تحرِّي الحقّ وطلبه وأصرُّوا علىٰ الضَّلال استرواحًا للتَّقليد.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٢٦٠).

وطريقة المحقِّين اعتقاد الحقّ عن معرفة به ونظر في دلائله وشواهده، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩].

ومن التَّقليد المذموم اتِّخاذ أحد من المتبوعين مطاعًا وتقديمه بين يدي رسول الله ﷺ، وهذا واقع من بعض متعصِّبي مقلدة المذاهب، وهذا ممَّا نهىٰ عنه أئمَّة الفقهاء أنفسهم، فالشَّافعيُّ وأحمد وغيرهم كلُّهم قال: «إذا خالف قولي قول رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي عرض الحائط».

والذي يجب اتِّباعه هو رسول الله ﷺ، والعلماء ورثتهم فمن أدَّىٰ للنَّاس علم النبوَّة فهو داعٍ إلىٰ صراط الله، فهذا من الاهتداء والانتفاع بعلومهم التي أمرهم الله بأدائها، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله سبحانه جعل الرُّسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرُّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعًا بالدَّعوة إلىٰ الله وتعريف الطَّريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه».

والصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أعلم الأُمَّة، وكانوا إذا اختلفوا في شيء ردُّوا ما تنازعوا فيه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ رسوله ﷺ[2]، وهكذا ينبغي أن نكون.

ولا يعني ذم التَّقليد منابذة العلماء والاستنكاف عن الاستفادة من

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٥).

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ١٢٦).

علومهم، فإنَّ هذا منهج الخوارج، وقد وعظهم ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن هذا المنهج، وقال لهم: «أتيتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وأصحابه وهم الذين نزل عليهم القرآن وهم أعلم بتأويله».

ومن أعرض عن طلب العلم أو فرَّط في معرفة وطلب علم ما يجب عليه ويلزمه من دين الله؛ هذا يحتاج إلىٰ سؤال العلماء، ولا يُرخَّص له أن يقول علىٰ الله بغير علم أو أن يُعرض عن سؤال العلماء، قال تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أئمَّة المسلمين الذين اتَّبعوهم وسائل وطرق وأدلَّة بين النَّاس وبين الرَّسول ﷺ، يبلِّغونهم ما قاله، ويفهمونهم مراده بحسب اجتهادهم واستطاعتهم».

ولا يسأل العاميُّ المبتدعين؛ لأنَّهم ضلُّوا عن علم الكتاب والسُّنَّة، فصيانة العامَّة عن الأئمَّة المضلِّين واجب.

قال الحافظ ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أنَّ أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يُعدُّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنَّما العلماء أهل الأثر والتفقُّه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٢٢٤).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص٤١٦).

وشيخ الإسلام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نهيه عن التقليد بالباطل والغلو فيه هو من تجريده التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للنبيِّ ﷺ والنصيحة للمسلمين بذلك، وهو منهج رباني في إعطاء كل ذي حق حقَّه، ومن إنصاف أئمَّة الدَّعوة تلاميذه دعوتهم للعمل بهذا المنهج مع كل أحد، ومن جملتهم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال العلامة المجدِّد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معاذ الله! أن يوجب - شيخ الإسلام - علىٰ أحدٍ متابعته أو متابعة غيره إلَّا رسول الله ﷺ، وهذه رسائل الشيخ ومصنفاته ينهىٰ عن ذلك ويشدِّد فيه، ويأمر بتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، وينكر ما اعتاده الناس من الغلو في رأي العلماء واجتهادهم، وتنزيل ذلك منزلة النصوص النبويَّة، وقد عقد بابًا في كتاب التوحيد لهذه المسألة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [باب من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحلَّ الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله]، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]. وذكر حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

(١) مصباح الظَّلام في الردِّ علىٰ من كذب علىٰ الشيخ الإمام (ص١٤٣، ١٤٤).

ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب – باب فضل الإسلام – أثرين عن اثنين من علماء الصَّحابة، الأول[1]: [وعن أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «عليكم بالسبيل – الإخلاص – والسنة – المتابعة –، فإنه ليس من عبد علىٰ سبيل وسنة ذكر الرحمن، ففاضت عيناه من خشية الله، فتمسه النار. وليس من عبد علىٰ سبيل وسنة ذكر الرحمن، فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحات عنها ورقها «**إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها**»، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة].

وهذه وصيَّة عظيمة من أكابر علماء الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وفي بعض ألفاظ وصيَّة أبيٍّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ زيادة في آخر كلامه، وهي قوله[2]: «احرصوا أن تكون أعمالكم إن كانت اقتصادًا أو اجتهادًا علىٰ منهاج الأنبياء وسنتهم».

السَّبيل يطلق علىٰ الطَّريق والمنهج، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «يقول تعالىٰ لعبده ورسوله إلىٰ الثَّقلين – الإنس والجن – آمرًا له أن يُخبر النَّاس أنَّ هذه سبيله؛ أي: طريقه

(١) فضل الإسلام (ص٨).

(٢) التُّحفة العراقية في الأعمال القلبيَّة، لشيخ الإسلام (ص٤٣٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٢٣).

ومسلكُه وسُنَّتُه، وهي الدَّعوة إلىٰ شهادة أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، يدعو إلىٰ الله بها علىٰ بصيرةٍ من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلُّ من اتَّبعه، يدعو إلىٰ ما دعا إليه رسول الله ﷺ علىٰ بصيرة ويقين وبرهانٍ شرعيٍّ وعقلي».

ومن نصيحة أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **تبيينه السَّبيل الحقَّ بقوله**: «السَّبيل والسُّنَّة»؛ لأنَّ «السَّبيل» مطلقًا من غير بيان أو تقييد يحتمل سبيل الهدىٰ أو سبيل الضَّلال، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن «السَّبيل القصد» هي السَّبيل العادلة؛ أي: عليه السَّبيل القصد، و«السبيل» اسم جنس، ولهذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾؛ أي: عليه القصد من السَّبيل، ومن السَّبيل جائر، فأضافه إلىٰ اسم الجنس إضافة النَّوع إلىٰ الجنس؛ أي «القصد من السَّبيل»، كما تقول: «ثوب خز»، ولهذا قال: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾».

وقول أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بالسَّبيل»؛ أفرد «السَّبيل»، وهذا ما دلَّ عليه القرآن والسُّنَّة، فصراط الله المستقيم وسبيله واحد؛ لذلك ذكره الله مفردًا في القرآن، وطرق الضَّلال كثيرة؛ لذلك ذكرها الله مجموعة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ١٥٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إنَّما وحَّد سبيله؛ لأنَّ الحق واحد، ولهذا جمع السُّبُل لتفرُّقها وتشعُّبها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]».

وأيضًا لاحظ - أيُّها المسلم - كيف سمَّىٰ الله سبيله «صراطًا»، واختصَّ ذلك به، ولم يسمِّ السُّبل بذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «سمَّىٰ سبحانه طريقه صراطًا، وسمَّىٰ تلك سبلًا، ولم يسمِّها صراطًا كما سمَّاها سبيلًا، وطريقه يسميه سبيلًا كما يسميه صراطًا».

والسُّنَّة في اصطلاح المتأخِّرين هو ما أمر به الشَّارع أو حثَّ عليه استحبابًا، ولها استعمال في معنًىٰ خاصٍّ في مصطلح كثير من العلماء، يريدون به العقيدة السَّلفيَّة المتوارثة عن القرون الأولىٰ، فبعد ظهور البدع وتمايز أهل الحقِّ عن الفرق المبتدعة الضَّالَّة؛ كالقدريَّة والرَّافضية والخوارج والمرجئة، صار لفظ «السُّنَّة» يقابل «البدعة»، سواء في الاعتقاد أو العمل أو فيهما جميعًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «"السُّنَّة" لعبد الله بن أحمد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٧٩).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ١١٥، ١١٦).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٣٠٧).

والخلَّال والطَّبراني، و«السُّنَّة» للجعفي وللأثرم، ولخلق كثيرٍ صنَّفوا في هذه الأبواب، وسمَّوا ذلك كتب السُّنَّة؛ ليميِّزوا بين عقيدة أهل السُّنَّة وعقيدة أهل البدعة.

فالسُّنَّة كالشَّريعة هي: ما سنَّه الرَّسول ﷺ وما شرعه، فقد يراد به ما سنَّه وشرعه من العقائد وقد يُراد به ما سنَّه وشرعه من العمل، وقد يراد به كلاهما. فلفظ السُّنَّة يقع علىٰ معانٍ كلفظ الشِّرعة؛ ولهذا قال ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]: سنَّةً وسبيلًا. ففسَّروا الشِّرعة بالسُّنَّة والمنهاج بالسَّبيل».

وبيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية معنىٰ هذا المسمَّىٰ، وتحقُّقه في أهل السُّنَّة والجماعة، فقال[1]: «من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة: اتِّباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، واتِّباع سبيل السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، واتِّباع وصيَّة رسول الله ﷺ حيث يقول: **«عليكم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعدي، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»**. ويعلمون أنَّ أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، ويؤثرون كلام الله علىٰ غيره من كلام أصناف النَّاس، ويُقَدِّمُون هدي محمَّدٍ ﷺ علىٰ هدي كلِّ أحدٍ، ولهذا سُمُّوا أهل الكتاب والسُّنَّة.

وسمُّوا أهلَ الجماعة؛ لأنَّ الجماعة هي الاجتماع، وضِدُّها الفرقة، وإن

(١) العقيدة الواسطية (ص٦٢، ٦٣)، ط ـ دار الصميعي.

كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين، والإجماع هو الأصل الثَّالث الَّذي يُعتمد عليه في العلم والدِّين.

وهم يزنون بهذه الأصول الثَّلاثة جميع ما عليه النَّاس من أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ، ممَّا له تعلُّق بالدِّين».

فالمقصود أن نعرف معاني لفظ «السُّنَّة» في الاصطلاح العقدي والأصولي، ومعناه الأعم في الشَّريعة؛ فهو اسم لكل ما ثبت بالسُّنَّة من: اعتقاد، أو فقه، أو حكم، أو قضاء، أو سياسة، أو أدب، وغيره ممَّا دلَّ عليه قول النبيِّ ﷺ، أو فعله، أو تقريره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لفظ السنة: فإنَّ السنَّة التي يجب اتباعها هي سنة رسول الله ﷺ، والسنة تُذكر في الأصول والاعتقادات، وتُذكر في الأعمال والعبادات، وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به؛ فما أخبر به وجب تصديقه فيه، وما أوجبه وأمر به وجبت طاعته فيه.

ثم كثيرٌ من الناس يُضيف إلىٰ السنَّة ما أدخله بعض الناس فيها؛ إمَّا بالكذب، وإما بالتأويل: مثل أحاديث كثيرة ضعيفة، بل موضوعة، واستدلالات بأقواله علىٰ ما لا يدلُّ عليه، ومثل أقوال أحدثها قوم وانتسبوا إلىٰ السنة في بعض الأمور: مثل إثبات الصفات، والقدر؛ فإنّ المنتسبين لذلك يُضافون إلىٰ السنة؛ لأنَّ نفاة الصفات والقدر مبتدعة.

(١) النبوَّات (١/ ٣٢٩).

وكذلك حب الخلفاء الراشدين، وموالاتهم؛ يضاف أهله إلىٰ السنَّة؛ لأنَّ الطاعنين فيهم أهل بدعة.

ومثل الاستدلال بالنصوص علىٰ موارد النزاع؛ فإنَّ أهل ذلك يُضافون إلىٰ السنَّة؛ لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث، والمخالفون لذلك الذين يردُّون الأخبار الصحيحة، أو لا يحتجُّون بالقرآن؛ مبتدعون».

والوصيَّة بالسبيل والسُّنَّة، والحثُّ علىٰ تعلُّمها ولزومها؛ هو ممَّا أمر به علماء الصَّحابة، وهذا من نصيحتهم للمؤمنين، وهو من أسباب تعلّم وحفظ الدِّين، ونجاة المؤمنين من أسباب الضَّلال والعطب.

قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]: سبيلًا وسنَّة[(١)].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «معنىٰ قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن المنهاج هو السنة، وهو الطريق الواسعة المسلوكة المداوم عليها، والشرعة: هي السبيل والطريق الموصل إليها، فهي كالمدخل إليها؛ كمشرعة الماء، وهي المكان الذي يُورَدُ الماء منه، ويقال: شرع فلان في كذا؛ إذا ابتدأ فيه؛ وأنهج البلاء في الثوب؛ إذا اتَّسع فيه. وبذلك فرّق طائفة من المفسِّرين وأهل اللغة بين الشريعة

(١) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب الإيمان، باب قول النَّبي ﷺ: «**بُني الإسلام علىٰ خمس**» (ص٥).

(٢) فتح الباري (١/ ١٩).

والمنهاج، منهم الزجاج وغيره».

فالصَّحابة ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمَّة، كُلُّهم يوصي بوصيَّة أبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باتِّباع السَّبيل وصراط الله المستقيم، وبالاقتصاد في الطَّاعة، والحذر من البدعة ومن العمل في الضَّلالة.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القَصْدُ في السُّنَّة خيرٌ من الاجتهاد في البدعة»(١).

وقال عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢): «عليك بتقوىٰ الله، والاستقامة، اتَّبع ولا تَبْتَدِعْ».

وقال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): «اقتصاد في السُّنَّة؛ خيرٌ من اجتهاد في بدعة».

وهذا المنهج بالحثِّ علىٰ الاقتصاد في السُّنَّة، والتَّحذير من الاجتهاد في بدعة؛ قد أجمع عليه الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خمس كان عليه أصحاب النبيِّ ﷺ: لزوم الجماعة، واتِّباع السُّنَّة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، وجهاد في سبيل الله»(٤).

ولم يزل العمل بهذا المنهج والوصية به دأب العلماء من خير القرون في

---

(١) رواه الدَّارمي (ص١٤٥ - رقم ٢٣٦).

(٢) رواه الدارمي (ص١٣٠-رقم ١٤٩).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (ص٤١ - رقم ١١٥).

(٤) شرح السُّنَّة (١/ ٢٠٩).

نصيحة المسلمين به، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أوصيك بتقوىٰ الله، والاقتصاد في أمره، واتِّباع سُنَّة نبيِّه ﷺ، وترك ما أحْدَث المُحْدِثون بعدما جرت به سُنَّتُه وكُفُوا مُؤْنته، فعليك بلزوم السُّنَّة؛ فإنَّها لك - بإذن الله - عِصْمة».

وقول أبيِّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اقتصاد في سبيل وسنة خيرٌ من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة»؛ هو معنىٰ «حسن العمل» الذي أمر الله به في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحسنه: أخلصه وأصوبه».

فالمقصود ليس كثرة العمل، وإنَّما المقصود إحسان العمل، وفي قصَّة الثَّلاثة نفر الَّذين سألوا عن عبادة النَّبي ﷺ كأنَّهم تقالُّوها، تنبيه إلىٰ هذا المعنىٰ.

والاجتهاد في بدعة ضلالٌ وإثم لا يُقرِّب إلىٰ الله، بل يبعد عنه.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «صاحب البدعة لا يزداد اجتهادًا صيامًا وصلاةً إلَّا ازداد من الله بُعدًا».

يزداد المبتدع ببدعته بُعدًا من الله؛ لأنَّه لم يسعه كمال الشَّرع، فابتدع واخترع كأنَّه مستدرك علىٰ الله في العبادات.

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّة، باب من دعا إلىٰ السُّنَّة (ص٦٥٢ - رقم ٤٦١٢).

(٢) البدع والنَّهي عنها، لابن وضَّاح القرطبي (ص٦٧)، وفي إسناده ضعف.

وهو بذلك طاعن في بلاغ النَّبي ﷺ للشَّرع، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة؛ فقد زعم أنَّ محمدًا ﷺ خان الرِّسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا؛ فلا يكون اليوم دينًا».

يزداد المبتدع ببدعته بُعدًا من الله؛ لأنَّه عاص لله الذي أمره بسلوك الصراط المستقيم، فعدل عنه إلىٰ السُّبل التي نهاه عنها؛ قال النبيُّ ﷺ: «**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النَّار**».

قال الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن المبتدع معاند للشرع، ومشاق له؛ لأن الشارع قد عيَّن لمطالب العبد طرقًا خاصة علىٰ وجوه خاصَّة، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشرَّ في تعدِّيها إلىٰ غيرها؛ لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين؛ فالمبتدع رادٌّ لهذا كله».

يزداد المبتدع ببدعته بُعدًا من الله؛ لأنَّ البدع بريد الكفر، فيبدأ بصغار البدع، ثم لا يزال كذلك حتىٰ يأتي بكبار البدع وأشنعها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ البدع لا تزال تُخرج من صغير إلىٰ كبير حتىٰ تُخرجه إلىٰ الإلحاد».

فالبدعة تغرس أمثالها، وتُضعف القلب عن تعظيم المتابعة للنَّبي ﷺ

(١، ٢) الاعتصام (١/ ٦٢).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٣٠٦).

بالتأويلات الباطلة، والتَّحريفات المفسدة، حتىٰ تخرج إلىٰ الإلحاد والكفر.

وتغذي المبتدع بالبدع مُفسد لدينه، فالبدع بمنزلة السُّموم كما قال شيخ الإسلام[1]، والسُّموم إذا تواردت علىٰ المبتدع أهلكته وأخرجته إلىٰ الضَّلال والإلحاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلما ازداد العبد في البدع اجتهادًا، ازداد من الله بعدًا؛ لأنَّها تُخرجه عن سبيل الله، سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، إلىٰ بعض سبيل المغضوب عليهم».

ويزداد المبتدع ببدعته بُعدًا من الله؛ لأنَّه مُبدِّلٌ لشرع الله، وكان واجبه حفظه من التغيير والتَّبديل والابتداع؛ فعكس الأمر.

ويزداد المبتدع ببدعته بُعدًا من الله؛ لأنَّه داعية إلىٰ الضَّلال ببدعته، فيُفسد علىٰ النَّاس أديانهم وعباداتهم، ويكون عليه إثمه وإثم من عمل ببدعته.

والله غنيٌّ عن العبادات المبتدعة، فقد رأىٰ النبيُّ ﷺ رجلًا واقفًا في الشَّمس، فقال: «**ما هذا؟**»، قالوا: هذا نذر أن يقوم ولا يجلس، وأن لا يستظلَّ، فقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا لنفسه**»، رواه البخاري.

فالابتداع وكذلك الغلوّ في العبادات كما أنَّه إثم فإنَّه يؤول إلىٰ المروق من الدِّين أو تضييعه، قال النبيُّ ﷺ في الخوارج: «**يحقر أحدكم صلاته إلىٰ**

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ١٠٤).

صلاتهم، وصيامه إلىٰ صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرميَّة»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يغلون في ذلك حتىٰ تحقر الصَّحابة عبادتهم في جنب عبادة هؤلاء، وهؤلاء غلوا في العبادات بلا فقه؛ فآل الأمر بهم إلىٰ البدعة».

فالغلوُّ في العبادات، والجور علىٰ النَّفس والتَّشديد عليها؛ يؤول إلىٰ الانقطاع عن العبادة وتضييع الدِّين؛ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ قال: «**إنَّ الدِّين يسر، ولن يُشادَّ الدِّين أحد إلا غلبه؛ فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والرَّوحة وشيء من الدُّلجة**»[(١)].

فمعنىٰ الاقتصاد في سبيل وسنَّة هو مدلول لفظ هذا الحديث، قال النضر بن شُميل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السَّداد: القصد في الدِّين والسَّبيل، وكذلك المقاربة المُراد بها: التَّوسُّط بين التَّفريط والإفراط، فهما كلمتان بمعنًىٰ واحد[(٢)].

وعن بريدة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم هديًا قاصدًا، فإنَّه من يغالب هذا الدِّين يغلبه**»[(٣)].

فهذا الحديث توجيه للسَّالكين بأخذ النَّفس بالاعتدال في الطَّاعة، والسَّير إلىٰ الله، وإجمامها بما يعينها علىٰ النَّشاط وقت العبادة، حتىٰ لا

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: الدِّين يسر (ص٩ - رقم ٣٩).

(٢) فتح الباري (١/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٥٠)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (ص٤٤)، وصحَّحه العلَّامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يكلُّوا ولا يملُّوا فينقطعوا عن السَّير إلىٰ الله.

قال العلَّامة أبو المفاخر عليُّ بن عبيد الله المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٧٥٨هـ)**[1]: «المعنىٰ: استعينوا علىٰ تحصيل الجنَّة ونعيمها بالطَّاعة في أوَّل النَّهار وآخره، وشيء من اللَّيل، فكما أنَّ المسافر يستظهر علىٰ المداومة في سفره بأن يسير في أوَّل النَّهار، ثم ينزل للاستراحة، ثم يرحل بعد العصر إلىٰ اللَّيل، ثم يسكن، ثم يسير في آخر اللَّيل؛ فكذلك السَّالِك المتعبِّد ينبغي له أن يفعل في تعبُّده وسلوكه ما لا يحصل له به الكَلال، ويؤدِّي به إلىٰ الانقطاع والمَلال، بل ينبغي أن يتعبَّد ساعة ويستريح أخرىٰ؛ ليكون علىٰ المداومة أرجىٰ».

والاجتهاد في بدعة يفضي إلىٰ إفساد الشَّرع، ويجعله غير منضبط، كلٌّ يتعبَّد بما يبتدعه، ويلحق النَّاس بسببه المشقَّة، والحرج المنافي ليسر الشَّريعة، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال العلَّامة الإمام المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، فلو أنَّ الشَّريعة جاءت بأهواء النَّاس؛ لأصابهم العنتُ والمشقَّة والبلاء ما لا يحصيه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه سبحانه هو أحكم وأعلم؛ فهو يشرع لنبيِّه ﷺ ما هو خير للمسلمين، وما هو خير للعباد والمصلحة، وإن خالف بعض أهوائهم،

(١) شرح المصابيح (٢/ ٣٩٦).

(٢) الفوائد العلميَّة من الدُّروس البازيَّة (ص٣٣٢).

وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١]؛ فالحقّ ليس بأهواء النَّاس».

والابتداع ينافي الإخلاص، فمن أخلص العمل لله أتىٰ به كما أمر الله، الذي تعبَّدنا باتِّباع رسوله ﷺ؛ فعبوديَّة الله بغير أمره عود علىٰ العبوديَّة بالإبطال وعدم انقياد لأمر الله بأداء العبادات علىٰ صفتها التي أدَّاها رسول الله ﷺ، وهذا مضاد لمعنىٰ العبوديَّة لله.

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حقيقة الإخلاص تستلزم ألَّا تَعبُدَ الله إلَّا بما شَرَعَ، لا تعبده بهواك؛ لأنَّك إذا عبدتَ الله بهواك بالبدعة؛ فأنت غير مُخْلِص، المُخلِصُ لابُدَّ أن يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شرع».

والمبتدع يزداد ببدعته بعدًا من الله؛ لأنَّه غير متَّبع للرَّسول ﷺ، وغير محقِّق لشهادة أنَّ محمدًا رسول الله ﷺ.

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن من ابتدع في الدين ما لم يأذن به الله؛ لم يحقق معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، والأعمال المبتدعة التي لم يأذن بها الله، فإنها تكون يوم القيامة هباءً منثورًا؛ لكونها لم توافق شرعه المطهَّر، كما قال النبي ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا**

(١) تفسير سورة فُصِّلت (ص١٧٨).

(٢) حراسة التَّوحيد (ص٣٠، ٣١)، باختصار.

ما ليس منه فهو رد»، متفق علىٰ صحَّته».

ويزداد المبتدع ببدعته بعدًا من الله؛ لأنَّه متعبّد علىٰ ضلالة، غير متحقّق بالتَّوحيد، فيما ابتدعه بما يتعبَّد لله به، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ التَّوحيد – وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله» –؛ هو أن يعبد الله، وهو تعالىٰ إنَّما يُعبد بما أمر به؛ فهو العمل لله بأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

فكل عمل من أعمال البر؛ فهو جزء من التَّوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله وتوحيده».

وتشبيه أبيِّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مكفِّرات الذُّنوب من الأعمال الصَّالحة بالشَّجرة إذا يبس ورقها حتىٰ تحاتَّ؛ هو مقتبس من علم النبوَّة، حيث ضرب النَّبي ﷺ ذلك مثلًا لتكفير الوضوء والصَّلاة للذُّنوب؛ عن أبي عثمان النَّهدي قال: كنت مع سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا، فهزَّه حتىٰ تحاتَّ ورقُه، ثم قال: يا أبا عثمان! ألا تسألني: لِمَ أفعلُ هذا؟

فقلت: لِمَ تفعله؟

قال: هكذا فعل بي رسول الله ﷺ وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا فهزَّه حتىٰ تحاتَّ ورقُه، فقال: «**يا سلمان! ألا تسألني: لِمَ أفعلُ هذا؟**».

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ١٢١).

قلتُ: ولِمَ تفعله؟

فقال: «**إنَّ المسلم إذا توضَّأ فأحسن الوضوء، ثم صلَّىٰ الصَّلوات الخمس، تحاتَّت خطاياه كما يتحاتُّ هذا الورق**»، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، رواه أحمد.

وأبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **ذكر فضل البكاء من خشية الله حيث قال**: «إنَّه ليس من عبد علىٰ سبيل وسنَّة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار»، هذا من فضائل البكاء من خشية الله.

وقال النبي ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»، رواه الترمذي من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وحسنه.

والبكاء أنواع، منه الصِّدق ومنه الكذب والرِّياء، قال يزيد بن ميسرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «البكاء من سبعة أشياء: البكاء من الفرح، والبكاء من الحزن، والفزع، والرِّياء، والوجع، والشُّكر، وبكاء من خشية الله».

وبكاء التصنُّع والرِّياء لا يكاد يخفىٰ، فبكاء الثَّكلىٰ ليس كبكاء المستأجرة.

وقد ذكر الله في القرآن كذب بكاء إخوة يوسف، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف: ١٦]؛ فكان جواب أبيهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ

(١) رواه هنَّاد بن السري في «الزُّهد» بإسناد صحيح (١/ ٢٦٧ - رقم ٤٦٤).

أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].

والنَّبيُّ ﷺ بكىٰ لموت ابنه إبراهيم رحمة به، والمسلمون هكذا يبكون تخفيفًا لأحزانهم، لا نياحةً ولا سخطًا لأقدار الله.

قال محمد بن عبد الوَهَّاب القَنَّاد السُّكّريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «البكاء راحة للقلوب، ولولا البكاء لظننت أنَّ قلبي سينشقُّ في دار الدُّنيا من طول غَمِّي لكثرة التَّفريط».

وقال سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند موت ابنه أيُّوب، لعمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وجابر بن حيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنِّي لأجد في كبدي جمرة لا تطفيها إلا عبرة. فقال عمر: إنا لله يا أمير المؤمنين، وعليك الصَّبر. فنظر إلىٰ رجاء بن حيوة كالمستريح إلىٰ مشورته، فقال رجاء: أفضها يا أمير المؤمنين، وعليك الصبر، فما بذلك من بأس، فقد دمعت عينا رسول الله ﷺ علىٰ ابنه إبراهيم، وقال: «**العين تدمع، والقلب يحزن، ولا أقول ما يسخط الرب، وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون**».

فأرسل سليمان عينيه فبكىٰ حتىٰ قضىٰ أربًا، فقال: لو لم أذرف هذه العبرة لانصدعت كبدي[2].

والبكاء منه ما يكون عن الفرح والسُّرور، ومنه ما يكون عن الحزن

---

(١) تهذيب الكمال (٦/ ٤١٨).

(٢) نزهة الأبصار في فضائل الأنصار (ص٢٥٥، ٢٥٦).

والأسىٰ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الفرق بين بكاء السُّرور والفرح، وبكاء الحزن؛ أنَّ دمعة السُّرور باردة، والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارَّة، والقلب حزين».

وقول أبيٌّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وليس من عبدٍ علىٰ سبيل وسنةٍ ذَكَرَ الرَّحمن فاقشعرَّ جلده من خشية الله، إلَّا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الرِّيح، فتحاتَّ عنها ورقها، إلَّا تحاتَّت عنه ذنوبه كما تحاتَّ عن هذه الشَّجرة ورقها».

هذه قلوب المخبتين لله، ليِّنة من ذكر الله وتعظيمه، وذكر أمره ونهيه، ممتلئة من إجلال الله وخشيته والتألُّه له، إذا تُليت عليهم آيات الله أو تلوها تدبُّرًا بحضور قلب أو ذكروا الله؛ اقشعرَّت جلودهم من خشية الله.

قال تعالىٰ في وصف المخبتين الخاشعين ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾،

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، أي هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبَّار، المهيمن العزيز الغفَّار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعرُّ منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمِّلون من رحمته

---

(١) زاد المعاد (ص٦٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٢، ١٠٣).

ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا بأدب وخشية ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]؛ أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة، لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يَلْزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عند سماعهم كلام الله تعالىٰ من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعرُّ جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلىٰ ذكر الله. ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلَّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالقَدَح المُعلىٰ في الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا معمر، قال: تلا قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، قال: هذا نعت

أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعرَّ جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلىٰ ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان».

فالأحوال الإيمانيَّة التي ذكرها أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من كبار علماء الصَّحابة خصوصًا في علوم القرآن من تعظيم الله وخشيته هي مقامات الموحِّدين الصَّادقين، وهي من آثار تعظيمهم الله إخلاصًا لا رياءً.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قال أبو عثمان رَحِمَهُ اللَّهُ: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «أهل الخشية حقًّا هم العلماء، العلماء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، الذين يعرفون ما لله عَزَّوَجَلَّ من الحكم والأسرار في مقدوراته ومشروعاته جَلَّوَعَلَا، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كامل من كل الوجوه، ليس في أفعاله نقص ولا في أحكامه نقص، فلهذا يخشون الله عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا دليل علىٰ فضيلة العلم، وأنه من أسباب خشيته، والإنسان إذا وُفق للخشية عُصم من الذنوب، وإن أذنب استغفر وتاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه يخشىٰ الله؛ أي: يخافه ويُعظمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ».

(١) مدارج السَّالكين (ص٣١٨).

(٢) شرح رياض الصَّالحين (٥/ ٤٢١).

فالعلماء بالله خشيتهم من الله طمأنينة وليست قنوطًا من رحمة الله، لأنَّهم يعلمون أنَّ لهم ربًّا يغفر الذَّنب، ويعفو عن السَّيِّئات، ويبدِّلها حسنات، فهؤلاء فرارهم من الله إليه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الخشية أبدًا متضمِّنة للرَّجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أنَّ الرَّجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمْنًا، فأهل الخوف لله والرَّجاء له؛ هم أهل العلم الذين مدحهم الله».

والبكاء من خشية الله محمود؛ لأنَّه ناشئ عن تعظيم الله وامتلاء القلب من إجلاله وهيبته وعظمته، وتحقيق توحيد أسمائه وصفاته.

وهناك فرق بين البكاء من خشية الله والحزن؛ فالبكاء من خشية الله من مقامات العبودية، والحزن ليس بمطلوب ولا مقصود.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لم يأت الحزن في القرآن إلا منهيًّا عنه، أو منفيًّا؛ فالمنهي عنه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع، وقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، والمنفي كقوله: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وسر ذلك أن الحزن موقف غير مسير، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلىٰ الشيطان أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه،

(١) الإيمان الكبير (ص١٧٤).

(٢) مدارج السَّالكين (١/ ٤٠٥، ٤٠٦).

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المجادلة: ١٠]، و«نهىٰ النبي ﷺ الثلاثة أن يتناجىٰ اثنان منهم دون الثالث؛ لأن ذلك يحزنه». فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: **«اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»**؛ فهو قرين الهم، والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد علىٰ القلب، إن كان لما يستقبل أورثه الهم، وإن كان لما مضىٰ أورثه الحزن، وكلاهما مضعف للقلب عن السير، مُفَتِّرٌ للعزم.

ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فهذا يدل علىٰ أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢]، فلم يمدحوا علىٰ نفس الحزن، وإنما مدحوا علىٰ ما دل عليه الحزن من قوَّة إيمانهم، حيث تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ؛ لعجزهم عن النفقة، ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا علىٰ تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ما يصيب المؤمن من همٍّ ولا نصب ولا حزن إلا كفَّر الله به من خطاياه»؛ فهذا يدل علىٰ أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفر بها من سيئاته، لا يدل علىٰ أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه».

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ النَّبي ﷺ كان دائم البِشْر، ضحوك السّنِّ[١].

وذكر أنَّ الحزن محنة وبلاء من الله، بمنزلة المرض والهمِّ والغمِّ، وأنَّه ليس من منازل الطَّريق[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهىٰ عنه في مواضع، وإن تعلق بأمر الدّين، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧]، وكقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥] وقوله تعالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣] وأمثال ذلك كثير.

وذلك لأنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرَّة فلا فائدة فيه، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به، نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم، كما يحزن علىٰ المصائب، كما قال النَّبي ﷺ: «**إن الله لا يؤاخذ بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يؤاخذ علىٰ هذا ويرحم**»، وأشار بيده إلىٰ لسانه. وقال ﷺ: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلَّا ما يرضي الرب**»، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤].

(١، ٢) مدارج السَّالكين (١/ ٤٠٧).

(٣) التُّحفة العِراقيَّة في الأعمال القلبيَّة (ص٣١١ - ٣١٣).

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويُحمد عليه، ويكون محمودًا من تلك الجهة لا من جهة الحزن؛ كالحزين علىٰ مصيبة في دينه، وعلىٰ مصائب المسلمين عمومًا؛ فهذا يثاب علىٰ ما في قلبه من حب الخير وبغض الشَّرِّ وتوابع ذلك، ولكن الحزن علىٰ ذلك إذا أفضىٰ إلىٰ ترك مأمور من الصَّبر والجهاد، وجلب منفعة ودفع مضرَّة؛ نُهي عنه، وإلَّا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضىٰ إلىٰ ضعف القلب، واشتغاله به عن فعل ما أمر الله به ورسوله؛ كان مذمومًا عليه من تلك الجهة، وإن كان محمودًا من أخرىٰ».

والأثر الثَّاني في هذا الباب – باب فضل الإسلام – الذي ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [عن أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: يا حبذا نوم الأكياس، وإفطارهم!

كيف يغبنون سهر الحمقىٰ وصومهم؟!!

ولمثقال ذرة من برٍّ مع تقوىٰ ويقين؛ أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين].

هذا الأثر عن أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه تنبيه الصَّحابة ونصيحتهم إلىٰ أعظم ما يكون سببًا في زيادة حسنات المؤمنين وتثقيل موازينهم، وهو أعمال القلوب، يريد منَّا أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن تتعلَّق قلوبنا بالله في أوقاتنا

(١) فضل الإسلام (ص٨، ٩).

كلِّها، في اللَّيل والنَّهار، وأوقات الشُّغل والعمل، وكذلك الرَّاحة.

فأثر أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فقه النَّوم وأعمال القلوب، وفي التَّحذير من العُجب والاغترار بالطَّاعة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا من جواهر الكلام، وأدلِّه علىٰ كمال فقه الصحابة، وتقدمهم علىٰ من بعدهم في كل خير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلىٰ الله بقلبه وهمَّته لا ببدنه، والتقوىٰ في الحقيقة تقوىٰ القلوب لا تقوىٰ الجوارح[2].

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوىٰ هاهنا**»، وأشار إلىٰ صدره[3]».

والبرُّ حقيقةً هو تقوىٰ الله، وهو تقوىٰ القلوب والجوارح، قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) الفوائد (ص٢٠٦).

(٢) هما متلازمان، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه**»، متَّفق عليه، وهذا ممَّا يُنبِّه عليه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتبه كثيرًا، وإنَّما أراد أنَّ أصل التَّقوىٰ ومنبعها من القلوب.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبيُّ ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله. مخلصًا من قلبه؛ دخل الجنَّة**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «عمل القلب هو روح العبوديَّة ولُبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح، والنيَّة هي عمل القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء».

ولعظم خطر فساد النيَّات والإرادات في إبطال الأعمال حذَّر النبيُّ ﷺ من ذلك، فربَّما كان العمل من الطَّاعة ظاهرًا، إلَّا أنَّ فساد النيَّة فيها أخرجها عن كونها طاعة.

فالواجب أن يكون مبدأ العمل ونيَّته وباعثه صحيحًا يُراد به وجه الله، وأن يكون صوابًا علىٰ نحو ما شرع الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «طائفة رغبت فيما أمر الله ورسوله ﷺ، لكن لهوىٰ أنفسهم لا لعبادة الله تعالىٰ، وهؤلاء الَّذين يأتون بصور الطَّاعات مع فساد النيات، كما في الصَّحيحين عن النَّبي ﷺ؛ أنه قيل له:

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٦، ١١٤٧).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٥١٤، ٥١٥).

يا رسول الله، الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياءً، فأيّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؛ فهو في سبيل الله**»».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلىٰ غير الله إما خوفًا منه، وإما رجاءً له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلىٰ تخليص توحيده من شوائب الشرك».

ولا يُستغرب من علماء الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الكلام في فقه النَّوم، لضرورة النَّاس إلىٰ معرفة أحكامه، وحاجة الأبدان إلىٰ النَّوم ضروريَّة، فمن أخذ حظَّه من النَّوم الذي يحتاجه بدنه؛ قوي علىٰ عبادة اللَّيل والنَّهار، وكان قويًّا بإذن الله في السَّعي في حوائجه ووظائفه الدُّنيويَّة، من أجل هذا نهىٰ الله عن قيام اللَّيل كُلِّه لأنَّه يُضعف البدن عن قوَّته فلا يقوم بأعماله في النَّهار كما ينبغي، قال تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

ولذلك امتدح النبيُّ ﷺ قيام داود عليه السلام ينام نصف اللَّيل ويقوم ثلثه وينام سدسه، كما في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنَّه

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٦١).

أعدل القيام، يُصلِّي لله بنشاط، ويُجمُّ نفسه ليصلِّي الفجر بنشاط.

والمقصود أن يأخذ المسلم نفسه بالوسطيَّة في النَّوم، فلا يُبالغ في السَّهر، ولا يُسرف في النَّوم، فيضيع عليه عمره، ولا ينام في أوقات الفضيلة؛ كبكور الأوقات بعد صلاة الفجر، وأوقات السَّحر، ولا ينام في أوقات الصَّلاة تثاقلًا عن أدائها، فقد نهىٰ النبيُّ ﷺ عن النَّوم قبل العشاء وعن السَّهر بعدها.

قال العلَّامة ابن بطَّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله - تعالىٰ - جبل النُّفوس علىٰ الأكل والشُّرب والنَّوم، وذلك قوام الحياة، والنَّاس في ذلك بين مقلٍّ ومُكثر، فالمؤمن يأخذ من ذلك قدر إيثاره للآخرة والدُّنيا».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أمَّا فضول المنام، فإنَّه شُرع لهم - المسلمين - من قيام اللَّيل ما هو من أفضل السَّهر وأحمده عاقبة، وهو السَّهر المتوسِّط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد».

والمسلم إذا اعترضته أحوال من الإعياء أو التعب؛ فلا بأس أن يُجمَّ نفسه بالنَّوم والرَّاحة؛ ليستعيد قوَّته ونشاطه، ولا يكون ذلك كسلًا، فإذا أخذ حظَّه من الرَّاحة اعتدل في نومه، وكان وسطًا من غير إفراط في النَّوم ولا تفريط فيه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «للراحة حدٌّ، وهو إجمام النفس والقوىٰ المدركة والفعَّالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل، وتوفُّرها علىٰ

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٩١).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٨٩).

(٣) الفوائد (ص٢٠٤).

ذلك، بحيث لا يُضعِفُها الكدُّ والتعبُ ويضعف أثرها، فمتىٰ زاد علىٰ ذلك صار توانيًا وكسلًا وإضاعة، وفات به أكثر مصالح العبد، ومتىٰ نقص عنه صار مضرًّا بالقُوىٰ موهنًا لها وربَّما انقطع به؛ كالمنبتِّ الذي لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ».

فالوسطيَّة كما أنَّها تكون في الاعتقاد والعمل والأحكام والأخلاق، فكذلك تكون في الأفعال الطبيعيَّة الجبلية كالأكل والشَّراب والنَّوم التي هي قوام البدن الذي يتعبَّد المسلم فيه لله في حفظ بدنه واستعماله في طاعة الله، فالبدن مطيَّتك في السير إلىٰ الدَّار الآخرة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به، فإنه متىٰ خرج بعض أخلاطه عن العدل، وجاوزه أو نقص عنه؛ ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك، وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلًا، وإن انحرفت إلىٰ أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا».

وقد جعل الله للنَّوم أوقاتًا مخصوصة، وللعمل أوقاتًا مخصوصة، وأبدان الخلق مفطورة علىٰ هذا، فتجدها تخلد إلىٰ النَّوم في هذه الأوقات، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

---

(١) الفوائد (ص٢٠٥).

وكذلك جعل الله القائلة وقتًا للنوم، قال تعالىٰ: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨]، قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يريد القائلة، دليل علىٰ أنَّ النَّوم في هذا الوقت جائز، وأنَّه في غير ذلك من النَّهار ليس كذلك».

وأوقات كراهية النَّوم هي عامة النَّهار، وآكدها بعد صلاة الفجر، قال تعالىٰ: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ [النور: ٥٨]، قال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يعني: من قبل صلاة الصُّبح، ففي هذا دليل علىٰ أنَّ بعد صلاة الصُّبح ليس بوقت انكشاف، لا ينبغي النَّوم فيه، وقد رُوي ما يعضد هذا عن عبيد بن عمير، أنَّ عبد الله بن الزُّبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال له: يا عبيد! أما علمت أنَّ الأرض ضجَّت إلىٰ ربِّها من نوم العلماء بالضُّحىٰ مخافة الغفلة عليهم، وروي عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الصُّبْحَةَ تمنع بعض الرزق**».

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **أنَّه كان يقول**: النَّوم ثلاثة: فنوم خرق، ونوم خلق، ونوم حمق!

فأمَّا نوم خرق فنومة الضُّحىٰ؛ يقضي النَّاس حوائجهم وهو نائم، وأمَّا نومة خلق فنومة القائلة، وأمَّا نومة حمق فنومة حين تحضر الصَّلاة.

وقد رُوي عن النَّبي ﷺ أنَّه قال في هذه النَّومة: «محيرة، منحرة، محضرة»، فهذه الأحاديث كلها مع دليل الآية حجَّة في أنَّه لا يجوز النَّوم في ذلك الوقت».

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ٣٨٥).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٣٨٤، ٣٨٥).

والسَّمر بعد العشاء قد يكون من أسباب النَّوم عن قيام اللَّيل أو الفجر، أو يكون من أسباب أدائها بغير قوة ولا نشاط، والواجب الأخذ بالأسباب المعينة علىٰ ذلك لا المعوِّقة عنه، ومن اضطر إلىٰ السَّمر بعد العشاء فليكن في طاعة؛ كمذاكرة علم أو تعليمه، أو في مدارسة أحوال المسلمين.

قال الفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «كان رسول الله ﷺ يسمر عند أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأمر من أمور المسلمين، وأنا معه».

واجتماع النبي ﷺ مع الشَّيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمذاكرة أمور المسلمين؛ دليل علىٰ فضل الشَّيخين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «إنَّه ﷺ كان يسمر عنده - أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عامة اللَّيل، يُحدِّثه في العلم والدِّين ومصالح المسلمين».

وقال ابن الفرس الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «كان عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضرب النَّاس علىٰ الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمروا أوَّل الليل وناموا آخره! وقال سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إياكم وسمر أوَّل الليل، فإنَّه مَهْدَنَةٌ للآخرة، فمن فعل ذلك فليصلِّ ركعتين قبل أن يأوي إلىٰ فراشه. وكان

---

(١) رواه التِّرمذي كتاب الصَّلاة، باب ما جاء في الرُّخصة في السَّمر بعد العشاء (ص٤٧ ـ رقم ١٦٩)، وقال: حديث حسن.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٤٠٠).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٣٨٦).

إبراهيم وابن سيرين يكرهان الكلام بعد العشاء، وهذا في السَّمر لغير العلم وأفعال البر، وأمَّا السَّهر لهذا فجائز.

وقد رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه سهر بعدها غير مرَّة، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ يسمر عند أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اللَّيلة كلها في أمر من أمور المسلمين وأنا معه، وجاء في بعض الآية - علىٰ ما قدمنا - دليل علىٰ أنَّ النَّوم قبل العشاء ليس كالنَّوم بعدها، وقد اختُلف فيه؛ فكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يكاد يسبّ الذي ينام قبل العشاء، وكرهه أنس وعمر وأبو هريرة وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم، وهو قول مالك في العتبية والكوفيين، ورخَّصت فيه طائفة؛ روي عن عليٍّ - رضي الله تعالىٰ عنه - أنَّه كان ربَّما نام قبل العشاء، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ينام ويوكل من يوقظه، وعن أبي موسىٰ وعُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثله.

وعن ابن سيرين وعروة أنَّهم كانوا ينامون نومة الصَّلاة، وكان أصحاب عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفعلون ذلك، وقال به بعض الكوفيين».

وتحدَّث ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن النَّوم النَّافع والضَّار، وبيَّن مفاسد كثرة النَّوم، فقال[1]: «إنه يميت القلب، ويُثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضار غير النافع للبدن، وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قل

(١) مدارج السَّالكين (١/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ط ـ دار الحديث ـ القاهرة.

نفعه، وكثر ضرره، ولا سيما نوم العصر، ونوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس؛ فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتىٰ لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتىٰ تطلع الشمس؛ فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، وينسحب حكم جميعه علىٰ حكم تلك الحصة؛ فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير - وهو مقدار ثمان ساعات -، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه.

ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا؛ النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتىٰ تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله ﷺ يكرهه؛ فهو مكروه شرعًا وطبعًا.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرىٰ عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة علىٰ الفهم والعمل، ويُورث أمراضًا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير، والله المستعان».

ونوم السَّلف نوم فيه تحقيق التَّوحيد لله بإسلام الرُّوح إليه، فينام السَّلفي علىٰ هذا الاعتقاد، موقنًا بأنَّ النَّوم وفاة وقبض للرُّوح، فإن شاء

ردَّها الله إليه، وإن كان ذلك أجله كان هو من قبل ذلك ممَّن أعدَّ للقاء الله عدَّته؛ فهو يرجو لقاء الله وهو نائم، ويحبُّ لقاءه، ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لمَّا كان النَّائم بمنزلة الميِّت، والنَّوم أخو الموت - ولهذا يستحيل علىٰ الحيِّ الَّذي لا يموت، وأهل الجنَّة لا ينامون فيها -؛ كان النَّائم محتاجًا إلىٰ من يحرس نفسه، ويحفظها ممَّا يعرض لها من الآفات، وكان ربُّه وفاطره تعالىٰ هو المتولِّي لذلك وحده.

علَّم النَّبيُّ - ﷺ - النَّائم أن يقول كلمات التَّفويض والالتجاء، والرَّغبة والرَّهبة؛ ليستدعي بها كمال حفظ الله له، وحراسته لنفسه وبدنه، وأرشده مع ذلك إلىٰ أن يستذكر الإيمان، وينام عليه، ويجعل التَّكلُّم به آخر كلامه؛ فإنَّه ربَّما توفَّاه الله في منامه، فإذا كان الإيمان آخر كلامه دخل الجنَّة، فتضمَّن هذا الهدي في المنام مصالح القلب والبدن والرُّوح في النَّوم واليقظة، والدُّنيا والآخرة؛ فصلوات الله وسلامه علىٰ من نالت به أمَّته كلَّ خيرٍ.

وقوله: «**أسلمت نفسي إليك**»؛ أي: جعلتها مسلَّمةً لك تسليم العبد المملوك نفسه إلىٰ سيِّده ومالكه. وتوجيه وجهه إليه يتضمَّن إقباله بالكلِّيَّة علىٰ ربِّه، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذُّلِّ والانقياد، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وذكر الوجه؛ إذ هو أشرف ما في الإنسان، ومجمع الحواسِّ، وأيضًا

(١) زاد المعاد (ص٦٨١، ٦٨٢).

ففيه معنىٰ التَّوجُّه والقصد من قوله:

أســتغفر الله ذنبًــا لســت محصــيه ربَّ العبــاد إليــه الوجــه والعمــل

وتفويض الأمر إليه ردُّه إلىٰ الله سبحانه، وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته، والرِّضىٰ بما يقضيه ويختاره له ممَّا يحبُّه ويرضاه، والتَّفويض من أشرف مقامات العبوديَّة».

ينام السَّلفي وهو يرجو لقاء الله، ينام وهو علىٰ رجاء أن يكون في أعلىٰ درجات الجنَّة، أرجىٰ ما يكون من أعماله التي تبلغ به إلىٰ ذلك توحيد الله وتحقيقه، وحبُّ النبي ﷺ واتِّباعه وموالاته، وموالاة أصحابه وحبُّهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قالت عبدة بنت خالد: قلَّما كان خالد - بن معدان - يأوي إلىٰ فراشه إلا وهو يذكر شوقَهُ إلىٰ رسول الله ﷺ، وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يُسمِّيهم، ويقول: هم أصلي وفصْلي، وإليهم يحِنُّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعجِّلْ ربِّ قَبْضِي إليك. حتىٰ يغلبه النَّوْم وهو في بعض ذلك[1].

فخالد بن معدان الكلاعي رَحِمَهُ اللَّهُ وُفِّق إلىٰ عبودية القلب في وقت الرَّاحة، وعبوديَّة القلب تبلغ بالعبد أعلىٰ الدَّرجات والمنازل وإن لم يبلغه عمل جوارحه، من أجل هذا حرص عليه وقام به السَّلف من الصَّحابة ومن بعدهم.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: متىٰ السَّاعة؟ قال رسول الله ﷺ: «**ما أعددت لها؟**»، قال: حُبُّ الله ورسوله. قال: «**أنت مع من أحببت**»، متَّفق عليه.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٩).

وفي رواية لهما: ما أعددت من كثير صوم، ولا صلاة، ولا صدقة، ولكن أحِبُّ الله ورسوله.

تأخذ نفسك إذا أخذت مضجعك بمحاسبة نفسك بما اجترحت في نهارك، فإن كنت في خير سألت الله التثبيت والزِّيادة، وإن كنت مسيئًا تستعتب نفسك بالاستغفار والتَّوبة، والعزم علىٰ ترك المنكرات واستباق الخيرات، وتقوم اللَّيل تقويةً لدينك، وزيادة في إيمانك، وتوبةً من ذنوبك.

فأنت في خلوة مع الله، وهذا نافع لك لمناجاته وذكره ومحاسبة نفسك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ينبغي للإنسان أن يكون له ساعات يناجي فيها ربَّه، ويخلو فيها بنفسه ويحاسبها، ويكون فعله ذلك أفضل من اجتماعه بالنَّاس ونفعهم، ولهذا كان خلوة الإنسان في اللَّيل بربِّه أفضل من اجتماعه بالنَّاس».

وأحوال السَّلف عظيمة في محاسبة أنفسهم في خاتمة يومهم، فقد كان الضحَّاك يبكي آخر النَّهار، ويقول: لا أدري ما رُفع من عملي[2].

وقال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنِّي لأستلقي من اللَّيل علىٰ فراشي فأتدبَّر القرآن وأعرض عملي علىٰ عمل أهل الجنَّة، فإذا أعمالهم شديدة؛ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ

(١) شرح العمدة، كتاب الصِّيام (٢/ ٧٨٩).

(٢) لطائف المعارف (ص٢٥٠).

(٣) حلية الأولياء (٢/ ١٩٨).

سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]، فلا أراني فيهم، فأعرض نفسي علىٰ هذه الآية: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فأرىٰ القوم مكذِّبين، وأمرُّ بهذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا إخوتاه منهم».

ومن أفضل العبادات في أوقات الرَّاحة مذاكرة العلم، ترتاح الروح ويرتاح البدن بذكر الله، فطالب العلم إذا تفكَّر في العلم في تدبُّر معاني القرآن، واستنباط الفوائد من أحاديث رسول الله ﷺ؛ فهو في طاعة وفي مجلس ذكر، وفي رياض الجنَّة وإن كان مستلقيًا علىٰ فراشه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال أبو ذر وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوُّعًا».

وقال وُهيب بن الورد: قيل لرجل: ألا تنام؟ قال: إنَّ عجائب القرآن أطَرْنَ نومي[2].

وقال محمد بن كعب القرظي علَّامة التَّفسير رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «إنَّ عجائب القرآن تردُ بي علىٰ أمور، حتىٰ إنَّه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي».

وكان البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يجمع في نومه بين إجمام النَّفس، وقيام اللَّيل،

(١) البداية والنِّهاية (١١/ ٣٨٠).

(٢) لطائف المعارف (ص٣٣٣).

(٣) سير أعلام النُّبلاء (٥/ ٦٦).

ومذاكرة العلم؛ قال أبو جعفر بن أبي حاتم: كان أبو عبد الله يُصَلِّي في وقت السَّحر ثلاث عشرة رَكْعَةً[١].

وقال أبو جعفر: رأيت البخاري استلقىٰ علىٰ قفاه يومًا، ونحنُ بِفِرَبْر في تصنيف كتاب «التَّفسير»، وكان قد أتعب نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبد الله! سمعتك تقول يومًا: إني ما أتيتُ شيئًا بغير علم قط منذ عقلت. قلت: وأيّ علم في هذا الاستلقاء؟ قال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثغر من الثُّغور، خشيتُ أن يَحْدُثَ حَدَثٌ من أمر العدو، فأحببتُ أن أستريح، وآخذ أُهبة ذلك، فإن عافصنا العدو كان بنا حراك[٢].

تنام بطاعة، وسكون، وكفٍّ عن المعصية؛ فيكون نومك صدقة، فلم تغد في سخط الله ولا معصيته، فأنت في سلامة من كل إثم، ولذلك نهىٰ النبيُّ ﷺ عن السَّمر بعد العشاء؛ لأنَّ المسلم صلَّىٰ فروضه الخمس، وكفَّرت صلواته سيِّئاته وزادت في حسناته، فلا يسمر في لغو يأتي بالسيئات ويضيِّع الحسنات.

والله أرشدنا إلىٰ ذكره وقت النوم، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وبعد أن أخذت راحتك بقسطك من النَّوم، تقوم اللَّيل شكرًا لله علىٰ عافية البدن ونعمة الهداية للإسلام، وتحقيقًا لعبوديَّة الله، وأخذًا بأسباب

(١، ٢) تحفة الإخباري بترجمة البخاري (ص٢٠٥، ٢٠٦).

حفظ دينك في النَّهار؛ فإنَّ قيام اللَّيل يُزكِّي النُّفوس، ويكون من أسباب البركة في الأبدان وحفظ الأديان.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ القراءة في صلاة اللَّيل أقرب إلىٰ التدبُّر؛ فإنَّه تنقطع الشَّواغل باللَّيل، ويحضر القلب، ويتواطأ هو واللِّسان علىٰ الفهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ [المزَّمل: ٦]، ولهذا المعنىٰ أُمر بترتيل القرآن في قيام الليل ترتيلًا، ولهذا كانت صلاة اللَّيل منهاة عن الإثم، كما يأتي في حديث خرجه التِّرمذي[٢]».

ووقت اللَّيل وقت غفلة، والعبادة في أوقات الغفلة سببٌ لمضاعفة الحسنات، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة؛ ذلك محبوب لله عَزَّوَجَلَّ، كما كان طائفة من السلف يستحبون إحياء ما بين العشاءين بالصلاة، ويقولون: هي ساعة غفلة. وكذلك القيام في وسط الليل؛ لشمول الغفلة لأكثر الناس فيه عن الذكر، وقد قال النبي ﷺ: «**إن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن**»، ولهذا المعنىٰ كان النبيُّ ﷺ يريد أن يؤخر العشاء إلىٰ نصف الليل، وإنما علل ترك ذلك لخشية المشقة علىٰ الناس».

وقد حثَّ علماء الصَّحابة علىٰ ذكر الله في وقت غفلة النَّاس ليلًا، فقال

---

(١) لطائف المعارف (ص٨٠).

(٢) رواه التِّرمذي من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) لطائف المعارف (ص٢٥٦).

عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذ النَّاس ينامون».

والمتعبِّد لله يجيب نداء ربه للصَّلاة في الفرائض، فيُقيم الصَّلوات الخمس إجابةً لنداء: «حيَّ علىٰ الصَّلاة، حيَّ علىٰ الفلاح». وفي تهجده في قيام اللَّيل يجيب نداء ربه: «**هل من داع فأجيبه، هل من مستغفر فأغفر له**».

واللَّيل وقت للتفكُّر والتذكُّر، وقت فراغ من خلطة النَّاس، ووقت - في غالب أحوال النَّاس -، ارتياح البدن من امتلاء البطن من الطَّعام والشَّراب؛ قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن تناول هذه الشهوات قد تقسي القلب وتعميه، وتحول بين العبد وبين الذكر والفكر، وتستدعي الغفلة، وخلو الباطن من الطعام والشراب؛ ينور القلب، ويوجب رقته، ويزيل قسوته، ويخليه للذكر والفكر».

فاللَّيل وقت عافية البدن، يتخفَّف المسلم من الطَّعام، ووقت تخفُّف من الآثام، غسل المسلم ذنوب يومه بصلاة العشاء، ووقت إراحة القلب من الشَّواغل والإقبال علىٰ الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «قال بعض المتقدِّمين من أئمَّة الطِّبِّ: من أراد عافية الجسم فليُقلِّل من الطَّعام والشَّراب، ومن أراد عافية القلب

(١) لطائف المعارف (ص٣٠٠).

(٢) زاد المعاد (ص٦٦٥، ٦٦٦).

فليترك الآثام.

وقال ثابت بن قُرَّة: راحة الجسم في قلَّة الطَّعام، وراحة الرُّوح في قلَّة الآثام، وراحة اللِّسان في قلَّة الكلام.

والذُّنوب للقلب بمنزلة السُّموم، إن لم تهلكه أضعفته ولا بدَّ، وإذا ضعفت قوَّته؛ لم يقدر علىٰ مقاومة الأمراض، قال طبيب القلوب عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

رأيت الذُّنوب تميت القلوب وقد يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها

وترك الذُّنوب حياة القلوب وخير لنفسك عِصْيَانُها».

والنوم فيه عبرة وتذكرة.

واللَّيل والنَّهار آيتان من آيات الله، يتعاقبان كل يوم، وفي كل من اللَّيل والنَّهار وظائف يجب أن نقوم بها، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

فيتذكر المسلم ما في اللَّيل والنَّهار من الدَّلائل علىٰ ربوبيَّة الله وعظمته الموجبة لشكره، وذلك بتحقيق عبوديَّته، فتوحيد الربوبيَّة مستلزم لتوحيد العبوديَّة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ومقصود أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **بقوله**: «يا حبذا نوم الأكياس»؛ أن تكون فقيهًا في نومك، تغتنمه فيما يعود عليك بالحسنات العظيمة؛ فتجعل من العادات والحاجات والضَّروريَّات أسبابًا للطَّاعات، فتنتظم أعمالَكَ كلَّها علىٰ طاعة الله، وهذه الحنيفيَّة التي حثَّنا الله عليها؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فيعيش المؤمن لمعنىٰ العبوديَّة لله في حياته كلِّها، والكافر في غفلة عن ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ومقصود أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحثُّ علىٰ توطين النَّفس علىٰ الإرادات الصَّالحة في أوقات الرَّاحة، فضلًا عن أوقات العزيمة.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّما الكمال في امتلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرَّبِّ تعالىٰ من العبد ومن النَّاس، والفكر في طرق ذلك والتَّوصُّل إليه؛ فأكمل النَّاس أكثرهم خواطر وفكرًا وإراداتٍ لذلك، كما أنَّ أنقص النَّاس أكثرهم خواطر وفكرًا وإراداتٍ لحظوظه وهواه أين كانت، والله المستعان».

فالمقصود أن ينعم الإنسان في أوقات الرَّاحة والنَّوم بعبوديَّة الله، فيكون

(١) الجواب الكافي (ص٣٦٢).

نومه طاعة، ولا يكون مجرد عادة لحاجة البدن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا عُدمت النية كان العمل عاديًّا لا عباديًّا، والعادات لا يُتقرَّب بها إلىٰ بارئ البريَّات وفاطر المخلوقات، فإذا عري العمل عن النية كان كالأكل والشرب والنوم الحيواني البهيمي الذي لا يكون عبادة بوجه، فضلًا عن أن يؤمر به ويُرتَّب عليه الثواب والعقاب والمدح والذمُّ، وما كان هذا سبيله لم يكن من المشروع المتقرَّب به إلىٰ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

ومعنىٰ كلام أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حَمْدُ العزيمةِ علىٰ الطَّاعة حتَّىٰ في أوقات الرَّاحة، وإجمام البدن، والقلب يسير إلىٰ الله بقصده والتوجُّه إليه وذكره، وحقيقة هذا الموفق تعلّق قلبه بالله في كل الأحوال، فهذا أعلىٰ النَّاس منزلةً عند الله، نصب نفسه للطَّاعة في أوقات العمل لله، وفي أوقات الرَّاحة، كما في أوقات العبادة قلبه بالله استعانةً وعبادةً وذكرًا ورغبةً ورهبة ومحبة ورجاءً.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الكيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلوِّ الهمَّة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل أضعافَ أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر المُشِقِّ؛ فإن العزيمة والمحبة تُذهِب المشقة وتطيِّب السير، والتقدم والسبق إلىٰ الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدَّم صاحب الهمَّة مع سكونه صاحبَ العمل

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٠، ١١٤١).

(٢) الفوائد (ص٢٠٧).

الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدَّم عليه بعمله».

فالشَّأن أن يُحقِّق المسلم عبوديَّته لله في كل أحواله، ليلًا ونهارًا، يقظةً ونومًا، ولا تغبن نفسك عن العبوديَّة لله في النَّوم، فلا يذهب ثلث عمرك بلا حسنات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الصِّراط المستقيم حقيقته: أن تفعل كلَّ وقتٍ ما أُمرت به في ذلك الوقت من علمٍ وعملٍ، ولا تفعل ما نهيت عنه، وإلىٰ أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحذور. وهذا العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لا يتصوَّر أن يحصل للعبد في وقتٍ واحدٍ، بل كلُّ وقتٍ يحتاج أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهدىٰ به في ذلك الوقت».

فالنيَّة وأعمال القلوب هي أعظم أسباب تحصيل الحسنات، وهي الباعثة للجوارح علىٰ الطَّاعات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «المؤمن إذا كانت له نيَّة أُثيب علىٰ عامة أفعاله، وكانت المباحات من صالح أعماله؛ لصلاح قلبه ونيَّته».

ومقامات السَّلف عظيمة في الطَّاعة وقت الرَّاحة، قال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنِّي لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»، رواه البخاري.

فالنَّوم لا تجعله عادة، بل احتسبه عبادة؛ فتُدرك بذلك حسنات عظيمة،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٤٠٠).

(٢) السِّياسة الشَّرعيَّة (ص١٨١).

فعامَّة النَّاس ينام ثماني ساعات في يومه وليلته، وذلك ثُلث أعمارنا.

والنَّوم بمقدار حاجة البدن له ضرورة لحفظ أبداننا وإقامة ديننا؛ فإنَّ لنفسك عليك حقًّا، كما قال النبيُّ ﷺ، ومن لم ينم ضعف أو عجز عن إقامة صلواته، والسَّعي في حاجاته أو وظائفه الدُّنيويَّة؛ فالنَّوم من وسائل وأسباب حفظ الأبدان والأديان، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نفوسكم مطاياكم إلىٰ ربكم، فأصلحوا مطاياكم تُوصِلكم إلىٰ ربكم».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فمن وفىٰ نفسه حظَّها من المباح بنية التقوي به علىٰ تقويتها علىٰ أعمال الطاعات؛ كان مأجورًا في ذلك، كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»، ومن قصَّر في حقها حتىٰ ضعفت وتضررت؛ كان ظالمًا لها، وإلىٰ هذا أشار النبي ﷺ بقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**إنك إذا فعلت ذلك نفهت له النفس، وهجمت له العين**»، ومعنىٰ «**نفهت**»: كلت وأعيت، ومعنىٰ «هجمت العين»: غارت».

وقالت حفصة بنت سيرين - رحمها الله -: «يا حبذا عبادة وأنا نائمة»، رواه عبد الرزَّاق.

وفي أخذ المسلم نفسه بالرَّاحة في أوقاتها، يُذكِّر نفسه أن هذه استراحته

(١) لطائف المعارف (ص٢٤٥).

(٢) لطائف المعارف (ص٢٤٥، ٢٤٦).

الدُّنيويَّة بعد أن قام بواجب العبوديَّة في أوقاتها، وأنَّ الرَّاحة العظمىٰ في جنَّات النَّعيم، دار الثَّواب والفوز للمتَّقين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبىٰ، ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد، فمثِّلْ لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبىٰ يَهُن عليك النَّصَبُ، واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمَّلُ من أجله».

ولا تغفل أنَّ عبوديَّة القلب هي الأصل، وهي سبب صلاح الجوارح، وعبوديَّة القلب سببٌ لتثقيل الموازين ومضاعفة الحسنات، فتنام بالإخلاص لله، بإسلام الرُّوح إليه، وبذلك تذكر الله تحقيقًا لهذا الاعتقاد، وتفعله عبوديَّة لله، فتقول: «وأسلمت نفسي إليك»، تنام بنيَّة صالحة، تنام لتجمَّ نفسك، تنام وفي نيتك القيام لصلاة اللَّيل والفجر، تنام وقد أسلمت الرُّوح لمن لا ينام، فتستودعه حفظها، فهو وليُّها ومولاها، تنام علىٰ توبة واستغفار؛ فالله يقبض الأرواح في النَّوم، فإن كان كذلك كنت علىٰ رجاء موافاة الله برضاه، وإذا رُدَّت إليك روحك بعد النَّوم؛ كانت هذه الموتة الصُّغرىٰ تذكيرًا لك بالموتة الكبرىٰ، فتكون سببًا في سعيك في العمل الصَّالح في بقيَّة عُمرك.

ففي الصَّحيحين عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا أتيت مضجعك فتوضَّأ وُضوءك للصَّلاة، ثم اضطجع علىٰ شِقِّك**

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٨٦).

الأيمن، ثم قل: اللَّهم إنِّي أسلمتُ نفسي إليك، ووجَّهْت وجهي إليك، وفوَّضْتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلَّا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيِّك الذي أرسلت. واجعلهن آخر كلامك، فإنْ مِتَّ من ليلتك؛ متَّ علىٰ الفطرة».

أنت في ليلك إذا أويت إلىٰ فراشك تأخذ استعدادك لعبادة التهجُّد، وهي من أفضل الطَّاعات، فتستجمع قوَّتك وذهنك للقيام لأجلِّ الطَّاعات؛ فإنَّ الله جعل للمتهجِّدين في اللَّيل سبحًا طويلًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وقول أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مثقال ذرَّة من برٍّ مع تقوىٰ ويقين؛ أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترِّين»؛ فيه توجيه لأسباب قبول الأعمال، وهو الإخلاص في فعلها، وأداؤها بتقوىٰ، والتَّقوىٰ أن تكون خالصة صوابًا، وبيقين علىٰ الله بأنَّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وهذا اليقين إنَّما يأتي من جهة الثِّقة بوعد الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلٗا ٣٠﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وفي كلام أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحذيرٌ من الاغترار والعجب بسبب كثرة العبادات، فهذا الذي أهلك الخوارج؛ فهم كما نعتهم النَّبيُّ ﷺ: «**يحقر أحدكم صلاته إلىٰ صلاتهم، وقيامه إلىٰ قيامهم، يمرقون من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة**»، فالاغترار بالطَّاعات والزَّهو بالنَّفس بسببها ربما

جعل المغرور يختال علىٰ النَّاس سبًّا وتكفيرًا وتفسيقًا، وهذا داء الخوارج؛ فإنَّهم حصروا الخير في أنفسهم.

وقد وُجد فيمن مضىٰ وفي زماننا هذا من يختال علىٰ النَّاس بدينه، فيستطيل عليهم تكفيرًا وتفسيقًا، هذا حال الخوارج، أمَّا سلف الأُمَّة فكانوا أشفق وأحسن النَّاس ظنًّا بالمسلمين، وكانوا أشدَّ النَّاس تواضعًا للمسلمين، لا يأخذونهم بالأذىٰ والعدوان.

قال محمد بن عون: كان محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أرجىٰ النَّاس لهذه الأمَّة، وأشدّ النَّاس إزراءً علىٰ نفسه[1].

وقال أبو حازم سلمة بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أفضل خصلة تُرجىٰ للمؤمن أن يكون أشدّ النَّاس خوفًا علىٰ نفسه، وأرجاه لكل مسلم».

هذا منهج الصَّالحين المؤمنين المشفقين علىٰ النَّاس، واحذر أيُّها المسلم منهج الهالكين؛ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من قال: هلك النَّاس، فهو أهلكهم**»، رواه مسلم.

فاحذر أيُّها المسلم العُجب والمخيلة بالطاعة.

وكان السَّلف يرون الهلكة في القنوط والإعجاب[3].

---

(١) تهذيب الكمال (٢٥/ ٣٥١).

(٢) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ٧٩٧).

(٣) الزُّهد، لهنَّاد بن السري (٢/ ٤٣٩).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار.

قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، خائفًا منه مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالىٰ، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب سعادة العبد وفلاحه، حتىٰ يكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة، بما ترتَّب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتىٰ يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يَمُنُّ بها علىٰ ربه، ويتكبر بها، ويرىٰ نفسه ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلتُ وفعلتُ. فيورثه ذلك من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه».

فالسَّلف كانوا قانتين عابدين في تواضع من غير غرور ولا اختيال علىٰ النَّاس.

قال أبو بكر أحمد بن محمد المروذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أكثر الدَّاعين لك؟

فتغرغرت عينه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا[٢].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما يظنون،

---

(١) الوابل الصيِّب (ص٩، ١٠).

(٢) الرِّقَّة والبكاء لابن قدامة (ص٣٧٣).

ويغفر لنا ما لا يعلمون».

ومقامات السَّلف في محاذرة العجب والخيلاء بالطَّاعة والزُّهو بالتَّزكية؛ تدلُّ علىٰ عظيم ما كانوا عليه من هضم النَّفس، والخشية من الرِّياء، والحرص علىٰ حفظ ثواب الأعمال.

قال أيُّوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا ذُكر الصَّالحون كنت عنهم بمعزل».

ومن أعظم تلك المقامات مقام سيِّد النَّاس وأفضلهم وخيرهم بعد النَّبي ﷺ؛ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّه قام خطيبًا في الصَّحابة بعد أن أجمعوا علىٰ اختياره خليفةً للمسلمين، وقال: «وُليت عليكم، ولست بخيركم»؛ قاله تواضعًا غير مختال بجاه الولاية علىٰ خير النَّاس صحابة رسول الله ﷺ.

وكل متحقِّق بمعاني كلام الصدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فهمه بنيَّة حسنة علىٰ معنىٰ التَّواضع، قال الحسن بن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[2]: «كان يعلم أنَّه خيرهم، ولكنَّ المؤمن يهضم نفسه».

رضي الله عن الصدِّيق، تواضع وهو خير النَّاس بعد النَّبي ﷺ، وخيريَّته علىٰ النَّاس نطق بها من لا ينطق عن الهوىٰ صلوات الله وسلامه عليه، والصَّحابة كلُّهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يعرفون له ذلك، قال الفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[3]: «لو وُزن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٢).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٥٤).

(٣) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده، وصحَّحه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تخريج الكشَّاف.

إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالأُمَّة؛ لرجح إيمان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

وهكذا كان تواضع سادات الأُمَّة من خيار الولاة والعلماء؛ خطب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يومًا، فقال في موعظته: إنِّي لأقول هذه المقالة، وما أعلم عند أحد من الذُّنوب أكثر مما أعلم عندي، فأستغفر الله وأتوب إليه[١].

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ بعض نوَّابه علىٰ بعض الأمصار كتابًا يعظه فيه، وقال في آخره: إنِّي لأعظك بهذا، وإنِّي لكثير الإسراف علىٰ نفسي غير محكم لكثير من أمري[٢].

كان السَّلف أحرص النَّاس علىٰ رضا الله ومحمدته وعلو منزلتهم عنده، حذرين من أن يكون لهم ذكر عند النَّاس مع نقص منزلتهم عند الله.

قال عتبة بن غزوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]: «إنِّي أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا، وعند الله صغيرًا».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «ما عليك أن تكون مذمومًا عند النَّاس إذا كنت محمودًا عند الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «إنِّي أدركت صدر هذه الأمَّة، ثم

(١، ٢) لطائف المعارف (ص١٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزُّهد والرَّقائق، باب: الدُّنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر (ص١٢٨٥ - رقم ٧٤٣٥).

(٤) الزُّهد الكبير للبيهقي (ص١٣١).

(٥) الإشراف في منازل الأشراف (ص٢٦٠ - رقم ٣٣٣).

طال بي عمر حتىٰ أدركتكم، فوالذي لا إله غيره لهم كانوا أبْصَرَ في دينهم بقلوبهم منكم في دنياكم بأبصاركم، ولهم كانوا فيما أحلَّ الله لهم أزهد منكم فيما حَرَّم الله عليكم، ولهم كانوا من حسناتهم ألَّا تُقبل منهم أشدَّ شفقةً منكم من سيئاتكم أن تؤخذوا بها».

وكتبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **إلىٰ معاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أوصيك بتقوىٰ الله؛ فإنك إن اتَّقيت الله كفاك النَّاس، وإن اتقيت النَّاس لن يغنوا عنك شيئًا؛ فعليك بتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ»، رواه التِّرمذي.

فالمقصود أن يتحرَّىٰ المسلم رضىٰ الله، فتكون نيَّته صالحة، وأن لا يتعاظم في نفسه عجبًا بطاعته، فالمنَّة لله، قال تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فاحرص أيُّها المسلم علىٰ تزكية نفسك بالتواضع، هكذا كان السَّلف.

قال أحمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الدَّاراني: من أراد الحُظْوة فليتواضع في الطَّاعة، فقال أبو سليمان: التَّواضع ألا تُعْجب بعملك، وكيف يُعْجَبُ عاقل بعمله؟ وإنَّما نَعُدّ العمل نعمة من الله تعالىٰ ينبغي أن يُشكر الله تعالىٰ عليها، ويتواضع[1].

وقال مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير العامري البصري رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لأن أبيتَ نائمًا وأُصبح نادمًا؛ أحبُّ إليَّ من أبيتَ قائمًا وأصبح مُعْجَبًا».

(١) الشَّريعة للآجري (١/ ٩٦٤، ٩٦٥ - رقم ٥٦٣).

(٢) سير أعلام النُّبلاء (٤/ ١٩٠).

والكبر يكون في القلب، وفي اللِّسان، وفي الجوارح، وقد تجتمع كلها في بعض النَّاس، وشرُّ من جمع الكبر كله بأنواعه الكفَّار، قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وكبر الاعتقاد يتلازم وكبر اللسان والجوارح، فترىٰ المبطل يدفع الحقَّ لكبرٍ في قلبه، ثم يستطيل بلسانه وجوارحه مدافعةً للحقّ، قال النبيُّ ﷺ: «**الكبر بطر الحقّ وغمط النَّاس**».

وما أحوج طالب العلم للتَّواضع للحقّ ومجانبة دفع الحق، فمن ردَّ الحقَّ كبرًا، خصوصًا في العقيدة والأحكام؛ فإنّه يُخشىٰ عليه أن يزيغ الله قلبه ويُركسه في البدع والضَّلال، وربَّما في الكفر والإلحاد، قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وإنَّما يدفع الحق من لم يُخلص لله، أو تدارس العلم مراءً وغلبةً للمخالف، وهذا شأن الجاهل ومن لم ينتفع بعلمه.

قال مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بحسب الرَّجل من العلم أن يخشىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وبحسب الرَّجل من الجهل أن يُعجب بعلمه».

فالمقصود أن ينقاد طالب العلم للحقِّ متَّبعًا للأدلَّة بفهم السَّلف، لا يقول علىٰ الله بغير علم، ولا يستنكف عن الرُّجوع إلىٰ الحقِّ إذا أخطأ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]،

(١) رواه أبو خيثمة في العلم (رقم ١٥) بإسناد صحيح.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حاثًّا طالب العلم علىٰ تلقِّي العلم بهدي السَّلف[١]: «أصله الكتاب والسُّنَّة، وما كان عليه الصَّحابة، ومن بعدهم من التَّابعين، ومن بعدهم من أئمَّة المسلمين، يأمر بالاتِّباع، وينهىٰ عن الابتداع. لا يجادل العلماء، ولا يماري السُّفهاء. همُّه في تلاوة كلام الله الفهم، وفي سنن الرَّسول ﷺ الفقه؛ لئلَّا يضيِّع ما لله عليه، وليعلم كيف يتقرَّب إلىٰ مولاه، مُذكِّر للغافل، مُعلِّم للجاهل، مثله مثل الطَّبيب يضع الدَّواء بحيث يعلم أنَّه ينفع.

فهذه صفته، وما يشبه هذه الأخلاق الشَّريفة، إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد نشر له الذِّكر بالعلم في قلوب الخلق، فكلَّما ازداد علمًا ازداد لله تواضعًا، يطلب الرِّفعة من الله عَزَّوَجَلَّ، مع شدَّة حذره من واجب ما يلزمه من العلم».

وبطر الحقّ عظم في زماننا هذا بسبب الحزبيَّات، وقد أخبرنا الله تعالىٰ أنَّ الحزبية من أسباب إصرار المبطلين علىٰ ضلالهم، قال تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن محمد العليميُّ المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فائدة التقييد بالاثنين والفرادىٰ: أنَّ الاثنين إذا التجآ إلىٰ الله تعالىٰ، وبحثا طلبًا للحقِّ

(١) أخلاق العلماء (ص٧٩).

(٢) فتح الرَّحمن في تفسير القرآن (٥/ ٤٣٢).

مع الإنصاف؛ هُدوا إليه، وكذلك الواحد إذا فكَّر في نفسه مجرَّدًا عن الهوىٰ؛ لأنَّ كثرة الجمع مما يقل فيه الإنصاف غالبًا، ويكثر فيها الخلاف».

والكبر يكون في الكلام، بالتشدُّق والتفيهق والتقعر.

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال: «إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مِنِّي مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم منِّي يوم القيامة الثَّرثارون والمتشدِّقون، والمتفيهقون»**، قالوا: يا رسول الله! قد علمنا «الثرثارون والمتشدِّقون»، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبِّرون**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الثَّرثار: هو كثير الكلام تكلُّفًا. و«المتشدِّق»: المتطاول علىٰ النَّاس بكلامه، ويتكلَّم بملء فيه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه، و«المتفيهق»: أصله من الفَهْق وهو الامتلاء، وهو الَّذي يملأ فمه بالكلام ويتوسَّع فيه، ويغرب به تكبُّرًا وارتفاعًا، وإظهارًا للفضيلة علىٰ غيره».

ويكون الكبر والمخيلة في المشي، وقد حذَّرنا الله منه، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

والكبر والمخيلة تكون في الثِّياب، البس أفضل الثِّياب من غير سرف ولا مخيلة، فقد كان في الصَّحابة من يحب أن يكون ثوبه ونعله حسنًا، فقال النبيُّ

(١) رياض الصَّالحين (ص٢٥٦)، ط ـ دار المنهاج ـ جدة.

ﷺ: «**إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال**» رواه مسلم، وإنَّما المحذور إسبال الثَّوب، أو التزيّي بزي شهرة أو لباس منهيّ عنه كثوب الحرير المحرَّم علىٰ الرِّجال.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلَّة يوم القيامة**»، رواه أحمد وأبو داود[1].

وقد حذَّرنا الله من العجب مع وجود أسبابه، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

وذمَّ الله المُعجب بنفسه بكل حال، وذمُّ الله له مع ضعف الباعث له علىٰ هذا الخلق المذموم أشد، فقد ذكر النبيُّ ﷺ في أنواع الثَّلاثة الذين لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكِّيهم: «**عائل مستكبر**».

فالواجب علىٰ المسلمين أن يتراحموا بينهم، وأن يتواضعوا فيما بينهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وحذَّرنا الله من الكبر علىٰ المسلمين والتَّواضع للكافرين، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

والكبر صفة أهل النَّار، قال حَارِثَةُ بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أُخبركم بأهل النَّار؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر**»، متَّفق عليه.

وعن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال**

(١) حسَّنه ابن مفلح في الآداب الشَّرعيَّة (٣/ ٥٢٧).

الرَّجُلُ يذهب بنفسه حتَّىٰ يُكتب في الجَبَّارين، فيصيبه ما أصابهم»، رواه التِّرمذي وقال: حديث حسن.

قال الحافظ ابن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العاقل يلزم مجانبة التكبر؛ لما فيه من الخصال المذمومة:

إحداها: أنه لا يتكبَّر علىٰ أحد حتىٰ يُعجب بنفسه، ويرىٰ لها علىٰ غيرها الفضل.

والثانية: ازدراؤه بالعالم؛ لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم، وكفىٰ بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانًا.

والثالثة: منازعة الله جَلَّوَعَلَا في صفاته؛ إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله جَلَّوَعَلَا، فمن نازعه إحداهما ألقاه في النار، إلا أن يتفضَّل عَلَيْهِ بعفوه».

فالقرآن هدىٰ المسلمين لأقوم الأخلاق وأحسنها، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ونهىٰ الله في وحيه القرآن عن سيئ الأخلاق، ومن ذلك الفخر والخيلاء علىٰ المسلمين والسُّخرية بهم وسبُّهم ولمزهم وشتمهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحُجُرات: ١١].

وعن عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ:

(١) روضة العقلاء (ص٦٠، ٦١).

«**إنَّه أوحي إليَّ أن تواضعوا حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد**»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نهىٰ الله سبحانه علىٰ لسان رسوله ﷺ عن نوعي الاستطالة علىٰ الخلق، وهي: الفخر والبغي؛ لأنَّ المستطيل إذا استطال بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حقٍّ فقد بغىٰ؛ فلا يحل هذا ولا هذا».

والعجب والفخر بالعبادة وزهو النَّفس يأتي من فساد الإخلاص، وإلَّا فالسَّلف لهم السَّبق في أنواع الفضائل، ومع ذلك كانوا أشدَّ النَّاس تواضعًا.

والعجب والزَّهو بالعبادات هو شأن الخوارج والرَّافضة الذين حصروا الخير في أنفسهم.

ومن ذلك وضع الرَّافضة الآيات في الكفَّار في المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يتأوَّل بعض أهل الأهواء هذه الآيات علىٰ غير تأويلها، كتأويل الرَّافضة أنَّهم هم المؤمنون وأنَّ سواهم كافرون، فقد يستعملون معهم التَّقِيَّة».

والمؤمن لا يطلب إلا رضا الله ومحمدته، إخلاصه يجعله يدفع طلب

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٥٣).

(٢) الاستقامة (ص٥١٩).

محمدة النَّاس وثنائهم وتزكيتهم، وما وقع من ذلك من الله فهو سبب آخر لزيادة تواضعه، وخشية أن يصيبه الاغترار فيُضر بدينه أو يفسده.

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرَّجل يعمل العمل من الخير، ويحمده النَّاس عليه؟

قال: «تلك عاجل بشرىٰ المؤمن»[(١)].

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «قال العلماء: معناه: هذه البشرىٰ المعجَّلة له بالخير، وهي دليل علىٰ رضاء الله تعالىٰ عنه ومحبَّته له، فيحببه إلىٰ الخلق كما سبق في الحديث، ثم يُوضع له القبول في الأرض، هذا كلّه إذا حمده النَّاس من غير تعرُّض منه لحمدهم، وإلَّا فالتعرُّض مذموم».

فالعالم وطالب العلم والمجاهد والنَّاسك لا يفخر بطاعته، ولا يستطيل علىٰ المسلمين لفضل يعتقده في نفسه، بل يتواضع، وما حصل له من الثَّناء والذِّكر الحسن من غير تعرُّض لأسبابه؛ فذلك من إخلاصه، والله يجازي بالإحسان إحسانًا.

قال الحافظ البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «اعلم أنَّ أصل الجاه هو حبُّ انتشار

---

(١) رواه مسلم، كتاب البرِّ والصِّلَةِ والآداب، باب إذا أُثني علىٰ الصَّالح فهي بشرىٰ ولا تضرُّه (ص١١٥١ - رقم ٦٧٢١).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج (ص١٥٦٦).

(٣) الزُّهد الكبير (ص١٢٢).

الصِّيت، وذلك خطر عظيم، والسَّلامة في الخمول[١]، وأهل العلم لم يقصدوا الشُّهرة ولم يتعرَّضوا لها، ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالىٰ فرُّوا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، والمذموم طلب الإنسان الشُّهرة، وأمَّا وجودها من جهة الله تعالىٰ من غير طلب الإنسان فليس بمذمومٍ».

وقد كان السَّلف في المرتبة العليَّة في محاذرة أن يُحمدوا بما فعلوا، فضلًا عمَّا لم يفعلوا، وعن حُصين بن عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كنتُ عند سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: أيُّكم رأىٰ الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا. ثم قلت: أما إنِّي لم أكن في صلاة. رواه البخاري ومسلم.

قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أراد - حُصين - أن ينفي عن نفسه إيهام العبادة، وأنَّهُ يُصلِّي، مع أنَّه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدلُّ علىٰ فضل السَّلف الصَّالح، وحِرْصِهم علىٰ الإخلاص، وشِدَّة ابتعادهم عن الرِّياء، بخلاف من يقول: فعلتُ وفعلتُ، ليُوهم الأغمار أنَّه من الأولياء».

وقد خلفت خلوف يحبُّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فأولئك شرُّ النَّاس قصدًا وأعظمهم رياءً، قال تعالىٰ: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]:

---

(١) المراد به التَّواضع لا الكسل.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التَّوحيد (١/ ٢٦٠).

(٣) تيسير الكريم المنَّان في تفسير كلام الرَّحمن (ص١٥٦).

«يدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرَّسول ﷺ، وزعموا أنَّهم هم المحقُّون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعةً قوليَّة أو فعليَّة، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنَّه محقٌّ وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع».

ومن أولئك من يتزيىٰ بزيِّ التَّواضع والخشوع، وباطنه وظاهره ممتلئ بالكبر، وهذا عُرف في أقوام من المتصوِّفة، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أقوامًا جعلوا خشوعهم في لباسهم وكبرهم في صدورهم، وشهروا أنفسهم بلباس الصُّوف، حتىٰ إنَّ أحدهم بما يلبس من الصُّوف أعظم كبرًا من صاحب الطرف بمطرفه».

والعُجب قد يستولي علىٰ الإنسان حتىٰ يتعاظم في نفسه بما قد يكون سببًا في مروقه من الدِّين، كالذي يُقاتل شجاعة، هذا لا يُقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإنَّما يُقاتِل ليقال: شجاع. عنده مخيلة بالشَّجاعة، فإذا لم يكن للإنسان توحيد خالص يمنع عجبه؛ ربَّما أفسد دينه ودنياه. كذلك كان الذي يُقاتل مع النَّبي ﷺ وأبلىٰ بلاءً حسنًا في الظَّاهر، فلم يترك شاردة ولا واردة في الكفَّار إلا وقد أصاب منهم، فقال النبيُّ ﷺ: «**هو في النَّار**»، فشقَّ ذلك علىٰ الصَّحابة، فتبعه أحدهم، ليرىٰ شأنه، فيتحقَّق بذلك صدق خبر النَّبي ﷺ فيه، فرآه أُصيب، فتعاظم أن يُصاب وهو الشُّجاع، فبادر نفسه بالقتل، وانتحر. رواه البخاري.

---

(١) الآداب الشَّرعيَّة (٣/ ٥٢٧).

فاحذر العجب والكِبر، ولا تحسبه هيِّنًا وهو عند الله عظيم، واعتبر بهذا الذي عاجل نفسه بالقتل انتحارًا، فكانت خاتمته خاتمة سوء لدخيلة في قلبه وهي الكِبر والعجب؛ لذلك قال فيه النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرَّجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يظهر للنَّاس، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النَّار فيدخلها**».

والعجب يأتي من الغفلة عن شهود القدر في الطَّاعات، ومن تلمَّح فعله فقط سلك مسلك القدريَّة وعطَّل جانب التَّوحيد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «شهود القدر في الطَّاعات من أنفع الأمور للعبد، وغيبته عن ذلك من أضرِّ الأمور به، فإنَّه يكون قدريًّا منكرًا لنعمة الله عليه بالإيمان والعمل الصَّالح، وإن لم يكن قدريَّ الاعتقاد كان قدريَّ الحال، وذلك يورث العجب والكبر، ودعوىٰ القوَّة والمنَّة بعمله، واعتقاد استحقاق الجزاء علىٰ الله به، فيكون من يشهد العبوديَّة مع الذُّنوب والاعتراف بها - لا مع الاحتجاج بالقدر عليها - خيرًا من هذا الَّذي يشهد الطَّاعة منه لا من إحسان الله إليه، ويكون أولئك المذنبون بما معهم من الإيمان أفضل من طاعةٍ بدون هذا الإيمان».

فالواجب علىٰ المسلم ملاحظة منَّة الله عليه في هدايته للحقّ وتوفيقه للعمل الصَّالح.

قال العلَّامة محمد بن أحمد السَّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «العُجب إنَّما يكون

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣٣١).

(٢) غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب (٢/ ٢٢٥، ٢٢٦).

ويوجد من الإنسان لاستشعار وصف كمالٍ، ومن أُعجب بعمله استعظمه فكأنَّه يمنُّ علىٰ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - بطاعته، وربَّما ظنَّ أنَّها جعلت له عند الله موضعًا، وأنَّه قد استوجب بها جزاءً، وقد يكون قد أهلك نفسه، فقد قال - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ -: **«ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوًىٰ متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه»**، وربَّما منعه عجبه من الازدياد، ولهذا قالوا: عُجب المرء بنفسه أحد حسَّاد عقله.

وما أضرَّ العجب بالمحاسن!

وسبب العجب وعلَّته الجهل المحض، ومن أعجب بطاعته مثلًا؛ فما فهم أنَّها بالتَّوفيق حصلت، فإن قال: رآني أهلًا لها فوفَّقني. قيل له: فتلك نعمة من منِّه وفضله فلا تقابل بالإعجاب.

وفي «صيد الخاطر» للإمام الحافظ ابن الجوزيِّ - طيَّب الله ثراه -: إذا تمَّ علم الإنسان لم ير لنفسه عملًا، ولم يعجب به؛ لأشياء: منها أنَّه وُفِّق لذلك العمل، و﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ومنها أنَّه إذا قيس بالنِّعم لم يف بمعشار عشرها، ومنها أنَّه إذا لوحظت عظمة المخدوم احتقر كلُّ عملٍ وتعبُّدٍ.

هذا إذا سلم من شائبةٍ وخلص من غفلةٍ، فأمَّا والغفلات تحيط به فينبغي أن يغلِّب الحذر من ردِّه ويخاف العقاب علىٰ التَّقصير فيه؛ فيشتغل عن النَّظر إليه، وتأمَّل علىٰ الفطناء أحوالهم في ذلك.

فالملائكة الَّذين يسبِّحون اللَّيل والنَّهار لا يفترون؛ قالوا: ما عبدناك حقَّ

عبادتك. والخليل - عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - يقول: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما دلَّ بصبره علىٰ النَّار وتسليمه الولد إلىٰ الذَّبح.

ورسول الله - ﷺ - يقول: «ما منكم من ينجيه عمله. قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يتغمَّدني الله برحمته».

وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **يقول:** لو أنَّ لي طلاعًا علىٰ الأرض لافتديت بها من هول ما أمامي قبل أن أعلم ما أُخبر. وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقول: ليتني كنت نسيًا منسيًّا. وهذا شأن جميع العقلاء».

وقد حثَّنا الله علىٰ ما يدفع العجب والمخيلة بأداء العبادات، فأمرنا الله بعد الفراغ منها أن نستغفره، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٠].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المذكورات آخر المناسك، أمر تعالىٰ عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله علىٰ إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنَّة الجسيمة.

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٨٣).

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة؛ أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره علىٰ التوفيق، لا كمن يرىٰ أنه قد أكمل العبادة، ومَنَّ بها علىٰ ربه، وجعلت له محلًّا ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أخر».

وصفة المؤمن بعد أداء العبادات والطَّاعات الخشوع والتَّواضع والوجل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هكذا ولي الله، ليس مُدلًّا بعمله، ولا مانًّا بعمله، ولا معجبًا بعمله».

ومن أسباب الخذلان من عدم حصول الأعمال المطلوبة العُجب، وقد قصَّ الله لنا نبأ خذلان من قبلنا بسبب العُجب، وما وقع كذلك في هذه الأمَّة تحذيرًا لنا من أن يصيبنا ما يكون سببًا في خذلاننا، وتوجيهًا لنا بإخلاص النيَّة والحذر من العجب ليعيننا الله علىٰ الأعمال الصَّالحة بتوفيقه لتواضعنا لله واستعانتنا به.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «حذَّر تعالىٰ من مشابهة الذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، ويصدُّون عن سبيل

(١) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٢٠٠).

(٢) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص١١٢).

الله، فهؤلاء لما لم يعتمدوا علىٰ ربهم، وأُعجبوا بأنفسهم، وخرجوا أشرين بطرين، وكان قتالهم لنصر الباطل؛ باءوا بالخيبة والفشل والخذلان، ولهذا أدَّب الله خيار الخلق لما حصل من بعضهم الإعجاب بالكثرة في غزوة حُنين حيث قال القائل: لن نُغلب اليوم عن قلَّة. فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، فلما زال عنهم هذا الأمر، وعرفوا ضعفهم وعاقبة الإعجاب؛ ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]».

فالكبر والعجب والاختيال والغرور أخلاق مذمومة تُسخط الله ولا ترضيه.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: لا تتكبر علىٰ الحق، ولا علىٰ الخلق، فإن التكبُّر من أرذل الأخلاق، والمتكبِّر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه في مقام رفيع علىٰ الخلق، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه، مبغوض محتقر قد نزل بخلقه هذا إلىٰ أسفل سافلين، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه، وحصل علىٰ نقيضه، ومن مضار الكبر أنه صحَّ الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»**، والنار مثوىٰ المتكبرين، والكبر هو بطر الحق، وغمط الناس؛ أي: واحتقارهم وازدراؤهم».

(١) تيسير اللَّطيف المنَّان في خلاصة تفسير القرآن (ص٦٠، ٦١).

فالمقصود أنَّ أعمال القلوب عظيمة سواء كانت في الخير أو الشرِّ، فاحرص علىٰ تخليص القلب من دغل العجب والكبر والرِّياء والإرادات المحرَّمة، واجعله موطنًا للتَّوحيد والتوكُّل علىٰ الله والاعتقاد الصَّحيح، والهم والإرادة لكل خير وعمل صالح.

قال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ينبغي أن يعلم المؤمن أنَّ الذُّنوب كثيرة، ولا نجاة له منها إلا بمعونة الله وعفوه، وأنَّ كثيرًا منها قد لا يعلمه من نفسه؛ فإنَّ أكثر الكبائر القلبيَّة مثل: الرِّياء، والكبر، والحسد، وترك التوكُّل والإخلاص، وغير ذلك؛ قد يتلطَّخ بها الرَّجل وهو لا يشعر، ولعله يتورَّع عن بعض الصَّغائر الظَّاهرة، وهو في غفلة عن هذه العظائم».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فالقلوب لها كسب عظيم، فاجعل كسبها سببًا لتثقيل موازينك بالحسنات، واجعل قلبك موطنًا للخيرات من النيَّات والإراحات الصَّالحة قال تعالىٰ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وقد اشتدت عناية السلف بأعمال القلوب لعظيم ثوابها وفضلها، ولأنَّها الأساس والموجب لأعمال الجوارح، قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: التفكر في الخير يدعو إلىٰ العمل به[2].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر

(١) مجموع مؤلَّفات الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب (٢/ ٨٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠، ١٨١).

علىٰ التفكر، والفكر علىٰ الذكر، ويناطقون القلوب حتىٰ نطقت بالحكمة[١].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح[٢].

وأفضل أنواع التفكر هو تدبر معاني آيات القرآن، والانتفاع من القرآن وتدبر معانيه والعمل يحصل من حي القلب وبذلك يهتدي به، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ العمل الصالح هو ثمرة العلم النافع الذي هو ثمرة الفكر».

وأعظم أنواع الفكر الموجبة والباعثة للعمل الصالح هو الفكر في حق الله علىٰ عباده، والفكر في سرعة انقضاء الدنيا والإقبال علىٰ الله، والفكر في التزود للدار الآخرة دار الثواب والحساب.

(١، ٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٥٨).

الباب الثاني

باب وجوب الدُّخول في الإسلام

وقال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب وجوب الدُّخول في الإسلام، وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية، قال مجاهد: السبل: البدع والشُّبهات.

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».**

وللبخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**كل أمَّتي يدخلون الجنَّة، إلا من أبىٰ**»، قيل: ومن يأبىٰ؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبىٰ**».

وفي الصَّحيح عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أبغض النَّاس إلىٰ الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنَّة الجاهليَّة، ومُطَّلِبُ دمِ امريء مسلم بغير حقّ ليهريق دمه**»، رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «سنَّة الجاهليَّة» يندرج فيها كل جاهليَّة مطلقة أو مقيَّدة، أي في شخص دون شخص، كتابية أو وثنية أو غيرهما، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون.

وفي الصَّحيح عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** «يا معشر القرَّاء! استقيموا، فإن استقمتم؛ فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا؛ فقد ضللتم ضلالًا بعيدًا».

وعن محمد بن وضَّاح أنَّه كان يدخل المسجد فيقف علىٰ الحِلَق، فيقول... فذكره. وقال: أنبأنا سفيان بن عيينة، عن مجالد، عن الشّعبي، عن مسروق؛ قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -: «ليس عام إلَّا والذي بعده أشرّ منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيُهدم الإسلام ويُثلم»]

الشَّرْح:

بعد أن ذكر الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات والأحاديث

---

(١) فضل الإسلام (ص١٠، ١١).

في فضل الإسلام، أتبعه بباب وجوب الدُّخول في الإسلام، ليبيِّن أنَّه دين الله الذي ارتضاه لخلقه وأنَّه فرضٌ عليهم وواجب الإيمان به، وأنَّ الله لا يقبل ممَّن رغب عنه دينًا سواه.

وقد كان النَّاس قبل مبعث خاتم النبيِّين والمرسلين محمد ﷺ في ضلال، العرب في جزيرة العرب خصوصًا في مكَّة قد حرَّفوا وبدَّلوا ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكذلك أهل الكتاب العرب منهم وغير العرب حرَّفوا التَّوراة والإنجيل، فبعث الله رسوله محمَّدًا ﷺ لدعوة الجميع إلىٰ شرع الله ونوره وتوحيده، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والإسلام له معنيان: عام وخاص، فالإسلام بالمعنىٰ العام هو شرع الله الذي بُعث به كل نبيٍّ في زمانه، فمن آمن به وانقاد واستسلم له ممن بُعث إليهم نبيُّهم كان مسلمًا.

قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إمام الحنفاء بُعث بالاستسلام لله، وهكذا كل النبيِّين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبيًّا من الأنبياء، فإنَّه يتناول إسلام كل أمَّة متَّبعة لنبيّ من الأنبياء».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنَّما يكون بأن يُطاع الله في كل وقت بفعل ما أُمر به في ذلك الوقت».

فالأنبياء عليهم السلام دينهم واحد وهو توحيد الله وطاعة شرعه وأمره بالوحي الذي تعبَّدهم الله فيه.

ومن دين الأنبياء جميعًا الذي أوحي إليهم وأُمروا باعتقاده والعمل به؛ الإيمان بخاتم الأنبياء محمد ﷺ ووجوب اتِّباع شرعه الذي يُبْعث به، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

والإسلام بالمعنىٰ الخاص هو الدِّين الذي بُعث به خاتم المرسلين والنبيِّين محمد ﷺ للنَّاس كافَّة وناسخًا للشَّرائع التي قبله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ الإسلام الخاص الذي بعث

---

(١) التدمرية (ص١٧٣، ١٧٤).

(٢) التدمرية (ص١٦٩).

(٣) التدمرية (ص١٧٣).

الله به محمدًا ﷺ المتضمِّن لشريعة القرآن، ليس عليه إلَّا أمَّة محمد ﷺ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا».

فالأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام دعوتهم التي بُعثوا بها واحدة، وهي الدَّعوة إلىٰ توحيد الله وعبوديَّته وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في الدنيا والآخرة، الأنبياء إخوة لعلَّات أمهاتهم شتىٰ، ودينهم واحد**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن النبي ﷺ شَبَّه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ولقائه، بالأب الواحد؛ لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم، فقال تعالىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال البخاري في «صحيحه»: «باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد»، وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلىٰ خاتمهم محمد ﷺ، فهو

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٦١).

بمنزلة الأب الواحد، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف؛ فهي بمنزلة الأمَّهات الشتَّىٰ، فإن لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه».

ونبي الله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشَّر بنبوَّة ورسالة محمَّد ﷺ داعيًا للإيمان به واتِّباعه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وفي الصَّحيحين من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ لي أسماءً: أنا محمَّد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر النَّاس علىٰ قدمي، وأنا العاقب**».

قال العلَّامة عبد الرَّحمن بن محمد العليمي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «محمَّد هو المحمود حمدًا متكرِّرًا، وأحمد هو الذي حمده لربِّه أفضل من حمد الحامدين غيره، وهو الذي يحمده أهل الدُّنيا وأهل الآخرة، وأهل السَّماء والأرض، فلكثرة خصائله المحمودة التي تفوت عدد العادِّين سُمِّي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التَّفضيل والزِّيادة في القدر والصِّفة، فدلَّ أحد الاسمين وهو محمد علىٰ كونه محمودًا، ودلَّ الاسم الثَّاني وهو أحمد علىٰ كونه أحمد الحامدين لربِّه».

وموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبيُّ بني إسرائيل ائتم بالنَّبي محمد ﷺ في صلاته بالأنبياء

(١) فتح الرَّحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٥، ٣٦).

في المسجد الأقصىٰ فأتباعه أحرىٰ وأولىٰ بالائتمام والاتِّباع لنبي الله محمَّد ﷺ، وقال النبي ﷺ: «**والله لو كان موسىٰ بين أظهركم ما حل له إلَّا أن يتَّبعني**»(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الرسول محمد خاتم الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين -؛ هو الإمام الأعظم الذي لو وُجِد في أيِّ عصر وجد؛ لكان هو الواجب الطاعة المُقدَّم علىٰ الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب جَلَّجَلَالُهُ لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتىٰ تنتهي النوبة إليه؛ فيكون هو المخصوص به».

والتَّوراة والإنجيل بشَّرت بخاتم المرسلين والنبيِّين محمد ﷺ، وذكرت صفته ومحتوىٰ دعوته ومهاجره.

ولم تقتصر التَّوراة والإنجيل علىٰ ذكر صفة خاتم الرُّسل ﷺ ومحتوىٰ دعوته، بل قد ذكرت أيضًا صفة أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدَّارمي (١/ ١١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢٩).

﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهنا في باب وجوب الدُّخول في الإسلام ساق الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كل أمَّتي يدخلون الجنَّة إلَّا من أبىٰ**»، قيل: ومن أبىٰ؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»، رواه البخاري[1]، ليبيِّن أنَّ الإسلام هو الاستسلام والانقياد لله، فمن تولَّىٰ عن الانقياد لله فهذا لم يُسلم؛ فلا ينفعه مجرَّد معرفة كلمة التَّوحيد «لا إله إلا الله» إذا لم يتألَّه لله ولم يعبده بأداء حقوق كلمة التَّوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القول المجرَّد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانًا باتِّفاق المسلمين».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «من لم يستسلم له – سبحانه –؛ لم يكن مسلمًا؛ ومن استسلم لغيره كما يستسلم له؛ لم يكن مسلمًا؛ ومن استسلم له وحده فهو المسلم؛ كما في القرآن: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]».

فمن تولَّىٰ عن الانقياد لله، والاستسلام له، وعن إقامة أركان الإسلام؛

---

(١) فضل الإسلام (ص١٠، ١١).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٤١).

(٣) النبوات (١/ ٣٤٧).

فهذا كافر، وكفره كفر تولِّي، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢].

قال العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من أعرض عن الله، وعن طاعة الله ورسوله فهو من الكافرين».

فالتَّوحيد حقيقته العمل لله بما أمر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ التَّوحيد - وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله» - هو أن يعبد الله، وهو تعالىٰ إنَّما يُعبد بما أمر به، فهو العمل لله بأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]، فكل عمل من أعمال البر فهو جزء من التَّوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله وتوحيده».

فلو كان إيمان في القلب وعلم واعتقاد صحيح لكانت الجوارح كذلك، فإيمان القلب يستلزم عمل الجوارح بلا ريب، قال النبيُّ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**»، متَّفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «التَّحقيق أنَّ إيمان القلب التَّام يستلزم العمل الظَّاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام

(١) فوائد من التَّفسير (ص١٥٦).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٣/ ١٢١).

(٣) الإيمان الكبير (٤٢٤، ٤٢٥).

بدون عمل ظاهر».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتىٰ رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلم الطيب، كما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبته ورجائه وإجابته والإنابة إليه والتوكل عليه».

وحيث ورد ذكر «العلم» في الإيمان في نصوص الكتاب والسُّنَّة فإنَّما يُراد به علم القلب واعتقاده وعمله المستلزم لعمل الجوارح، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «العلم لابُدَّ فيه من إقرار القلب، ومعرفته، بمعنىٰ ما طُلب منه علمه، ولا يتم ذلك إلَّا بالعمل بمقتضىٰ ذلك العلم في كل مقام بحسبه».

فالعمل تحقيق للعلم، فالعمل والعلم متلازمان، فمن زعم أنَّه مسلم

---

(١) لطائف المعارف (ص٤٢٦).

(٢) تيسير اللَّطيف المنَّان (ص٢٢).

معرفة ولم يصدِّقه بالعمل؛ فهذا غير مسلم ولا مؤمن، وعمله مُكذِّب لعلمه.

قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللِّسان، فمن لم يصدِّق الإيمان بعمله بجوارحه مثل الطَّهارة والصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجِّ والجهاد وأشباهِ هذه، ومن رضي لنفسه بالمعرفة والقول دون العمل؛ لم يكن مؤمنًا، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان للعمل تكذيبًا منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرنا تصديقًا منه لإيمانه، فاعلم ذلك. هذا مذهب علماء المسلمين قديمًا وحديثًا، فمن قال غير هذا فهو مرجئ خبيث، احذره علىٰ دينك، والدَّليل علىٰ هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]».

فالإسلام والإيمان لا يكون معرفة فقط، فهذا اعتقاد الجهميَّة، أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فهم مجمعون علىٰ تلازم العمل والقول والاعتقاد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الإسلام الذي في القلب لا يتمُّ إلَّا بعمل الجوارح، فكُنَّ مباني له ينبني عليها، فالمباني الظَّاهرة تحمل الإسلام الذي في القلب كما يحمل الجسد الرُّوح، وكما تحملُ العُمُدُ السّقف، والقبَّة الأركان، فالإسلام الذي هو دين الله بُني بمبعث محمد رسول الله ﷺ علىٰ هذه الأركان».

فالتَّوحيد ليس مجرَّد النُّطق بالشَّهادتين، فلابُدَّ من الإتيان بالتَّوحيد وحقوقه، ومحاذرة أضداده، لذلك قال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب

(١) الشَّريعة (١/ ٦١٤)، الأربعون حديثًا (ص٥١، ٥٢).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السَّادسة (ص٢٩).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا حقيقة الإسلام[١]: «هو الاستسلام لله بالتَّوحيد، والانقياد له بالطَّاعة، والخلوص من الشِّرك».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، بيَّن سبحانه أنَّ الإيمان له لوازم، وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده موادة من حاد الله ورسوله ﷺ».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **عن النبيِّ** ﷺ **أنَّه قال: «من أطاعني دخل الجنَّة»**؛ فيه بيان وجوب تحقيق شهادة أنَّ محمدًا رسول الله ﷺ مع شهادة أن لا إله إلا الله لدخول الجنَّة.

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: «من أبىٰ» دخول الجنَّة، وذلك إنَّما هو أن يأبىٰ الطَّاعة، فمن أبىٰ الطَّاعة يأبىٰ دخول الجنَّة، وذلك أنَّ قول رسول الله ﷺ: «**أبىٰ**»؛ يعني: أنَّ دخول الجنَّة في الآخرة من طريق إليها، فالدُّنيا هي عند أهل العقل والنَّظر الصَّحيح جنَّة تنقل إلىٰ جنة، فإنَّ الطَّريق إلىٰ الجنَّة في الآخرة إنَّما هي عبادة الله في الدُّنيا بأنواع العبادات التي هي كلّها حقائق الأمن وعروش الطمأنينة».

وفي قول النبيُّ ﷺ «**كل أمَّتي يدخلون الجنَّة**»، وقوله: «**من أطاعني**

---

(١) الأصول الثَّلاثة وأدلَّتها (ص١٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص٣٦٨).

(٣) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٧/ ٣١٠، ٣١١).

دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبىٰ»، تبيين للحدَّ الفاصل بين فريق المؤمنين أهل الجنَّة، وفريق الكافرين أهل النَّار وهو من جوامع كلم النبيِّ ﷺ الذي بيَّن معنىٰ القرآن في ذلك في آيات كثيرة.

قال تعالىٰ في محاجَّة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **لفرعون:** ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «عُلم أنَّ «التَّولِّي» ليس هو التَّكذيب، بل هو التَّولِّي عن الطَّاعة، فإنَّ النَّاس عليهم أن يصدِّقوا الرَّسول ﷺ فيما أخبر، ويطيعوه فيما أمر. وضدُّ التَّصديق التَّكذيب، وضدُّ الطَّاعة التَّولِّي، فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]، فنفىٰ الإيمان عمَّن تولَّىٰ عن العمل، وإن كان قد أتىٰ بالقول. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. ففي القرآن والسُّنَّة من نفي الإيمان عمَّن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة، كما نفىٰ فيها الإيمان عن المنافق».

فمن لم يعمل ولم يقم بعبودية الله هذا غير مصدق ولا مؤمن، فالتصديق والانقياد لمقتضىٰ التصديق متلازمان، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

---

(١) الإيمان الكبير (ص٣٤٨).

(٢) الصلاة (ص٣٨)، ط: دار ابن كثير، ط: الخامسة.

«قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] فلما كان الإسلام تصديق الخبر والانقياد للأمر، جعل سبحانه له ضدين: عدم التصديق وعدم الصلاة، وقابل التصديق بالتكذيب والصلاة بالتولي، فقال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فكما أنَّ المكذب كافر فالمتولي عن الصلاة كافر، فكما يزول الإسلام بالتكذيب يزول بالتولي عن الصلاة».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التصديق إنَّما يتم بأمرين: أحدهما: اعتقاد الصدق. والثاني: محبة القلب وانقياده. ولهذا قال تعالىٰ لإبراهيم: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، وإبراهيم كان معتقدًا لصدق رؤياه من حين رآها، فإن رؤيا الأنبياء وحي، وإنَّما جعله مصدقًا لها بعد أن فعل ما أُمر به.

وكذلك قوله ﷺ: «**والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه**»، فجعل التصديق عمل الفرج لا ما يتمنىٰ القلب، والتكذيب تركه لذلك، وهذا صريح في أنَّ التصديق لا يصح إلَّا بالعمل.

وقال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. وقد روي هذا مرفوعًا.

والمقصود: أنَّه يمتنع مع التصديق الجازم بوجوب الصلاة والوعد علىٰ فعلها والوعيد علىٰ تركها».

---

(١) الصلاة (ص٤١، ٤٢).

وفي هذا الباب – باب وجوب الدُّخول في الإسلام – ذكر الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثرًا عن أحد علماء الصَّحابة في النَّصيحة لعلماء الصَّحابة ومن بعدهم فقال: وفي الصَّحيح عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «يا معشر القرَّاء! استقيموا، فإنِ استقمتم فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا فقد ضللتم ضلالًا بعيدًا».

القرَّاء في اصطلاح الصَّحابة هم العلماء.

والقراء في عهد خير القرون كانوا خير النَّاس، كانوا فقهاء، وكانوا علماء عاملين مُعلِّمين، قال أبو عبد الرَّحمن السّلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن أنَّهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتىٰ يتعلَّموا ما فيها ويعملوا بها، فتعلَّمنا العلم والعمل جميعًا.

والقرَّاء كانوا فقهاء علماء، ولم يكونوا مُجرَّد قُصَّاص ووعَّاظ، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنتم في زمان كثير قراؤه قليل خطباؤه، وسيأتي زمان قليل قرَّاؤه كثير خطباؤه».

وواجب العلماء وطلبة العلم تبليغ الشَّرع، قال تعالىٰ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وهذا الميثاق أداؤه يكون بقول الحق الذي دلَّ عليه القرآن والسُّنَّة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

ويجب علىٰ طالب العلم النَّصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامَّتهم،

ومن نصح طالب العلم للمسلمين أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، قال وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من بركة العلم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر».

واحذر أن يُلبِّس عليك إبليس بترك هذه الفريضة لطبيعتك البشريَّة من انتفاء العصمة عنك.

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر حتىٰ لا يكون فيه شيء؛ ما أمر أحد بمعروف ولا نهىٰ عن منكر».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لو لم يعظ النَّاس إلا معصوم من الزَّلل؛ لم يعظ بعد رسول الله ﷺ أحد؛ لأنَّه لا عصمة لأحد بعده».

وبقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، امتاز الأئمَّة المهتدون من الأئمَّة المضلِّين، وقد حذَّر النبيُّ ﷺ من الأئمَّة المضلِّين لعظم خطرهم؛ لأنهم يحرِّفون الدِّين ويفسدون الشَّريعة وشرائعها، فعن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما أخاف علىٰ أُمَّتي الأئمَّة المضلِّين**»، رواه البرقاني في مستخرجه علىٰ الصَّحيح.

وسنَّة الله أنَّه يدفع بعلماء الحقّ دعاة الضَّلالة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال النبيُّ ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرُّهم من خالفهم ولا من**

(١) لطائف المعارف (ص٤٤).

(٢) لطائف المعارف (ص٤٣).

خذلهم»، رواه البخاري ومسلم.

والله عَزَّوَجَلَّ تكفَّل بحفظ دينه؛ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فيستعمل الله علماء أهل السُّنَّة والجماعة في نصرة الحق والشَّرع، ومن تولَّىٰ عن ذلك استبدل الله غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ومن خطر الأئمَّة المضلِّين تبرير تحريف الشَّرع، قال العلَّامة إسماعيل بن إسحاق بن حمَّاد بن زيد رَحِمَهُمُ اللَّهُ[١]: «دخلت مرَّةً علىٰ المعتضد، فدفع إليَّ كتابًا، فنظرت فيه، فإذا قد جمع له فيه الرُّخص من زلل العلماء، فقلت: مصنِّف هذا زنديق.

فقال: ألم تصحَّ هذه الأحاديث؟

قلت: بلىٰ، ولكن من أباح المسكر لم يُبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالمٍ إلَّا وله زلَّة، ومن أخذ بكلِّ زلل العلماء ذهب دينه.

فأمر بالكتاب فأحرق».

وقال النبيُّ ﷺ في صفة علماء الحق وأئمَّة الهدىٰ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين**».

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «هذا إخبار منه - ﷺ - بصيانة العلم

---

(١) سير أعلام النُّبلاء (١٣/ ٤٦٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللُّغات (١/ ١٧)، وفتح المغيث (٢/ ١٧٢).

وحفظه وعدالة ناقليه، وأن الله تعالىٰ يُوفِّق له في كل عصر خلقًا من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد، وهذا من أعلام النبوَّة، ولا يضر مع هذا كون بعض الفُسَّاق يعرف شيئًا من العلم، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه لا أن غيرهم لا يعرف شيئًا منه».

والله عَزَّوَجَلَّ يصطفي من عباده العلماء من يقوم بميراث النبيّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته أصلًا وميراثًا، فهو أعلم بمن يصلح ليحمل رسالته فيؤدِّيها إلىٰ عباده بالأمانة، والنَّصيحة، وتعظيم المرسل، والقيام بحقّه، والصَّبر علىٰ أوامره، والشُّكر لنعمه، والتقرُّب إليه، ومن لا يصلح لذلك».

فالقراء في اصطلاح الصَّحابة والعلماء في اصطلاح السَّلف هم علماء أهل السُّنَّة لا الأئمَّة المضلِّين ولا المبتدعين،

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال الله سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، وهم أهل العلم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّة رسوله ﷺ، أمَّا أهل البدعة فليسوا من أهل الذِّكر، والدُّعاة إلىٰ البدعة ليسوا من أهل الذِّكر أيضًا».

(١) طريق الهجرتين (ص٩٧).

(٢) الفتاوىٰ البازية (٧/ ١٢٦).

والاستقامة واجبة علىٰ الجميع وإنَّما خصّ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القرَّاء بالنَّصيحة بالاستقامة لأنَّها في حقِّهم أوكد، ولأنَّ بصلاحهم يكثر نفعهم، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت: ٦]، وهي في حق القراء أوكد، قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن العلماء[1]: «واجبهم عظيم، والخطر عليهم عظيم، والأمَّة في ذمَّتهم؛ لأنَّها بأشد الحاجة إلىٰ البلاغ والبيان بالطُّرق الممكنة».

وبيَّن سماحته عفا الله عنه بماذا يحصل نفع القرَّاء والعلماء وطلبة العلم للمسلمين[2]: «النَّفع الحقيقيّ من طالب العلم يترتَّب علىٰ صدقه وإخلاصه، وعلىٰ كثرة علمه، وتمكُّن فقهه، وعلىٰ صبره ومصابرته».

قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١].

فالأمَّة تقوىٰ ويُعزُّها الله وينصرها إذا استقامت علىٰ أمر الله، أمَّا أن نقصر الاستقامة علىٰ فئة محدودة وهم «المطاوعة»، فهذا خلاف ما أمر الله به، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وسطًا: أي خيارًا عدولًا، هكذا يجب أن تكون أُمَّة الإسلام.

فمجموع الأمَّة إذا كان مستقيمًا صالحًا مُصلحًا قوي الإسلام، ونصر الله الأمة، ومتىٰ كان مجموعها ضعيفًا أصابها الوهن وتسلَّط عليها عدوُّها.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ البازية (٧/ ٢٢١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ البازية (٧/ ٢٢٠، ٢٢١).

عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تتداعىٰ عليكم الأمم كما تتداعىٰ الأكلة إلىٰ قصعتها**»، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: «**لا، أنتم كثير، ولكنَّكم غثاء كغثاء السَّيل**»، رواه أحمد.

وقد حذَّر النبيُّ ﷺ أمَّته أن تضعف بهجر مجموعها الأخذ بالقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهُّمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره، والعدول عنه إلىٰ غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره -؛ من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر علىٰ ما يشاء أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار علىٰ الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب».

والمسلم أسوته رسول الله ﷺ، فهو المعصوم، وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ، وهو الذي تعبَّدنا الله باتِّباعه دون من سواه، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

والنَّاس يوزنون بموافقتهم السُّنَّة، فيُؤخذ من أعمالهم ما وافقوا فيه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٤).

رسول الله ﷺ، ويُلتفت عمَّا سوىٰ ذلك.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، هاهنا أُمرنا أن نأخذ بأمره، وأن نقتدي بهديه، وأن نسلك طريقه، وأن نعمل بسُنَّته، فما بلغنا فبمَنٍّ الله ورحمته، وما قَصَّرْنا استغفرنا، فذاك باب مخرجنا».

وقال عثمان بن عفَّان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «إذا أحسن النَّاس فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم».

وقال أيُّوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «العاقل يأخذ من كل شيء أحسنه».

وقريش سادت العرب قبل الإسلام بانتخاب أحسن الأخلاق ممَّا في النَّاس، قال العلَّامة أبو سليمان الخطَّابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «بلغني عن بعض العلماء؛ أنَّه سئل عن قريشٍ: كيف صارت أفضل العرب قاطبةً، وإنَّما هي قبيلة من مضر؟ فقال: لأنَّ دار قريشٍ لم تزل موسم النَّاس ومنسك الحاجِّ، وكانت العرب تقصدها في كلِّ عامٍ لحجِّهم وتردها لقضاء نسكهم، فهم لا يزالون يتأمَّلون أحوالهم ويراعونها فيختارون منها أحسن ما يشاهدونه، ويتكلَّمون بأفصح ما يسمعون من كلامهم، ويتخلَّقون بأحسن ما يرونه من

(١) تعظيم قدر الصَّلاة (٢/ ٦٧٦).

(٢) رواه البخاري كتاب الأذان باب إمامة المفتون والمبتدع (ص١١٤ - رقم ٦٩٥).

(٣) الأخبار الموفّقيَّات (ص١٦٤).

(٤) العزلة (ص١٤٤).

شمائلهم، فصاروا أفضل العرب من قِبَل حسن الاختيار الَّذي هو ثمرة العقل، فلمَّا ابتعث الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ منهم تمَّت لهم الفضيلة وكملت لهم به السِّيادة».

وفي هذا الباب ـ باب وجوب الدُّخول في الإسلام - ساق الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا مُحذِّرًا من الأعمال المفسدة للدِّين والدُّنيا فقال[1]: [وفي الصَّحيح عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**أبغض الناس إلىٰ الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دَم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه**»، رواه البخاري. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «**سنة الجاهلية**»؛ يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيدة، أي في شخص دون شخص كتابية أو وثنية أو غيرهما، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون].

هؤلاء الثَّلاثة من أبغض النَّاس إلىٰ الله؛ لأنَّ أعمالهم مفسدة للدِّين والدُّنيا، وسبب لذهاب دين النَّاس وأمنهم، ولأنَّهم مستبدلون ما أمر الله به من العدل وتحكيم الشَّرع والعبادة والتَّوحيد بالشِّرك والجاهليَّة والخوف والفوضىٰ، فهؤلاء سعوا في إفساد ما أراده الله من تمكين عباده، قال تعالىٰ ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) فضل الإسلام (ص١١).

فالملحد في الحرم يضار بأمن الحرم ويصدُّ عن سبيل الله من قصد بيت الله لعبوديَّة الله وطاعته وأداء فرائضه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

والمبتغي في الإسلام سنة الجاهليَّة؛ مفسد للأديان، سواء كانت ضلالته في اعتقاد أو قول أو عمل، والمُطلب دم امرئ مسلم بغير حق؛ ساع في فساد الأرض ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، والقصاص يقيمه وليُّ الأمر لئلَّا يريق النَّاس الدِّماء بدعوىٰ القصاص فيتسلسل إراقة الدِّماء فيهم، فالحدود منوطة بولي الأمر.

والإلحاد هو الميل عن الحقّ، فيتناول الوعيد كل ميل باطل من اعتقاد أو إرادة أو قول أو فعل، ويتغلَّظ الإلحاد بحسبه، ومن جملة ذلك قصد الحرم وآمِّيه بالأذىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وسنَّة الجاهليَّة تعمُّ كل ما كانوا عليه من اعتقادات أو أحكام أو معاملات أو أخلاق الجاهليَّة التي خالفت ما جاء به المرسلون.

وللإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصنَّف خاصّ في مسائل الجاهليَّة، ذكر منها ثمان وعشرين ومائة مسألة، وبعض هذه المسائل متضمِّنة لأنواع من المسائل، ومن أنفع الكتب المصنَّفة في التَّحذير من مسائل الجاهليَّة «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»

لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وحسبي في هذا المصنَّف أن أذكر أمَّهات مسائل الجاهليَّة لنحذرها، أعظم ذلك: أن التَّحليل والتَّحريم والتَّشريع مصدره اتِّباع أهوائهم واختراع ضلالهم.

قال الله تعالىٰ عن جاهليَّة التَّشريع عند كفَّار قريش: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلَّها الله لهم عمومًا، وجعلها رزقًا ورحمة، يتمتَّعون بها وينتفعون؛ قد اخترعوا فيها بِدعًا وأقوالًا من تلقاء أنفسهم، فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا من أردنا أن يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم -.

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة إلا أهويتهم، وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرَّمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهورها، ويسمونها الحام، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلىٰ الله، وهم كذبة فُجَّار في ذلك.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢٨٠).

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ على الله، من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل، والمنافع».

ومن ضلال أهل الجاهليَّة تعبُّدهم بالضَّلال والسَّفه والشِّرك، فنصبوا الأصنام حول الكعبة، وجعلوها آلهة، وكانت صلاتهم عند البيت تصفيقًا وتصفيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وكانت عبوديَّتهم لله خصوصًا في مشاعر الحجِّ طبقيَّة مبناها على الكبر، يقفون بمزدلفة لأنَّها من الحرم ويجعلونه خاصًّا بالقرشيِّين، وسائر النَّاس يجعلونهم يقفون بعرفة لأنَّها من الحلّ.

وحميَّة الجاهليَّة من شرِّ ما كان عليه الضَّالُّون من مشركي قريش، ينتصرون لأنفسهم وضلالهم ولو بالباطل، ويعتزُّون بأصنامهم التي لا تضرُّ ولا تنفع، ويعقدون ولاءهم على أنسابهم، كل هذا باعثه الكفر والشِّرك بالله وعدم الإخلاص في الاعتقاد والقول والعمل، أمَّا المسلمون فتوحيدهم وإخلاصهم ألزمهم كلمة التَّقوىٰ، فاعتقادهم يُلزمهم كلمة التَّقوىٰ ونُصرة الحقِّ وقول الحقّ وعمل الحقّ.

قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لمَّا كانت حميَّة الجاهليَّة توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه السكينةَ تقابل حميَّة الجاهليَّة، وفي ألسنتهم كلمة التَّقوىٰ مقابلةً لما توجبه حميَّة الجاهليَّة من كلمة الفجور، فكان حظُّ المؤمنين السَّكينة في قلوبهم، وكلمة التَّقوىٰ علىٰ ألسنتهم، وحظُّ أعدائهم حميَّة الجاهليَّة في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوَان علىٰ ألسنتهم، فكانت هذه السَّكينة وهذه الكلمة جندًا من جند الله أيَّد بها رسوله والمؤمنين، في مقابلة جند الشَّيطان الَّذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السَّكينة الطُّمأنينة للخير تصديقًا وإيقانًا وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدع شبهةً تعارض الخير ولا إرادةً تعارض الأمر، فلا تمرُّ معارضات السُّوء بالقلب إلَّا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشَّيطانيَّة الَّتي يبتلىٰ بها العبد ليقوىٰ إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردِّها وعدم السُّكون إليها، فلا يظنُّ المؤمن أنَّها لنقص درجته عند الله.

وكلمة التقوىٰ هي الكلمة التي يُتَّقىٰ الله بها، وأعلىٰ أنواع هذه الكلمة هي قول: لا إله إلا الله. ثم كل كلمة يتقىٰ الله بها بعدها فهي من كلمة التقوىٰ، وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين، فجعلها لازمة لهم لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم؛ فهو الملزم وهم الملتزمون».

ومن أعظم ضلال الجاهليَّة سلوكهم الأسباب الغير مشروعة والتي لا

(١) بدائع التَّفسير (٤/ ١٧٠، ١٧١).

أثر لها في حصول مقصودهم أو عدمه؛ فقد كانوا في الجاهليَّة يتطيَّرون ويتشاءمون برؤية بعض الأمكنة والأزمنة وبرؤية بعض المخلوقات، فنهىٰ النَّبي ﷺ عن الطِّيرة، وحثَّ النَّاس علىٰ التَّفاؤل والتوكُّل علىٰ الله، الذي يُقوِّي القلب علىٰ فعل الخير ومحاذرة الشرّ، ووجَّههم لأن يقولوا: **اللَّهمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيِّئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**. رواه أبو داود من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الإمام محمد بن عبد الوهَّاب[1].

وكانوا يقدمون علىٰ الفعل أو يحجمون بالتَّطيُّر، فإن جاء الطَّير عن شمائلهم ردَّهم ذلك عمَّا أرادوا، وهذا شيء لا أثر له في الفعل أو التَّرك، وهو من أسباب وهن وضعف القلوب وتعلُّقها بغير الله، وهذا شرك.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الطِّيرة شرك**»، رواه أبو داود والتِّرمذي وصحَّحه.

والمسلم شروعه ومضيُّه في الفعل أو تركه باعثه هو أمر الله بذلك وحثّه عليه أو نهيه وتحريمه عنه، وما كان من المباحات أو المستحبَّات التي يحتاج فيها المسلم إلىٰ طلب ترجيح فعله أو تركه فإنَّه يسلك الطرق المشروعة لذلك بالاستشارة والاستخارة، أمَّا التطيُّر فشؤم يعطِّل الإنسان عن القيام بأسباب ما ينفعه، والله يحب من عبده أن يكون حارثًا وهمَّامًا.

وكان من ضلال أهل الجاهليَّة تعليق التَّمائم لدفع الضُّرِّ عنهم من

(١) كتاب التَّوحيد (ص١١٢)، ط ـ دار السَّلام ـ الرِّياض .

الحسد أو المرض وغيره، وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من تعلَّق تميمةً فقد أشرك**»، رواه أحمد.

وأعمال الجاهليَّة يقصدون بها الرِّياء؛ لأنَّهم مشركون ليس لهم توحيد يأمرهم بإخلاص الأعمال لله، وقد نهانا الله عن التشبُّه بهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «يقول تعالىٰ بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهيًا لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾ أي دفعًا للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبُّر عليهم، كما قال أبو جهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا. فقال: لا والله لا نرجع، حتىٰ نَرِد ماء بدر، وننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدَّث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدًا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام، ورُكِموا في أطواء بدر مهانين أذلَّاء، صغرة أشقياء، في عذاب سرمديٍّ أبدي، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ أي عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم علىٰ ذلك شر الجزاء».

ومن أعظم أمور الجاهليَّة التي حذَّر منها شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب في أوَّل كتابه «مسائل الجاهليَّة» التفرُّق في الدِّين والدُّنيا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

قال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الثانية: أنهم متفرقون في دينهم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وكذلك في دنياهم، ويرون أن ذلك هو الصواب، فأتىٰ بالاجتماع في الدين بقوله: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

ونهانا عن مشابهتهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ونهانا عن التفرق في الدين بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الثالثة: أن مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة، والسمع والطاعة له ذل ومهانة، فخالفهم رسول الله ﷺ، وأمر بالصبر علىٰ جور الولاة، وأمر بالسمع والطاعة لهم والنصيحة، وغلَّظ في ذلك، وأبدىٰ فيه وأعاد.

وهذه الثلاث هي التي جمع بينها فيما صحَّ عنه في الصحيحين أنه قال: **«إن الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»**، ولم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها».

---

(١) مجموع مؤلَّفات الشَّيخ محمد بن عبد الوهاب (٦/ ٢٢٩).

والجاهليَّة أزالها الله ببعثة محمَّد ﷺ الذي جدَّد ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجاء بدين الحقّ، ودلَّ النَّاس علىٰ كل خير وحذَّرهم كل شرّ، فلا ترجع الجاهليَّة الأولىٰ، ولكن قد توجد بعض شعبها وأنواعها في بعض الأفراد أو النَّواحي، أمَّا الجاهليَّة الأولىٰ فلا ترجع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في حال جاهلية منسوبة إلىٰ الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال؛ إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل.

وكذلك كل ما يخالف ما جاءت به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث الرسول ﷺ قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص؛ كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين علىٰ الحق إلىٰ قيام الساعة.

والجاهلية المقيَّدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين، كما قال ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**»، وقال لأبي ذر: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» ونحو ذلك».

وفي تحذير الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الخروج عن دعوىٰ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٨، ٢٥٩).

الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة؛ حثٌّ علىٰ بناء أمَّة الإسلام علىٰ آصرة الإسلام والإيمان، وهو من طاعة الله ومن أسباب جمع كلمة المسلمين وقوتهم، وهو الذي تأتلف به القلوب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وما ضعفت الأمَّة وتفرَّقت إلا بدعاوىٰ الجاهليَّة التي أورثتها الخذلان.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أتباع الرُّسُل غالبون لمن خالفوا الرُّسل دائمًا وأبدًا، قال النبيُّ ﷺ: «**نُصرتُ بالرُّعْبِ مسيرة شهر**».

الله أكبر! ما أعظم هذه الفائدة، لو أنَّنا كُنَّا علىٰ المستوىٰ الذي ينبغي، فلو كُنَّا مُتَّبعين لهذا النبي الكريم ﷺ علىٰ وجه الحقيقة لكان عدوُّنا مرعوبًا مِنَّا مسيرةَ شهر، لكنَّنا - مع الأسف الشديد - لم نكن مُتَّبعين للرسول ﷺ حقيقة، ولذلك صار بأسُنا بيننا، لا مَن يَدَّعِي الإسلام مِنَّا، ولا مَن أراد أنْ ينزوي تحت قاعدة الجاهلية، وهي القوميةُ العربية، فإن هذه القومية ما انتصرت مُنْذ نشأت إلىٰ اليوم، ولن تنتصر أبدًا، بل لا تزدادُ إلَّا فشلًا وتفرُّقًا وتصدُّعًا، وقتالًا فيما بينها، وكذلك أيضًا في الحقيقة ما اجتمعْنا علىٰ قوميَّةٍ إسلامية، فيبقىٰ المسلمون لا علىٰ هذا ولا علىٰ هذا، ولهذا ما كان لنا النصر الذي وعد الله به نبيَّهُ ﷺ».

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، قال العلَّامة سليمان بن عبد الله آل

(١) تفسير سورة القصص (ص١٧٢).

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أخبر أن الكفار بعضهم أولياء بعض، وأنهم – المسلمين – إن لم يفعلوا ذلك وقع من الفتنة والفساد الكبير شيء عظيم، وكذلك يقع؛ فهل يتم الدين أو يقام عَلَمُ الجهاد، أو عَلَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا بالحب في الله والبغض في الله، والمعاداة في الله والموالاة في الله؟!».

وكان النبيُّ ﷺ إذا رأىٰ من أحد من أصحابه اعتزاءً بالجاهليَّة نصحه بالاعتزاء بالحنيفيَّة والإسلام والأسماء الشَّرعيَّة، فقد ضرب أبو عقبة الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رجلًا من المشركين يوم أحد، وقال: خذها، وأنا الغلام الفارسيّ. فقال له النبيّ ﷺ: «**هلَّا قلت: خذها وأنا الغلام الأنصاريّ**»، رواه أبو داود.

وهكذا كان الصَّحابة وأبناؤهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ هذا المنهج من الأخذ بالإسلام وشعائره، قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدَّثنا إسماعيل ابن عليَّة عن داود بن أبي هند أنَّ محمَّد بن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سمع قومًا يتكلَّمون بالفارسيَّة، فقال: «ما بال المجوسيَّة بعد الحنيفيَّة».

وبالكلام بالعربيَّة تظهر لغة القرآن في النَّاس والأمصار، ويتشبَّه النَّاس بالصَّحابة والتَّابعين، ويظهر شعار الإسلام وأهله، وتقوىٰ معرفة المسلمين بلغة القرآن؛ فيسهل عليهم فهم القرآن والسُّنَّة وإقامة دينهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ اللِّسان العربيَّ شعار الإسلام وأهله».

---

(١) أوثق عرىٰ الإيمان (ص١١١)، مطبوع ضمن مجموع الرَّسائل .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥١٩).

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّما الطَّريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربيَّة، حتىٰ يتلقَّنها الصّغار في المكاتب وفي الدّور، فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل علىٰ أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسُّنَّة وكلام السَّلف، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلىٰ أخرىٰ فإنَّه يصعب».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «إن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخُلُق، والدين، تأثيرًا قويًّا بيِّنًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد في العقل والدين والخلق.

وأيضًا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وبالاستجابة لأمر الله بالاعتصام بحبله وشرعه وأمره والنَّهي عن التفرُّق يعز الإسلام ويقوىٰ وينصره الله، ويظهر الخير في الأرض، وتُعْمر بشرعه وحكمه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مخاطبًا قادة الدُّول العربيَّة**[٣]: «من الحق عليَّ نصحًا لله ولكتابه ولرسوله ﷺ، ولكم أيها

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٧).

(٣) الفتاوىٰ البازيَّة (٦/ ٨٢، ٨٣) هذه النَّصيحة وجَّهها سماحته لقادة الدُّول العربيَّة في شهر جمادىٰ الأولىٰ عام ١٣٨٧هـ، وكان وقتها نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة النبويَّة.

القادة، وإسهامًا في الإصلاح العام، ومعذرة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أن أبعث إلىٰ حضراتكم من الجامعة الإسلامية في بلد المصطفىٰ ﷺ الوصايا التالية:

أولًا: تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في جميع الأمور، والتواصي بالاستقامة علىٰ دينه، وتحكيم شريعته، والتحاكم إليها، ومحاربة ما خالفها من المبادئ والأعمال؛ لأنكم قادة العرب والمسلمين، وبصلاحكم واجتماع كلمتكم علىٰ الهدىٰ يصلح الله شعوبكم وسائر المسلمين إن شاء الله، وتعلمون جميعًا أنه لا عزة لكم ولا منعة ولا هيبة ولا انتصارًا محققًا ومضمونًا علىٰ الأعداء إلا بالتمسك بالإسلام وتحكيمه، والتحاكم إليه، كما جرىٰ علىٰ ذلك سلفكم الصالح، فأيدهم الله، ونصرهم، كما وعدهم سبحانه في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وفي الإسلام حل لجميع المشاكل وإصلاح لجميع الشئون، وتحقيق العدالة بين الجميع بأكمل معانيها إذا صلح القصد وبُذلت الجهود ووُسدت الأمور إلىٰ أهلها.

ثانيًا: التسامح وصفاء القلوب، وتوحيد الصف، واتفاق الكلمة علىٰ هدف واحد، هو اتباع الشريعة، وترك ما خالفها، والعمل علىٰ إزالة أثر العدوان اليهودي، والقضاء علىٰ ما يسمىٰ بدولة إسرائيل نهائيًّا، وتكاتف جميع الجهود والقوىٰ لهذا الغرض النبيل، مع الاستعانة بالله والاستنصار به في ذلك؛ عملًا بقول الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، وما جاء في هذا المعنىٰ من الآيات والأحاديث.

ثالثًا: تكوين جيش مشترك قوي موحَّد مجهَّز بأكمل الأسلحة الممكنة، تحت قيادة موحدة أمينة مرضية من الجميع، تستند إلىٰ مجلس شورىٰ مكون من وزراء الدفاع وأركان الجيش في جميع الدول العربية، ومن أحب أن ينضم إليها من الدول الإسلامية ليسير المجلس في جميع شئونه علىٰ قواعد ثابتة وأسس مدروسة من الجميع؛ رجاءً بأن يحقق الغرض المطلوب، ولا يخفىٰ علىٰ حضراتكم ما في هذا المجلس من الخير العظيم والحيطة، والسير علىٰ هدي الشريعة وتعاليمها الحكيمة، والعمل بقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله سبحانه في وصف المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨]».

وفي خاتمة هذا الباب – باب وجوب الدُّخول في الإسلام – ذكر الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب أثر ابن مسعود، قال[1]: [وقال – محمد بن وضَّاح –: أنبأنا سفيان بن عيينة عن مجالد عن الشّعبي عن مسروق، قال: قال عبد الله – يعني ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: «ليس عام إلَّا والذي بعده أشرّ منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم؛ فيُهدم الإسلام ويثلم»].

قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا فيه بيان أسباب فساد الأديان، وقد أجمله في ذهاب العلماء، وتقديم القياس علىٰ الوحي، وقد ذكر أنَّ هذا من أسباب هدم الإسلام.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وجدت عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التَّصريح بالمراد، وهو أولىٰ بالاتِّباع، فأخرج يعقوب بن شيبة من طريق الحارث بن حصيرة عن زيد بن وهبٍ، قال: سمعت عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لا يأتي عليكم يوم إلَّا وهو شرٌّ من اليوم الَّذي كان قبله حتَّىٰ تقوم السَّاعة، لست أعني رخاءً من العيش يصيبه، ولا مالًا يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم الا وهو أقلُّ علمًا من اليوم الَّذي مضىٰ قبله، فإذا

(١) فضل الإسلام (ص١٢).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢١).

ذهب العلماء استوىٰ النَّاس فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر؛ فعند ذلك يهلكون». ومن طريق أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ قوله: «شرٌّ منه»، قال: «فأصابتنا سنة خصب، فقال: ليس ذلك أعني، إنَّما أعني ذهاب العلماء» ومن طريق الشَّعبيِّ عن مسروقٍ عنه، قال: «لا يأتي عليكم زمان إلَّا وهو أشرُّ ممَّا قبله، أما إنِّي لا أعني أميرًا خيرًا من أميرٍ، ولا عامًا خيرًا من عامٍ، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون ثمَّ لا تجدون منهم خلفًا، ويجيء قوم يفتون برأيهم»».

وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الأثر المرويِّ عنه فسَّر الشرَّ بنقص العلم، وفي قوله هذا حثٌّ علىٰ طلب العلم وتعليمه؛ لأنَّه من أسباب الخير في الأمَّة، قال النبيُّ ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدِّين**»، متَّفق عليه من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فبالفقه في الدِّين تُحفظ شرائع الإسلام وشعائره، وتزكو عقائد المسلمين وأخلاقهم، ويُعزُّ الله المؤمنين، ويحفظ الله البلاد والعباد، ويتواصىٰ النَّاس فيما بينهم بالحق، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ودروس العلم وفشو الجهل هو سبب أول شرك وقع في الأرض، فالخلق من لدن آدم كانوا علىٰ الفطرة والتَّوحيد إلىٰ قوم نوح، ثم مع دروس العلم عبد قومهم من بعدهم الأصنام.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ

وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحىٰ الشَّيطان إلىٰ قومهم: أن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا ولم تُعبد، حتَّىٰ إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت. رواه البخاري.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ **في فوائد الحديث**[1]: «إنَّها - الأصنام - لم تُعبد حتىٰ نُسي العلم، ففيه بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده».

والخصب والعلم والعمل متلازمان فإنَّ الأمَّة إذا حفظت دينها علمًا وعملًا استدرت بذلك بركات الأرض والسَّماء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فالأرض إذا خصبت بالعلم النَّافع والعمل الصَّالح أدرك النَّاس بركتها، ورزق الله البلاد والعباد والبهائم.

وجدب الأرض يكون بترك التعليم، فالتَّعليم أعظم ما حثَّ عليه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أثره هذا وفي سائر أقواله، قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قرأ هذه الآية قال: يا أيها الناس! افهموا هذه الآية لترغبكم في العلم[2].

---

(١) كتاب التَّوحيد، الباب الثَّامن عشر، باب ما جاء أنَّ سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصَّالحين، مسائل الباب، المسألة التَّاسعة عشر (ص٨٠).

(٢) عون الباري بحل أدلَّة البخاري (١٠/ ٢٠٩).

وكان الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قُحطوا لا يتجاوز في استسقائه الاستغفار، يستجلب الخيرات والبركات برفع أسباب القحط.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من تدبَّرَ أحوال العالم وجد كلَّ صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ﷺ، وكل شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدوٍّ وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله ﷺ والدعوة إلىٰ غير الله ورسوله ﷺ».

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلىٰ غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلىٰ طاعة الله؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلىٰ غيره والشرك به؛ هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وقال عطية في الآية: «ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم»، وقال غير واحد من السلف: «إذا قحط المطر فإن الدوابَّ تلعن عصاة بني آدم وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطرُ».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٥٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٨٥٦، ٨٥٧).

وبالجملة فالشرك والدعوة إلىٰ غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسوله ﷺ؛ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ﷺ ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شرعه فلا سمع له ولا طاعة، فالله تعالىٰ أصلح الأرضَ برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهىٰ عباده عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله ﷺ».

فالخصب والرِّزق والتَّقوىٰ والعلم النَّافع والعمل الصَّالح متلازمان، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ومع هذا فإنَّ الله يبتلي عباده بالجدب والقحط أحيانًا ليستخرج عبوديَّة خلقه في السَّرَّاء والضَّرَّاء، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالخصب والرِّزق هو من ثمرات التَّقوىٰ، وليس هو المعيار عليه، وإنَّما المعيار هو اتِّباع الكتاب والسُّنَّة، وإلا فمع الإعراض عنهما فقد تكون السَّعة في الرِّزق استدراجًا، ثم يعقبه عذاب من الله بذهاب الرزق أو محق بركته أو الابتلاء بالمصائب كتسليط عدو، أو يكون هذا من تعجيل الله الطيِّبات في الدُّنيا وحرمانها في الآخرة كما هو الشَّأن في الكافرين.

قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا

﴿يَسْٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وحريٌّ بالمؤمن أن يتدبَّر آيات الله في الخصب والجدب، فيعتبر بما في مقادير الله من الحكمة، فترىٰ في عام خصبًا شديدًا، وفي أعوام خصبًا يسيرًا، وفي أحيان تجدب الأرض.

وفي عام تجد الغيث قد أقبل في أوَّل موسمه، واستمرَّ طول الموسم، وفي أعوام يأتي الغيث في أوَّل موسمه ثم ينقطع بقيَّة الموسم، وفي بعض الأحيان لا يأتي الغيث إلَّا في آخر الموسم بعد أن كاد يقنط النَّاس منه، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورىٰ: ٢٨].

والدِّيار التي لا تخلو من أمطار وسيول تجري كل عام يبتليهم الله بالأعاصير والفيضانات التي تجتاح بيوتهم وزروعهم، فيبتلون بنوع آخر من الابتلاء، كما تُبتلىٰ بلاد الصَّحراء بالجفاف، فسنَّة الله في خلقه واحدة؛ حفظًا وكفايةً ورزقًا بحسب قيامهم بأمر الله.

وانظر إلىٰ حكمة ما قصَّه الله علينا من نبأ مصر زمن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سنوات الخصب المتتاليات وما أعقبها من سنوات الجدب المتتاليات بمقدار سنوات الخصب، وما كان بعد ذلك من عام الغيث وزوال شدَّة الجدب والضرَّاء، وكان من فوائد هذه القصَّة بيان أنَّ حسن الملكة في تدبير المال والزَّرع في سنوات الخصب سبب لمواجهة أعباء سنوات الجدب.

وانظر إلىٰ حكمة الله في رزق عباده بما يُنزله من الغيث، وتأمَّل عظيم شأنه في نزوله في أوقات مخصوصة في أماكن مخصوصة، وتصريفه إلىٰ ديار

أخرىٰ ما نزل فيها الغيث.

وانظر إلىٰ حكمة الله كيف جعل بعض الأراضي خصبة قابلة للحرث والزَّرع، تُنبت الكلأ والعشب، وبعضها صلبة لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأً.

وانظر إلىٰ حكمة الله كيف سلك الماء ينابيع في الأرض تكون آبارًا للخلق وخزانات طبيعيَّة تحفظ الماء فينتفع بها النَّاس السَّنة كلّها.

قال العلَّامة الوزير ابن هُبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قدَّر الله تعالىٰ من ذلك في كل بلد قسطًا يصلح له، فلا يكاد يتجاوز نزول الغيث في العراق ونجد وبعض الحجاز وخوزستان ثلاثة أيام؛ لأن العراق تدفع الأودية، وما ينصب إليها من فواضل تلك البلاد العالية التي جعل الله تعالىٰ استمرار نزول الغيث في كل صقع منها عشرة أيام أو خمسة عشر يومًا؛ كالموصل والشام وديار بكر وبلاد الجبل، وجعل الأرض في تلك البلاد صلبة لا متهيلة ولا منبثة؛ ليكون نزول المياه فيها علىٰ مقدار تأخذ منه حاجتها، وتنفض الفاضل عنها إلىٰ هذه الأرضين التي هي قرارات.

فسبحان الله قدَّر لها عوضًا من قلة الغيث فيها بما يسيل إليها، وذلك من حكمته ورحمته، ولولا أنه جعل للأرضين العالية مصاب يأخذ عنها فضلات مياهها لأعفنتها المياه وأفسدتها، ولو لم يسق فضالة مياه تلك البلاد إلىٰ هذه الأرضين المهيلة المنبثة، فيرويها بالسقي مع ما ينالها من الغيث لأعوزها ما يصلحها؛ ولذلك جعل تلك الأرض العليا إنما يزكو زرعها علىٰ الغيث

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٦/ ١٩٤).

وحده، وجعل هذه القرارات زاكية الزرع علىٰ الغيث والسقي.

ولما كانت هذه القرارات تحتاج إلىٰ استمرار جري المياه في أوديتها مثل الفرات ودجلة وتامَرَّا، وكانت هذه الأودية علىٰ سعتها لا تفي بأن يديم جريها ما ينزل من الغيث إلا في مدة نزول الغيث، ودوام الغيث يفسدها لا يصلح لها، فغاضها الله بادخار الثلوج في شعاب الجبال وبطون الأودية، فخمد ذلك في زمن القر في محل هو أقوىٰ جنس الأرض وهو الصخر، فلا يعقبه ولا يفسده ولا يمتصه.

بل يحفظه الصخر ويخزنه، حتىٰ إذا احتيج إليه رفع الله تعالىٰ الشمس إلىٰ نحوه فيذيب حرها منها مقدار بذره من ضروع تلك الشعاب، وأفواه تلك الأودية، ورؤوس الجبال، فلا يزال يجري منه كل يوم حسب الحاجة إليه بقدر ما تمتلئ تلك الأودية، كذلك إلىٰ أن تجوز مدة انقطاع الغيوث، فيفنىٰ هو، فإذا عادت الحاجة إلىٰ الغيث عاد الغيث، فسبحان الله عدد كل ذي عدد من الأشياء، وسبحان الله عدد ما علَّم آدم من الأسماء، وسبحان الله ملء الأرض والسماء».

ومن أعظم آيات الله في خصب الأرض وحياتها بعد جدبها وموتها التذكير بالبعث، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٩].

وأثر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس عام إلَّا والذي بعده شرٌّ منه»، هو في معنىٰ قول النبيِّ ﷺ: «**لا يأتي زمان إلَّا والذي بعده شرٌّ منه**».

وهذا الحديث ذكر العلماء في معناه أنَّه خاصٌّ ببعض النَّواحي، وليس في

جميع نواحي المسلمين في وقت واحد، والشرُّ أيضًا نسبيّ، وراوي الحديث هو أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ذكره لابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ عندما شكا إليه ظلم الحجَّاج، وفي الوقت ذاته كان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أميرًا للمدينة.

قال العلَّامة يحيىٰ بن محمد بن هبيرة (ت: ٥٦٠هـ)[1]: «لعله أراد - ﷺ - بهذا الحديث أهل موضع بعينه، وإلا فالأحاديث التي قدمت منها حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: **نعم**»؛ أوضح من هذا، فإنه حديث مجمل وتلك مفسرة، فتعين ما تناولناه من أنه تخص موضعًا بعينه أو قومًا بأعيانهم».

وفترات الشرّ التي تُبتلىٰ بها الأُمَّة لا تلبث كثيرًا، يزيلها الله أو يخلفها الخير؛ لسنَّة الله المعهودة بدفع الشرّ بالخير، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلبث الجَوْرُ بعدي إلَّا قليلًا حتىٰ يطلع، فكُلَّما جاء من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتىٰ يُولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله بالعدل، فكُلَّما جاء من العدل شيءٌ ذهب من الجورِ مِثْله، حتىٰ يُولد في العدل من لا يعرف غيره**».

قال الحافظ أبو الفضل العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «هذا حديث حسن، أخرجه الإمام أحمد في مسنده هكذا».

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٨/ ٣٢٨).

(٢) محَجَّة القُرب في محبَّة العرب (ص١٧٧).

ومعنىٰ قوله ﷺ: «لا يلبث الجَوْرُ بعدي إلَّا قليلًا»: أنَّ الجور فترة وليس صفة حكم المسلمين، وهذا من خيريتهم التي اصطفاهم الله لها بسبب إسلامهم، حيث قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن أعظم الخير العدل، وهذه الأمَّة وصفها النبيُّ ﷺ بأنَّها «أمَّة مرحومة»، والظُّلم ضد الرَّحمة، والعدل رحمة، وأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ الخير في أمَّته في أوَّلها وآخرها.

قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه الآية عامَّة في جميع الأمَّة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: خيارًا».

ومع ما يقع في النَّاس من التغيُّر كلَّما بَعُدَ العهد عن عصر النبوَّة والقرون الفاضلة، فإنَّ موجب خيريَّة الأمَّة باقٍ، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا بعدي: كتاب الله**»، وفي رواية: «**وسنَّتي**».

وأخبر النبيُّ ﷺ باصطفاء الله خيار خلقه في كل طبقة لحفظ دينه وتجديده والقيام به، حيث قال: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ تقوم السَّاعة**»، رواه البخاري ومسلم.

وكذلك أخبر النبيُّ ﷺ بأنَّ الله يبعث للأمَّة من الولاة والعلماء من يجدِّد الدِّين بإقامة أحكامه وشرائعه وعباداته ومن يجدِّد الجهاد وينصر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٤٧).

الدِّين؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السُّفلىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أخبر ﷺ أنَّ الله يبعث لهذه الأمَّة علىٰ رأس كلِّ مئة سنة من يُجَدِّد دينها، ولا يكون التَّجديد إلَّا بعد استهدام».

والتَّجديد للدِّين الذي بشَّر به النبيُّ ﷺ هو تجديد يعمُّ نفعه وخيره.

قال الحافظ عبد الرَّحمن السُّيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٩١١هـ)**[٢]: «لا بُدَّ في المبعوث علىٰ رأس المائة أن يكون نفعه عامًّا، إمَّا مطلقًا في الأرض، أو يكون فيه نوع عموم».

والنَّاس إذا أخطأ فهمهم لمعنىٰ حديث: «لا يأتي عام إلا والذي بعده شرٌّ منه»، وركنوا إلىٰ ترك العمل بأسباب خيريتهم وأسباب خيريَّة الأمَّة؛ فقد أتوا بأسباب ضعف الأمَّة وهلكتها، وهذا ممَّا لم تأمر به الشَّريعة، وقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، هو خبر بمعنىٰ الأمر، فهو حثٌّ علىٰ تحقيق الإيمان والقيام بشعبه، ومن أعظمه الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وبذلك تُدرك الأمَّة أسباب خيريَّتها، وتتفاضل الأمَّة باعتبار طبقتها وقرنها بحسب أخذها بأسباب خيريَّتها.

وفي جواب النَّبي ﷺ لأمَّهات المؤمنين عندما سألنه: أنهلك وفينا

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص ٢٩٧).

(٢) مرقاة الصُّعود إلىٰ سنن أبي داود (٣/ ١٠٦٧).

الصَّالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»؛ حثٌّ للأمَّة علىٰ الأخذ بأسباب حياتها ونجاتها من الهلاك، فيقوم المصلحون وعموم المسلمين بتكثير الخير في ديار المسلمين وبتوجيه النَّاس إلىٰ أسباب حفظ بلادهم ومجتمعاتهم من الهلاك.

والمقصود أن تأتي الأمَّة بمقصود استخلافها في الأرض، وتقوم بعبوديَّتها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتأخذ بأسباب عزَّتها وريادتها، ولا تكون قدريَّة تسيء الفهم لنصوص الشَّريعة وتُعطِّل أسباب خيريَّتها فتضعف وتهلك ويُصيبها الهوان والضَّعف.

قال العلَّامة ابن هُبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ما دام الخير أكثر، والعمل أظهر، والجهل أخفىٰ؛ فإنَّ الحال المثلىٰ راجحة».

والقرون الأولىٰ لا ريب أنَّها أفضل القرون، ففي الصَّحيحين من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**خير النَّاس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، والخير في أمَّة محمد ﷺ في أوَّلها وآخرها، والأمَّةُ مأمورة بالأخذ بأسباب خيريَّتها لتكون خير خلف لخير سلف، قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولا ريب أن الفضل والخير والعلم والعمل بشرائع الإسلام وإقامتها والجهاد في سبيل الله في القرون الأولىٰ أفضل، وما علومنا إلا نزر يسير

(١) الإفصاح (٢/ ٧٦).

بالنِّسبة لعلوم الصَّحابة والتَّابعين.

قال الدَّارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أحبَّ أن ينظر ويعرف قصور علمه عن علم السَّلف فلينظر في «علل حديث الزُّهري» لمحمَّد بن يحيىٰ - يعني: الذُّهْلِيَّ -».

وأنا أقول: من أراد أن يعرف قصور علمنا عن علم السلف فلينظر في «علل الأحاديث» للدَّارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٨٤).

الباب الثالث

باب تفسير الإسلام

قال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب تفسير الإسلام، وقول الله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] الآية.

وفي الصحيح عن عمر رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**». وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال: «**أن تُسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلىٰ الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة**» رواه أحمد.

وعن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك**». قال: أي الإسلام أفضل؟ قال: «**الإيمان**». قال: وما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**»].

الشَّرْح:

هذا الباب تفسير الإسلام تفصيل وتأكيد للباب الذي قبله باب وجوب الدُّخول في الإسلام؛ لأنَّه الدِّين كلّه، وهو الإسلام والإيمان والإحسان، وفي هذا الباب أيضًا زيادة بيان وتوضيح للإسلام والإيمان والعموم والخصوص بينهما.

---

(١) فضل الإسلام (ص١٣ - ١٥).

والنبيُّ ﷺ في بعثه معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن أجمل له معاني الإسلام التي بعثه بها إلىٰ كفَّار اليمن ليدعوهم إليها، وفي حديث جبريل أجمل النبيُّ ﷺ في أجوبته معاني الدِّين كله لجميع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وللأُمَّة كلِّها.

وتكرار الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ بيان معنىٰ الإسلام في أبواب مصنَّفه «فضل الإسلام» هو من بصيرته بمعاني القرآن ونصيحته للمسلمين، فإنَّ الإسلام هو سبب الخير كلّه، الدِّينيّ والدُّنيويّ، وهو ينبوع الاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة، وهو الدِّين كلّه

قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران: ٢٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الإسلام والإيمان أصل كل خير وجِماعه».

وهذا ممَّا كان يدعو به سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّاس ليسلموا، فيُبيِّن لهم من ثمرات وخيرات الإسلام والإيمان ما يكون سببًا في حثِّهم علىٰ الإسلام.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت: ١٦]، وأعظم الخير عبوديَّة الله وتوحيده الموجب لنصره ورزقه وولايته وكفايته ودخول الجنَّة، ولذلك قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا

(١) الاستقامة (ص ٣٢٨).

فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتَّب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدىٰ والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم؛ كل ذلك مسبب عن الإيمان».

فالمؤمنون هم الرَّابحون الفائزون في الدُّنيا والآخرة، والكافرون هم الخاسرون دنيا وآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من حقَّق الإيمان بالله والكُفْر بالباطل؛ فهو الرَّابح».

فالإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب ذكر فضل الإسلام وتفسيره ليقيم المسلمون أركانه ومبانيه؛ لأنَّ هذا هو الأساس الذي جمع الخير كلّه، وهو الذي به تُقبل الأعمال، وتكون من الباقيات الصَّالحات التي تُدخل الجنَّة.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٢١٥).

(٢) تفسير سورة العنكبوت (ص٣٠٧).

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد بالإسلام هنا الاستسلام ظاهرًا وباطنًا، ولهذا فسَّرَهُ العلماء بأنَّه الاستِسْلام لله ظاهرًا وباطنًا، الاستسلام ظاهرًا: أن يقوم الإنسان بالأعمال الظاهرة كالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجِّ، والاستسلام باطنًا هو: إخلاص النِّيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]، إسلام الوجه لله أي: إسلام القصد، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ بالعمل الصَّالِح، أي: عمل الجوارح.

والإسلام عند ذكره وحده يشمل الإيمان، والإيمان إذا ذُكر وحده يشمل الإسلام، وإذا اجتمعا صار الإيمان للباطن والإسلام للظاهر، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤]».

وقال العلامة المجدِّد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المقصود من الشهادتين ما دلتا عليه من البراءة من كل معبود سوىٰ الله، وأنَّه هو المعبود وحده لا شريك له، والإيمان بالرسل، والتزام متابعتهم، هذا هو مدلول الشهادتين».

فالشهادتان «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله» متلازمتان، فتحقيق التوحيد «لا إله إلا الله» هو الدين والإسلام كله، وهو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله بسلوكه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ

(١) تفسير سورة العنكبوت (ص٢٥٥).

(٢) مصباح الظَّلام (ص٥٤٢).

﴿تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وصراط الله المستقيم الدليل في الهداية إليه وتبيينه رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣].

ومن كفر بمحمد ﷺ فهو كافر بالله الذي اصطفاه وبعثه بشريعة الإسلام، ومن تعبد بغير ما بَعث الله به نبيه محمدًا ﷺ من شرع مبدَّل محرَّف منسوخ أو من ضلالات مخترعة وبدع مضلة بغير هدًىٰ من الله؛ فهذا كافر بنعمة الله علىٰ خلقه التي هي أعظم النعم مطلقًا، قال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نعمة الله: محمد ﷺ.

فنعمة الإسلام هي أعظم النعم علىٰ الإطلاق؛ فهي الموجبة لدخول الجنة والنجاة من النار، بها يقيم المسلمون حق الله الخالص في توحيده وعبوديته، وبها عرَّف الله عباده الطريق الموصل إليه، وبنعمة الاتِّباع لرسول الله ﷺ هدىٰ الله عباده لسلوك الصِّراط الموصِّل إلىٰ الله الموجب لرضاه الذي يكون به الفوز بالجنة والنجاة من النار.

والشهادتان متلازمتان «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله»، فتوحيد الله وعبوديته لا يتم إلا بما شرع، وما شرع هو ما بُعث النبيُّ ﷺ ببيانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أصل الدين ألا يُعبد إلَّا الله، وألا يُعبد إلا بما شرع».

---

(١) الرد علىٰ البكري (ص٢٨١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان، وكل أمَّة لا تصدق الرسل فلا تكون إلا مشركة، وكل مشرك فإنَّه مكذِّب للرسل، فمن دخل في نوع من الشرك الذي نهت عنه الرسل فإنَّه مناقض لهم مخالف لموجب رسالتهم».

الدين كله حقيقته ومعناه في الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله؛ فهو تجريد التأله والعبودية لله وحده، وتجريد الاتباع لرسول الله ﷺ.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «انظر في القرآن كُفْر من جعلوا شركاء في الرسالة، وكفر من جعلوا شُركاء في العبادة؛ لأنَّ كلًّا منهم لم يُحَقِّق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فالذين اتَّخذوا شُركاء في العبادة قال الله عنهم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، والذين اتَّخَذوا شُركاء في الرسالة قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ لأنَّ المتابعة لغير الرُّسُل والمعارضة لأقوال الرُّسُل شِرْك مع الرُّسُل في الرسالة؛ لأن الذي يجب اتباعه من البشر هم الرُّسُل، فإذا جعل هذا الرجل متبوعه بمنزلة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيأخذ بقوله فِعْلًا وتَرْكًا وتصديقًا؛ فقد جعله رسولًا».

---

(١) الرد علىٰ البكري (ص ٢٦٨، ٢٦٩).

(٢) تفسير سورة الزُّمر (ص٣١٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين؛ كقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال: أخلصه وأصوبه. فقيل له: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السنة.

وقد روىٰ ابن شاهين واللالكائيُّ عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «لا يقبل قول إلَّا بعمل، ولا يقبل قول وعمل إلا بنيَّة، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»، ورويا عن الحسن البصري مثله، ولفظ ما روي عن الحسن: «لا يصلح»، مكان: «لا يقبل»».

والأخذ بشرائع الإسلام والقيام بشرعه كلّه هو حقيقة العبوديَّة والتألُّه لله، وهو الإسلام الذي يدين به المسلمون لله، فإنَّ حقيقته الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يقول الله تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله ﷺ أن يأخذوا بجميع عرىٰ الإسلام وشرائعه،

---

(١) الاستقامة (ص٥١١، ٥١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٤٧).

والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك».

ولزوم الشَّرع كله هو مقتضىٰ شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وهو حقيقة الاتِّباع له عليه أتمُّ الصلاة والسَّلام.

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الاتِّباع عند العلماء هو الأخذ بسنن رسول الله ﷺ فيها».

وتضييع بعض الشَّريعة أو التَّهاون بها من أسباب العداوة والبغضاء والشَّحناء والفرقة، وما يتبع ذلك من الشُّرور، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أخبر سبحانه أن نسيانهم حظًّا ممَّا ذُكِّروا به؛ سبب لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، فإذا اتَّبع الرَّجل جميع المشروع المسنون، واستعمل الأنواع المشروعة، هذا تارة، وهذا تارة، كان قد حُفظت السُّنة علمًا وعملًا، وزالت المفسدة المخوفة من ترك ذلك».

---

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة (٢/ ٢٣٣).

(٢) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٢/ ٤٥٩).

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أخبر أنَّ نسيانهم حظًّا ممَّا ذكِّروا به - وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به -؛ كان سببًا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهكذا هو الواقع في أهل ملَّتنا مثلما نجده بين الطَّوائف المتنازعة في أصول دينها، وكثيرٍ من فروعه».

وفي قول النَّبي ﷺ لمن سأله عن الإسلام: «أن تُسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلىٰ الله، وأن تصلِّي الصَّلاة المكتوبة، وتؤدِّي الزَّكاة المفروضة»؛ دليل علىٰ أنَّ قصد الوجه تبع لإسلام القلب وانقياده، وأنَّ أعمال القلوب من إسلامها وانقيادها لله؛ مستلزمة لأعمال الجوارح من الصَّلاة والزَّكاة وسائر أعمالها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له، كما قال - ﷺ -:

«**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

فإذا خشع القلب؛ خشع السمع والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتىٰ الكلام؛ لهذا كان النبي - ﷺ - يقول في ركوعه في الصلاة: «**خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظامي**».

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التَّفسير (٢/ ٤٦٠).

(٢) مجموع مؤلَّفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٩٠).

وفي رواية: «وما استقل به قدمي»».

فعلم القلب واعتقاده وعمله مستلزم لانقياد الجوارح وإقامة أركان الإسلام وشعائره وشرائعه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن من صدَّق الرسول ﷺ بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرًا وأمرًا فإنه يحتاج إلىٰ مقام ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: «أشهد أن لا إله إلا الله»؛ فهذه الشهادة تتضمَّن تصديق خبره والانقياد لأمره، فإذا قال: «وأشهد أن محمدًا رسول الله»؛ تضمنت تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله؛ فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار».

وقال شيخ الإسلام[٢]: «الانقياد له من تصديقه في خبره، فمن لم يَنْقَدْ لأمره فهو إمَّا مكذِّب له أو ممتنع عن الانقياد لربِّه، وكلاهما كفر صريح».

وفي جواب النبيِّ ﷺ لمن سأله عن الإسلام: «أن تُسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلىٰ الله، وأن تُصلِّي الصَّلاة المكتوبة، وتؤدِّي الزَّكاة المفروضة»؛ بيان أنَّ تجريد الإخلاص لله وصحَّة الاعتقاد؛ من أسباب حسن العبادة؛ للتلازم بينهما، فعبوديَّة القلب وتوحيده واعتقاده وعلمه موجب لحسن عبوديَّة الجوارح؛ فلهذا بدأ النبيُّ ﷺ بتوحيد القلب وعبوديَّته لأنَّه الأصل، فقال: «**أن تسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلىٰ الله**».

---

(١) الصَّارم المسلول (ص٥٢٠) ط ـ دار الكتب العلميَّة.

(٢) الصَّارم المسلول (ص٥٢١).

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس: ١٠٥].

قال أبو الطيِّب المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ صفاء العبادات لا يُنال إلَّا بصفاء التَّوحيد».

فمن تحقَّق بالتَّوحيد أدرك بركة العبوديَّة لله، ومن ضلَّ في توحيده ذهب عنه بركة العبوديَّة لله، إلَّا أن يُوفَّق لأسباب تصحيح اعتقاده.

قال أبو إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الأشاعرة والكلابيَّة**[٢]: «لا تكاد ترىٰ منهم رجلًا ورعًا، ولا للشَّريعة معظِّمًا، ولا للقرآن محترمًا، ولا للحديث موقِّرًا، وسُلبوا التَّقوىٰ ورقَّة وبركة التعبُّد، ووقار الخشوع».

وما تراه من خشوع المبتدعة فهو تكلُّف من فساد توحيدهم تشوبه شوائب الرِّياء، بينما خشوع الموحِّدين سكينة من الله، جعلها الله في قلوبهم لإخلاصهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «السكينة عند القيام بوظائف العبوديَّة، وهي التي تُورث الخضوع والخشوع وغضَّ الطَّرف وجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ، بحيث يؤدِّي عبوديَّته بقلبه وبدنه.

والخشوع نتيجة هذه السَّكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع

(١) الاستقامة؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٢٣).

(٢) ذم الكلام، بواسطة بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٤١٥).

(٣) إعلام الموقِّعين (٥/ ٨١).

القلب».

والإسلام حقيقته العبوديَّة لله بتقواه إخلاصًا له وحده لا شريك له وباتِّباع نبيِّه ﷺ، ففضائل وثواب الإسلام كُلُّها مرتَّبة علىٰ ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ﴾ [الشورىٰ: ٢٢، ٢٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا في القرآن كثير، مداره علىٰ ثلاث قواعد: إيمان، وتقوىٰ، وعمل خالص لله علىٰ موافقة السنَّة.

فأهل هذه الأصول الثلاثة هم أهل البشرىٰ دون مَنْ عَدَاهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها، وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلىٰ خلقه، وضدها يجتمع في الذين يراءون ويمنعون الماعون، وترجع إلىٰ خصلة واحدة، وهي موافقة الرب

(١) حادي الأرواح إلىٰ بلد الأفراح (٢/ ٨٢٥ ٨٢٦).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في محابِّه، ولا طريق إلىٰ ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ﷺ. وأما الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل؛ فهي: «**بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، وبين هاتين الشعبتين سائر الشُّعب التي مرجعها تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا؛ كالإيمان بأسماء الرب وصفاته وأفعاله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل».

والإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ باب [تفسير الإسلام] بالآية الدَّالَّة علىٰ حقيقته، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فالإسلام هو الاستسلام لله والانقياد والخضوع والتذلُّل والعبوديَّة له، وذكر الله إسلام الوجه؛ لأنَّه مستلزم لإسلام الجوارح وطاعتها.

وقال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال قدماء المفسِّرين في قوله تعالىٰ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ ﴾ أي: أخلص في دينه وعمله لله. وقال بعضهم: فوَّض أمره إلىٰ الله، وقد قيل: خضع وتواضع لله.

وهذا الثَّالث يليق بالإسلام اللَّازم؛ فإنَّ وجهه هو قصده، وتوجُّهه الَّذي

(١) الجامع لكلام ابن تيمية في التَّفسير (٥/ ١٠٠).

هو أصل عمله، وهو عمل قلبه الَّذي هو ملك بدنه، فإذا توجَّه قلبه تبعه أيضًا توجُّه وجهه، فاستتبع القصد الَّذي هو الأصل من القلب، الَّذي هو الأصل للعمل؛ الَّذي هو تبعٌ من الوجه وسائر البدن الَّذي هو تبعٌ، فيكون قد أسلم عمله الباطن والظَّاهر، وأعضاءه الباطنة والظَّاهرة لله؛ أي: سلَّمه له، وأخلصه لله».

فإسلام الوجه لله هو التَّوحيد لله، بالإقبال عليه والإعراض عن سواه، وإقامة الدِّين له خالصًا صوابًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «القلب إن لم يكن حَنِيفًا مُقبلًا علىٰ الله، معرضًا عَمَّا سواهُ؛ كَانَ مُشْركًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]».

فإسلام الوجه والجوارح لله، والانقياد له؛ هو التَّوحيد، وهو الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لفظ الإسلام يتضمَّن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص، من قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]. فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا: «لا إله إلا الله»، فمن

(١) العبوديَّة (ص١١٩).

(٢) اقتضاء الصِّراط المستقيم (ص٥٦٠).

استسلم لله ولغيره فهو مشرك، والله لا يغفر أن يُشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

فإقامة الوجه لله والخضوع والانقياد له؛ هو الإسلام، وهو الحنيفيَّة، وهو التَّوحيد، وهو حقيقة العبوديَّة لله والتألُّه له وحده لا شريك له.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إقامة الوجه للدِّين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقىٰ في القلب إرادة لغيره. والحنيف: المُفْرِدُ لمعبوده، لا يريدُ غيره؛ فالصِّدقُ أن لا ينقسم طلبك، والإخلاصُ أن لا ينقسم مطلوبك؛ الأول: توحيد الطلب، والثاني: توحيد المطلوب».

فالمسلم هو من استسلم لله، ورضي بالإسلام دينًا؛ فخضع لله تعبُّدًا وتألُّهًا ورقًّا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الإسلام دينٌ، و«الدِّين» مصدر: دَان يَدين دينًا: إذا خضع وذلَّ، و«دين الإسلام» الَّذي ارتضاه الله

(١) جلاء الأفهام (ص٣٩١).

(٢) الإيمان الكبير (ص٥١٥).

وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده؛ فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته دون ما سواه؛ فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا. والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبوديَّة له؛ هكذا قال أهل اللُّغة: أسلم الرَّجل، إذا استسلم؛ فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح».

وإسلام الوجه لله يكون بمعرفة شرعه، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر؛ ففي الصَّحيحين من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدِّين**»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فمن لم يفقِّهه في الدِّين ليس كذلك، والدِّين: ما بعث الله به رسوله ﷺ، وهو ما يجب علىٰ المرء تصديقه فيه والعمل به. وعلىٰ كلِّ أحدٍ أن يُصدِّق محمَّدًا ﷺ فيما أخبر به تصديقًا عامًّا، ويطيعه فيما أمر طاعةً عامَّةً، وإذا ثبت عنه خبرٌ كان عليه أن يصدِّق به تصديقًا مفصَّلًا، فإن كان مأمورًا فيه بأمر كان عليه أن يطيعه طاعةً مفصَّلةً».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «سمَّىٰ الله دينَه عبادة؛ لأنَّه يؤدىٰ بالذُّلِّ والخضوع، الصلاة عبادة تؤدَّىٰ بالذُّلِّ والخضوع، الصَّوم، الزَّكاة، الحجّ، الجهاد، كلُّه يؤدِّيه العبد بالذُّل لله والخضوع لله والانقياد لأمره.

وهكذا المنهيَّات يجب اجتنابها تعظيمًا لله وخضوعًا له، وذُلًّا بين يديه،

(١) شرح حديث جبريل (ص٥٩٨).

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٢٥٥، ٢٥٦).

وانكسارًا لعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا سمَّىٰ الله دينه عبادة؛ لأنَّ المكلَّفين يؤدُّون هذه العبادات بالذُّلِّ والانقياد والخضوع والانكسار، يرجون رحمته ويخشون عقابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا تقول العرب: طريق معبَّد؛ يعني: مُذلَّل قد وطئته الأقدام، ويقولون: بعير معبَّد. مُذلَّل قد رُحل وشُدّ؛ فالتكاليف عبادة كلّها، كلّها ذُلٌّ لله وخضوع لله، أصلها التَّوحيد: إخلاص العبادة لله.

وهكذا بقيَّة الأوامر والنَّواهي كلها عبادة، كلها ذُلٌّ لله وخضوع لله وانقياد لأمره، وترك لما نهىٰ عنه، نرجو ثوابه ونخشىٰ عقابه، لابُدَّ من هذا، أمَّا ترك الأوامر والنَّواهي رياءً أو فعل الأوامر رياءً؛ هذا ليس بعبادة، بل شرك، هكذا فِعْلُها عن غير محبَّة وعن غير تعظيم وإخلاص؛ لا ينفعه شيئًا، لابُدَّ أن تؤدِّيها عن ذُلٍّ لله وعن خضوع، وعن إخلاص لله، وعن محبَّة وتعظيم، يقول جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، ﴿ٱتَّقُواْ﴾ يعني: اتقوا غضبه وعقابه بطاعة الأوامر وترك النَّواهي، معنىٰ: ابتغوا الوسيلة؛ يعني: تقرَّبوا إليه بطاعته من صلاة وصوم وغير ذلك، ويقول جل وعلا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ يعني: قربة إليه بطاعته، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويقول جل وعلا في أنبيائه وأتباعهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، في الرَّغبة والرَّهبة، ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ يعني: خاضعين له سبحانه، منقادين لأمره، معظِّمين عن رغبة ورهبة؛ رغبة فيما عنده ورجاء، ورهبة ما عنده من العقاب وخوف وحذر.

هكذا المؤمن يعبد الله عن خوف ورجاء وإخلاص وصدق، يقول جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، لابُدَّ من صدق، تؤدِّيها بصدق بإخلاص برغبة ورهبة».

ومن أقوىٰ نصوص القرآن دلالةً علىٰ أنَّ الإسلام هو الاستسلام لله؛ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾، ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ فيها قراءتان: بفتح السِّين، وبكسرها، والمراد به الإسلام، وهو الاستسلام لله - تعالىٰ - ظاهرًا وباطنًا».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يعني: ادخلوا في الإسلام كلّه؛ أي: نفِّذوا أحكام الإسلام جميعًا، ولا تدَعُوا شيئًا من شعائره، ولا تفرِّطوا في شيء منها، وهذا مقتضىٰ الإيمان؛ فإنَّ مقتضىٰ الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام».

وبعد أن ذكر شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنىٰ الآية، قال في فوائدها[3]: «وجوب تطبيق الشَّرع جملة وتفصيلًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾».

فالإسلام الانقياد لحكم الله وشرعه بانشراح صدر، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، قال شيخنا العلامة

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٥).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٦).

(٣) تفسير سورة البقرة (٣/ ٧).

محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ من شرح الله صدره للإسلام - وأسأل الله تعالىٰ أن يجعلني وإيَّاكم منهم - يجد نَفْسه قابلًا لشرائع الإسلام مسرورًا بها، ويفرح إذا أدَّىٰ طاعة من طاعات الله، ويحزن إذا فعل معصية من معاصي الله تعالىٰ».

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الإسلام هو الانقياد، وهو الاستسلام لله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا، فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: استسلموا له واخضعوا لشرْعه، وهذا عمل الظاهر، وهو عمل الجوارح؛ فالإنابة بالقَلْب والإسلام بالجوارح».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لابُدَّ من الإسلام لله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا، فمن أسلم قلبه لله تعالىٰ لزم أن يُسلم جوارحه لله تعالىٰ؛ لقول النبيِّ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله**». ومن أسلم ظاهرًا لا باطنًا فإن إسلامه لا ينفعه كإسلام المنافقين، فالإسلام يكون في الباطن ويتبعه الإسلام في الظاهر».

والخلق كُلُّهم خاضع لأمر الله وحكمه الكوني، كذلك يجب أن تجري

(١) تفسير سورة الزمر (ص١٨٠).

(٢) تفسير سورة الزمر (ص ٣٨٧).

(٣) تفسير سورة الزمر (ص٣٨٨).

أحكام الله في خلقه، وأن يخضعوا له بالإسلام، فيُسلموا له، قال تعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: أيطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟! لا يحسن هذا ولا يليق؛ لأنه لا أحسن دينًا من دين الله، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾؛ أي: الخلق كلهم منقادون بتسخيره مستسلمون له طوعًا واختيارًا، وهم المؤمنون المسلمون المنقادون لعبادة ربهم، وكرهًا وهم سائر الخلق، حتىٰ الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويجازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل».

وبيان الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجمل دعوة الإسلام بقوله تعالىٰ: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ هو ما كان النبيُّ ﷺ يُجمل من معنىٰ دعوة الإسلام في دعوته الكافرين للإسلام، ففي الصَّحيحين من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ كتب لهرقل: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثم الأريسيين**، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٣١).

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ**»؛ في نهاية الاختصار، وغاية الإيجاز والبلاغة وجمع المعاني».

وقال الحافظ النَّووي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أمَّا قوله ﷺ: «**أدعوك بدعاية الإسلام**»؛ فهي بكسر الدَّال، وهي دعوة الإسلام؛ أي: آمرك بكلمة التَّوحيد، ووقعت هذه اللَّفظة في رواية لمسلم: «**بداعية الإسلام**»؛ أي: الكلمة الدَّاعية إلىٰ الإسلام».

وقال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «بهذه الآية العظيمة دعا رسول الله ﷺ قيصرَ ملكَ الرُّوم إلىٰ الإسلام، حين كتب إليه يقول: «**من محمَّد رسول الله إلىٰ قيصر عظيم الرُّوم: سلامٌ علىٰ من اتَّبَع الهُدَىٰ، أمَّا بَعْدُ: فإنِّي أدعوكَ بدعاية الإسلام، أَسْلِم تسْلَم، يُؤْتك الله أجرك مَرَّتَيْنِ، فإن تولَّيت فإنَّ عليك إِثْمَ الأريسيِّين**، و﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤]»».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «إنَّ دين الله الذي أنزل به كتبه، وبعث به رسله؛ ما تقدم من إرادة الله وحده بالعمل الصالح، وهذا هو

(١) التلخيص شرح الجامع الصَّحيح للبخاريِّ (١/ ٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) التلخيص شرح الجامع الصَّحيح للبخاريِّ (١/ ٤٢٧).

(٣) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٠٣).

(٤) الاستقامة (ص٥٠٧-٥١١).

الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد غيره، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

والإسلام يجمع معنيين:

أحدهما: الاستسلام والانقياد، فلا يكون متكبرًا.

والثاني: الإخلاص، من قوله تعالىٰ: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، فلا يكون مشركًا، وهو: أن يُسلم العبد لله ربِّ العالمين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

والإسلام يُستعمل لازمًا معدًّىٰ بحرف اللام، مثل ما ذُكر في هذه الآيات، ومثل قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]. ومثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]. ومثل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ

يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]. ومثل قوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢].

ويُستعمل متعدِّيًا مقرونًا بالإحسان، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢]. وقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]. فقد أنكر الله أن يكون دين أحسن من هذا الدين، وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان، وأخبر أنه كل ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾، أثبت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة؛ ردًّا لما زعم من زعمه أنَّه لا يدخل الجنة إلا متهوِّد أو متنصِّر.

وهذان الوصفان - وهما إسلام الوجه لله، والإحسان - هما الأصلان المتقدِّمَان، وهما: كون القول - والعمل - خالصًا لله، صوابًا: موافقًا للسنَّة والشريعة، وذلك أنَّ إسلام الوجه لله هو يتضمن إخلاص القصد والنية لله، كما قال بعضهم:

أستغفرُ الله ذنبًا لست مُحْصِيَهُ ربَّ العباد إليه الوجه والعمل

وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ: إسلام الوجه، وإقامة الوجه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. وتوجيه الوجه، كقول الخليل: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. وكذلك كان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته: **«وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين»**، وكان يقول إذا أوىٰ إلىٰ فراشه: **«اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجَّهت وجهي إليك»**، رواه البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح.

فالوجه يتناول المتوجِّه – بكسر الجيم – والمتوجَّه – بفتح الجيم – إليه، ويتناول التوجُّه نفسه، كما يُقال: أي وجه تريد؟ أي: أيّ جهة وناحية تقصد؟ وذلك أنهما متلازمان؛ فحيث توجَّه الإنسان توجَّه وجهُه، ووجهه مستلزم لتوجُّهه، وهذا في باطنه وظاهره جميعًا، فهي أربعة أمور، والباطن هو الأصل، والظاهر هو الكمال والشعار. فإذا توجَّه قلبه إلىٰ شيء تبعه وجهه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلىٰ الله؛ فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسنًا؛ فقد اجتمع له أن يكون عمله صالحًا، وأن يكون لله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. وهو قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهمَّ اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

والعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات، وهو ما أمر الله به، والذي أمر الله به هو الذي شرعه الله، وهو الموافق لكتاب الله وسنَّة رسوله، فقد أخبر الله تعالىٰ أنه من أخلص قصده لله وكان محسنًا في عمله؛ فإنَّه مستحقٌّ للثواب، سالم من العقاب».

وفي هذه الأبواب قصد الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ التَّأكيد علىٰ أنَّ الإسلام حقيقةً اعتقاد القلب وإيمانه بالله، المستلزم لعمل الجوارح خصوصًا أركان الإسلام، وهذا بيَّنه وأكَّده في هذا الباب بذكر حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحديثي بهز بن حكيم وأبي قلابة.

والنبيُّ ﷺ قال: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألَا وهي القلب»، متَّفق عليه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع، ولو كانت ما كانت، فلو تمزَّق القلب بالمحبة والخوف، ولم يتعبَّد بالأمر وظاهر الشرع؛ لم يُنجه ذلك من النار، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان؛ لم ينجه ذلك من النار».

وأدلَّة القرآن والسُّنَّة كلّها متعاضدة علىٰ هذا المعنىٰ، وأنَّ الجنَّة لا تُنال إلَّا بالعمل الموجب لدخولها، وأنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي ولا بالتحلِّي، ولكن بالإتيان بحقائقه، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذا الفوز يأتي بـ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا

(١) الفوائد (ص٢٠٧، ٢٠٨).

عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال النبيُّ ﷺ: «**من أطاعني دخل الجنَّة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد دلَّنا الله علىٰ ما يكون سببًا لدخول الجنَّة، وهو التَّوحيد والعمل الصَّالح؛ فهذا الذي إذا لقي به المسلم ربَّه دخل الجنَّة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال العلَّامة أبو زكريَّا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٥٥٠هـ)[1]: «الطَّاعة الانقياد لأمره، وحسنها اجتناب الرِّياء والشِّرك الخفيّ».

فالإنسان لا يمكن أن يكون مؤمنًا وهو متولٍّ عن أمر الله ونهيه، قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

قال مجاهد والشَّافعي وعبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم رحمهم الله[2]: يعني لا يُؤمر ولا يُنهىٰ.

وحديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع حديث أبي قلابة تضمَّنَا بيان معنىٰ الإسلام والإيمان؛ فالإيمان هو اعتقاد وقول القلب المتضمِّن عمله، والإسلام هو عمل الجوارح، يدلُّ لذلك حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال النبيُّ ﷺ: «**الإيمان: هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه، والإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسول الله، وتقيم**

(١) منازل الأئمَّة الأربعة (ص٩٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٦٣).

الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبوديَّة له، هكذا قال أهل اللُّغة: أسلم الرَّجل إذا استسلم؛ فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

وأمَّا الإيمان فأصله تصديقٌ وإقرارٌ ومعرفةٌ؛ فهو من باب قول القلب المتضمِّن عمل القلب، والأصل فيه التَّصديق، والعمل تابعٌ له؛ فلهذا فسَّر النَّبيُّ ﷺ «الإيمان» بإيمان القلب وبخضوعه، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وفسَّر «الإسلام» باستسلام مخصوصٍ، وهو المباني الخمس».

ومسمَّىٰ الإيمان والإسلام إذا اقترنا كان مسمَّىٰ كلِّ واحد ما دلَّ عليه حديث جبريل، إلَّا أنَّهما متلازمان؛ فلا يوجد أحدهما بدون الآخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إذا قيل: إنَّ الإسلام والإيمان التَّامَّ متلازمان؛ لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر، كالرُّوح والبدن؛ فلا يوجد عندنا روحٌ إلَّا مع البدن، ولا يوجد بدنٌ حيٌّ إلَّا مع الرُّوح، وليس أحدهما الآخر، فالإيمان كالرُّوح؛ فإنَّه قائمٌ بالرُّوح ومتَّصلٌ بالبدن، والإسلام كالبدن، ولا يكون البدن حيًّا إلَّا مع الرُّوح، بمعنىٰ أنَّهما متلازمان، لا أنَّ مسمَّىٰ أحدهما هو مسمَّىٰ الآخر».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٦٣).

(٢) الإيمان (ص٣٥٠، ٣٥١)، ط: المكتب الإسلامي.

وحديث أبي قلابة ذكره شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الإسلام، حيث ورد فيه أنَّ النبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: «**الإيمان**». قال: وما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت**»، رواه أحمد.

وهذا الحديث يشهد له ما رواه البخاري ومسلم في قول النَّبي ﷺ لوفد عبد القيس: «**آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدُّوا خُمس المغنم**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ففسَّر الإيمان هنا بما فسَّر به الإسلام؛ لأنَّه أراد بالشَّهادتين هنا أن يشهد بهما باطنًا وظاهرًا».

فدلَّ حديث وفد عبد القيس علىٰ أنَّ مسمَّىٰ الإيمان إذا أُطلق دخل فيه الإسلام، وهكذا الإسلام إذا أُطلق دخل فيه الإيمان، ودلَّ حديث جبريل علىٰ أنَّه إذا اقترن اسم الإيمان بالإسلام؛ كان الإيمان اعتقاد القلب وعلمه وعمله، وكان الإسلام هو الأعمال الظَّاهرة؛ فمسمَّىٰ الإيمان والإسلام تختلف دلالته بالإفراد والاقتران[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إذا قرن اسم الإيمان بالإسلام

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٤٣).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٤٢).

(٣) شرح حديث جبريل (ص ٤٨٢، ٤٨٣).

أو العمل؛ كان دالًّا علىٰ الباطن فقط، وإن أفرد اسم الإيمان فقد يتناول الباطن والظَّاهر، وبهذا تأتلف النُّصوص؛ فقوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»؛ أفرد لفظ الإيمان، فدخل فيه الباطن والظَّاهر.

وقوله ﷺ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**»؛ ذكره مع قوله ﷺ: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**».

فلمَّا قرنه باسم الإسلام ذكر ما يخصُّه، فالاسم في ذلك الحديث مجرَّد عن الاقتران، وفي هذا الحديث مقرونٌ باسم الإسلام. وكذلك اسم الإسلام إذا جُرد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ دخل فيه الباطن؛ فلو أتىٰ بالعمل الظَّاهر دون الباطن لم يكن ممَّن أتىٰ بالدِّين الَّذي هو عند الله الإسلام.

وأمَّا إذا قُرن الإسلام بالإيمان كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]؛ فقد يراد بالإسلام الأعمال الظَّاهرة».

وتنصيص النَّبي ﷺ علىٰ المباني الخمس في حديث جبريل وكذلك في

حديث الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي استدلَّ به الإمام محمد بن عبد الوهَّاب في هذا الباب لتفسير معنىٰ الإسلام إنَّما هو لأنَّها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، وبقيام العبد بها يتمُّ استسلامه، وتركه لها يُشعر بانحلال قيد انقياده، وما سوىٰ هذه الخمس فإنَّما يجب بأسباب المصالح، فلا يعم وجوبها جميع النَّاس[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «ذكر الخمس أنَّها هي الإسلام؛ لأنَّها هي العبادات المحضة الَّتي تجب لله تعالىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ مطيقٍ لها، وما سواها إمَّا واجبٌ علىٰ الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب، وإمَّا من حقوق النَّاس بعضهم علىٰ بعضٍ، وإن كان فيها قربةٌ ونحو ذلك. وتلك تابعةٌ لهذه كما قال ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، و«**أفضل الإسلام أن تُطعم الطعام، وتقرأ السلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف**»، ونحو ذلك؛ فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الإيمان».

وحديث بهز بن حكيم كسائر النُّصوص الكثيرة المتعاضدة علىٰ الأمر بالتَّوحيد، والأمر بالصَّلاة والزَّكاة؛ فمعاوية بن حيدة جد بهز سأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام، فقال له النبيُّ ﷺ: «**أن تُسلم قلبك لله، وأن تولِّي وجهك إلىٰ الله، وأن تصلِّي الصَّلاة المكتوبة، وتؤدِّي الزَّكاة المفروضة**»، رواه أحمد.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإسلام كلّه توحيد لله، وأداء حقّ الخالق وحقّ

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام (ص٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) الإيمان (ص٣٥١).

المخلوق، وهذا معنىٰ حديث بهز بن حكيم، وهو ما دلَّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وهذا منهج النبي ﷺ في تبيين الشَّرع وتعليمه لأمَّته، وهو حقيقة الدِّين كلّه؛ فالنَّبي ﷺ بعث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن، وقال له: «**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللَّيلة، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم، تُؤخذ من أغنيائهم فتردُّ إلىٰ فقرائهم، وإياك وكرائم أموالهم**»، متَّفق عليه من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فأمره بالدَّعوة للشَّهادتين وإقامتهما بأداء حقّ الله وأداء حقّ المخلوقين الذي أمر الله به. والنبيُّ ﷺ في آخر ما ودَّع به أمَّته حذَّرهم الشِّرك تحقيقًا للتَّوحيد، وقال: «**لعن الله اليهود والنَّصارىٰ؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» متَّفق عليه، وقال أيضًا ﷺ موصِّيًا أمَّته، وهو من آخر ما تكلَّم به: «**الصَّلاة الصَّلاة، وما ملكت أيمانكم**»، رواه البخاري في «الأدب المفرد» وصحَّحه الألباني؛ فكانت وصيَّته جامعة بالأمر بأداء حقّ الله وحقّ المخلوقين.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «الصَّالحون هم القائمون بما لله عليهم من الحقوق له ولخلقه».

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٣١).

وهكذا دعوة النبيِّين جميعًا عليهم الصَّلاة والسَّلام، بُعثوا بالدَّعوة للتَّوحيد وأداء حقّ الله وحقّ المخلوقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل للخيرات كُلِّها، من حقوق الله، وحقوق العباد.

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ﴾ هذا من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأنَّ من كمَّلهما كما أُمر؛ كان قائمًا بدينه، ومن ضيَّعهما؛ كان لما سواهما أضيع، ولأنَّ الصلاة أفضل الأعمال التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه».

فأداء حق الخالق وحقّ المخلوق هو الإسلام، وهو الذي يُدخل الجنَّة، والإخلال بهما هو الذي يُدخل النَّار، قال الله مبيِّنًا سبب دخول أهل النَّار النَّارَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٢-٤٨].

فعدم أداء حق الله بالكفر وترك الصَّلاة والتَّكذيب باليوم الآخر، وعدم أداء حق العباد بترك إطعام المسكين والخوض بالباطل؛ هذه موجبات دخول النَّار.

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٦١١).

والخوض بالباطل عام للخوض في حقّ الله وحقّ المخلوق؛ من أسباب دخول النَّار.

فالخوض الباطل في حقّ الله يكون بقول الشِّرك، والقول علىٰ الله بغير علم، وباللَّغو ونحوه، والخوض الباطل في حق المخلوق بسبّه وغيبته.

والمسلم يُعظِّم حقّ المخلوق لتعظيمه لله الذي أمر بالعدل ونهىٰ عن الظُّلم والعدوان، فتعظيم حق المخلوق من تعظيم الله الذي أمر به، وهذا ممَّا وعظنا الله به في القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من إجلال الله إكرام ذي الشَّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السُّلطان المقسط**»، رواه أبو داود والبخاري في الأدب المفرد[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «فجعل إكرام هؤلاء من جلال الله؛ أي: من إجلال الله».

---

(١) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده حسن»، التلخيص الحبير (٢/ ١١٨).

(٢) تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ١٧٤).

وقال عبد الله بن عون البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **- وهو من صغار التَّابعين -**[(١)]: «ثلاث أحبُّهن لنفسي ولإخواني: هذه السُّنَّة أن يتعلَّموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهَّموه ويسألوا النَّاس عنه، وَيَدَعُوا النَّاس إلَّا من خير».

وصفة المؤمن وعقيدته هي موالاة المؤمنين، لا أذيَّتهم والعدوان عليهم وظلمهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، قال شيخنا العلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «هكذا المؤمن وليُّ أخيه يُحب له الخير، ويكره له الشرّ، لا يظلمه لا في نفس، ولا في مال، ولا في عرض، لا يكذب عليه، لا يخونه في الأمانة، ولا يدَّعي عليه دعوىٰ باطلة، لا يغشّه في المعاملة، لا يغتابه، لا ينمُّ عليه، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾، المسلم أخو المسلم».

والإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر تفسير الإسلام بالآية الدَّالَّة علىٰ كل معانيه؛ ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهو الانقياد والخضوع لله، والسَّمع والطَّاعة له، وحديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذكر أركان الإسلام، عطف بذكر حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ

---

(١) ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وقد رواه أبو القاسم اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» من طريق القعنبي: سمعت حماد بن زيد قال ابن عون فذكره، فتح الباري (١٣/ ٢٥٢).

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٥٤١).

أنَّه قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»؛ تأكيدًا لبيان معنىٰ الإسلام وأنَّه القيام بحقوق الله وحقوق عباده.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشَّرائع مخلصًا له دينه، ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعًا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ.

أو: ومن يُسلم وجهه إلىٰ الله بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنَّه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

أو: ومن يُسلم وجهه إلىٰ الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلىٰ عباد الله، قائم بحقوقهم.

والمعاني متلازمة».

ثم قال العلامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]: أي: بالعروة التي من تمسَّك بها توثَّق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] أي: رجوعها وموئلها ومنتهاها؛ فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٨٨).

(٢، ٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٨٩).

ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر».

ونصوص الشَّريعة متعاضدة علىٰ تعظيم حقّ الله وحقّ عباده،

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا أمر بأداء حقِّ الله، وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ هذا أمر بأداء حقّ المخلوقين.

ففي الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**».

قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أفضل المسلمين من جمع إلىٰ أداء حقوق الله تعالىٰ أداء حقوق المسلمين، والكفّ عن أعراضهم، وأفضل المهاجرين من جمع إلىٰ هجران وطنه[2] هجران ما حرَّم الله».

وقال العلَّامة ابن بطَّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في دلالة الحديث**[3]: «المراد بهذا الحديث الحضّ علىٰ ترك أذىٰ المسلمين باللِّسان واليد والأذىٰ كلّه، ولهذا

---

(١) شرح السُّنَّة (١/ ٢٨).

(٢) إذا كانت بلاد كفر، كما هاجر الصَّحابة من مكَّة في أوَّل الإسلام عندما كانت بلاد كفر، وبعد فتح مكَّة صارت بلاد إسلام، وقال النبيُّ ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**».

(٣) شرح صحيح البخاري (١/ ٦٢).

قال الحسن البصري: الأبرار هم الذين لا يؤذون الذَّر والنَّمل».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ذكر في هذا الحديث كمالَ هذه الأسماء الجليلة، التي رتَّب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ عليها سعادة الدنيا والآخرة، وهي: الإسلام، والإيمان، والهجرة، والجهاد. وذكر حدودها بكلام جامع شامل، وأنَّ الْمُسلِمَ مَنْ سَلِمَ الْمُسلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ.

وذلك أن الإسلام الحقيقي: هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديته، والقيام بحقوقه وحقوق المسلمين. ولا يتم الإسلام حتىٰ يحبَّ للمسلمين ما يُحبُّ لنفسه، ولا يتحقَّق ذلك إلا بسلامتهم من شرِّ لسانه وشرِّ يدِهِ؛ فإنَّ هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين، فمن لم يسلموا من لسانه أو يده؛ كيف يكون قائمًا بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟! فسلامتُهم من شره القوليِّ والفعلي عنوان علىٰ كمال إسلامه.

وفسَّر المؤمن بأنه الذي يأمنه الناس علىٰ دمائهم وأموالهم؛ فإنَّ الإيمان إذا دار في القلب وامتلأ به؛ أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان، التي من أهمها: رعايةُ الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك؛ عرف الناس هذا منه، وأمنوه علىٰ دمائهم وأموالهم، ووثقوا به؛ لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات؛ فإنَّ رعاية الأمانة من أخصِّ واجبات الإيمان، كما قال ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»».

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص٣٤).

فاحذر من التَّهاون بشأن العدوان علىٰ الخلق وأذاهم؛ فإنَّ عامَّة عذاب القبر من الغيبة، رواه البخاري من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال تعالىٰ: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، ودخلت امرأة النَّار في هرَّة حبستها، لا هي التي أطعمتها ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قيل للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله! إنَّ فلانة تقوم اللَّيل وتصوم النَّهار، وتفعل، وتصّدّق، وتؤذي جيرانها. فقال رسول الله ﷺ: «**لا خير فيها، هي من أهل النَّار**»، قالوا: وفلانة تصلِّي المكتوبة، وتصدّق بأثوار، ولا تؤذي أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: «**هي من أهل الجنَّة**»(١).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإسلام: السِّرُّ والعلانية فيه مشتبهة، وأن تُسلِّم قلبك لله، وأن يَسْلَمَ منك كلُّ مسلم، وكلُّ ذي عهد».

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٤٠) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١١٩)، وصحَّحه العلَّامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في السِّلسلة الصَّحيحة (رقم ١٩٠).

الباب الرابع

باب قول اللّه تعالى:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

قال الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب! أنا الصلاة. فيقول: إنك علىٰ خير. ثم تجيء الصدقة فتقول: يا رب! أنا الصدقة. فيقول: إنك علىٰ خير. ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب! أنا الصيام. فيقول: إنك علىٰ خير. ثم تجيء الأعمال علىٰ ذلك، فيقول: إنك علىٰ خير. ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب! أنت السلام، وأنا الإسلام. فيقول: إنك علىٰ خير، بك اليوم آخذ، وبك أعطي. قال الله تعالىٰ في كتابه:** ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾». رواه أحمد.

وفي الصحيح عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» ورواه أحمد].

الشَّرْح:

هذا الباب تفصيل وتأكيد للباب الذي قبله باب تفسير الإسلام، فقد جمع الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب آية في وجوب لزوم الإسلام، وحديثًا في بيان أعمال الإسلام، وحديثًا في التَّحذير من البدع، فهذا الباب في بيان لزوم الإسلام والسُّنَّة.

وكرَّر الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان معنىٰ الإسلام لإقامته،

---

(١) فضل الإسلام (ص١٦، ١٧).

اتِّباعًا لطريقة القرآن في تكرير بيان المسائل العظيمة.

والأعمال الصَّالحة صفة أدائها مفتاحها العلم بها، فالعلم مفتاح للخير كلّه، وللطَّاعات والحسنات جميعها.

وبالعلم يُحقِّق المسلم توحيد الله، وهو أساس الدين وقوامه وأصله الذي تُبنىٰ عليه الأعمال والأقوال والدين كله.

قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فله الوحدانية في إلهيته، وله العدل، وله العزة، والحكمة، وهذه الأربعة إنَّما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السنة نَقَصَ الربَّ بعض حقه».

والعلم بالتوحيد وحقيقته وحقوقه هو الموجب للمسلم لإقامة الإسلام وتحقيق التوحيد وإقامة حقوقه والإتيان بأركانه ومبانيه.

قال العلامة المجدِّد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كل من عقل عن الله يعلم علمًا ضروريًّا أن المقصود من الشهادتين ما دلَّتا عليه من الحقيقة والمعنىٰ، وما اشتملتا عليه من العلم والعمل، وأما مجرَّد اللفظ من غير علم بمعناهما ولا اعتقاد لحقيقتهما؛ فهذا لا يفيد العبد شيئًا،

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٢/ ٣٩).

(٢) مصباح الظَّلام (ص١٦١).

ولا يخلِّصه من شعب الشرك وفروعه.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

فالإيمان بمعناهما والانقياد له لا يُتصور ولا يتحقق إلَّا بعد العلم».

وبالعلم والتعليم يُحفظ الدين، وتبيَّن شريعة الله للناس، وتُحفظ علوم السابقين الأولين وعقائدهم وأحكامهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لَوْلَا الْكِتَابَة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عَن بعض، ودرست السُّنَن، وتخبطت الأحكام، وَلم يعرف الْخلف مَذَاهِب السَّلف، وَكَانَ مُعظم الْخلَل الدَّاخِل علىٰ النَّاس فِي دينهم ودنياهم إنَّما يعتريهم من النسْيَان الَّذِي يمحو صور الْعلم من قُلُوبهم؛ فَجعل لَهُم الْكتاب وعَاءً حَافِظًا للْعلم من الضَّيَاع، كالأوعية الَّتِي تحفظ الأمتعة من الذَّهاب والبطلان».

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **عن النبيِّ** ﷺ **قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهَّلَ الله له به طريقًا إلىٰ الجنَّة»**، رواه مسلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ييسِّر الله لطالب العلم العمل بمقتضىٰ ذلك العلم، إذا قصد بتعلُّمه وجه الله؛ فيجعله الله سببًا

(١) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) مجموع مؤلَّفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ١٣).

لهدايته والانتفاع به والعمل به، وذلك من طرق الجنَّة الموصِّلة إليه».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يَعُدُّ سلوكه إلىٰ الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه، مبتغيًا به وجه الله.

فلا يزال كذلك عاكفًا علىٰ طريق العلم والتعليم حتىٰ يصل من تلك الطريق إلىٰ الله، ويُفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه، فيرجىٰ له الوصول إلىٰ مطلبه بعد مماته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حُكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن؛ أَنَّه رئي بعد موته، وأخبر أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلَّم في البرزخ؛ فإِنَّ العبد يموت علىٰ ما عاش عليه».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ العلم يدلُّ علىٰ الله من أقرب الطُّرق وأسهلها، فمن سلك طريقه ولم يعوجّ عنه؛ وصل إلىٰ الله وإلىٰ الجنَّة من أقرب الطُّرق وأسهلها، فتسهلت عليه الطُّرق الموصلة إلىٰ الجنَّة كلّها في الدُّنيا والآخرة.

ومن سلك طريقًا يظنُّه طريق الجنَّة بغير علم؛ فقد سلك أعسر الطُّرق وأشقَّها، ولا يوصل إلىٰ المقصود مع عسرة شديدة».

---

(١) طريق الهجرتين (ص١٧٨، ١٧٩).

(٢)مجموع مؤلَّفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ١٣).

وفي قوله ﷺ: «**تجيء الأعمال يوم القيامة**»، فيقول الله: «**إنَّك علىٰ خير**»؛ حثٌّ علىٰ التزوُّد ليوم القيامة بالأعمال الصَّالحة، قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وأنَّه من أدَّاها بشروط قبولها؛ فإنَّه يجد خيرها أحوج ما يكون إلىٰ كل حسنة في يوم المعاد.

فالسَّعيد الموفَّق من تزوَّد ليوم المعاد، وضرب من كل عبادة بسهم، وحقَّق العبوديَّة لله بتوحيده في طاعته.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شأن الموحِّد العابد**[1]: «جامع المنفذ السالك إلىٰ الله في كل وادٍ الواصل إليه من كل طريق؛ فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه؛ يؤمها أَين كانت ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأَين كانت العبودية وجدته هناك:

إِن كان علم وجدته مع أَهله، أَو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أَو صلاة وجدته في القانتين، أَو ذكر وجدته في الذاكرين، أَو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أَو محبة ومراقبة وإنابة إلىٰ الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أَنَّىٰ استقلت ركائبها، ويتوجَّه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أُريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها،

(١) طريق الهجرتين (ص١٧٩)، ط: الدَّار السَّلفيَّة.

مراقبًا له فيها، عاكفًا عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمت إليه المبيع منتظرًا منه تسليم الثمن؛ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يجيء الإسلام، فيقول: يا ربّ! أنت السَّلام وأنا الإسلام. فيقول: إنَّك علىٰ خير**»؛ فيه بيان كيف يشفع إسلام المسلم إلىٰ ربِّه باسم الله السَّلام، الذي هو ملجأ وملاذ وطمأنينة الموحِّدين في مقاماتهم كلّها الدُّنيويَّة والأخرويَّة، خصوصًا بعد البعث من القبور حيث تقوم القيامة وأهوالها عظيمة، فيطمئن الله عباده الموحِّدين بما كانوا يلازمونه من عقيدتهم بتوحيد الله خصوصًا في أسمائه وصفاته في الحياة الدُّنيا؛ فلا يخذل الله عبده المؤمن في هذا المقام العظيم، فيجازيه لإسلامه واستشفاعه إلىٰ ربِّه باسمه «**السَّلام**» بما يطمئنه ويؤمِّنهُ: «**إنَّك علىٰ خير**»، وهذا من معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

قال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله تعالىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ﴾، وفيه أقوال:

أحدها: أن معنىٰ «يلقونه» أي: يلقون الله تعالىٰ، والسَّلام من الله تعالىٰ لهم إثبات السَّلامة الأبدية والأمن من الآفات. وقيل: يُسلم الله عليهم تسليمًا.

والقول الثَّاني: أنَّ معنىٰ قوله: «يلقونه»؛ أي: ملك الموت عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد

(١) تفسير القرآن (٤/ ٢٩٣).

وردت الكناية عن غير مذكور في مواضع كثيرة من القرآن؛ قال البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما من مؤمن إلَّا ويُسلِّم عليه ملك الموت إذا أراد قبض روحه.

والقول الثَّالث: أن المراد منه تسليم الملائكة، ومعناه: أنهم إذا بُعثوا سلّم عليهم ملائكة الله وبشَّروهم بالجنَّة.

وَقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أَي: الْجَنَّة».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يجيء الإسلام فيقول: يا رب! أنت السَّلام وأنا الإسلام. فيقول: إنَّك علىٰ خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعطي**». معنىٰ «**بك آخذ، وبك أُعطي**»: أي أن الإسلام سبب صحَّة الأعمال وقبولها، فالتَّوحيد أساس الأعمال؛ فبه تُقبل كل الطَّاعات، وأنواع الخير، وأعمال البرِّ، وشُعب الإيمان، والمعروف كلّه. والكفر والشِّرك سبب ردّ الأعمال، وعدم قبولها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا مثل ضربه الله تعالىٰ لأعمال الكفَّار، الذين عبدوا مع الله غيره، وكذَّبوا رسله، وبنَوا أعمالهم علىٰ غير

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٧٣).

أساس صحيح؛ فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها».

وقال أيضًا[1]: «﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي: سعيُهم وعملهم علىٰ غير أساس ولا استقامة، حتىٰ فقدوا ثوابهم أحوجَ ما هم إليه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾».

وأعمال الخير التي يقوم بها الكفَّار والمشركون يوفون أجورها في دنياهم، بما ينالونه من الرِّزق والعافية وما يُمدُّ لهم في أعمارهم، أمَّا في الآخرة فهي هباء غير مقبولة عند الله، ولا تنفعهم؛ قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بطل ما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان».

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بشارة للمسلمين بثواب أعمالهم الصَّالحة؛ فأعمالهم تُحاج عنهم يوم الحساب، وتشفع لهم في حصول ثوابها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ الصَّلاة تجيء يوم القيامة، فتقول: «**يا**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٧٣).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص٣٩٥).

رب! أنا الصَّلاة. فيقول: إنّك علىٰ خير». هذا بعض ثواب عبوديَّة الله وطاعته، وهو ثواب أخروي، والحسنات ثوابها: دنيويّ، وبرزخي، وأُخروي.

ومن الثَّواب الدُّنيوي لعبوديَّة الله: قُرَّة العين به، وانشراح الصَّدر بذكره، والفرح به، وكفايته، وولايته، ونصره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لو لم يكن إلَّا ما يُجَازىٰ به المُحْسِنُ من: انشراح صدره، وانفساح قلبه، وسروره، ولذَّته بمعاملة ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وطاعته، وذكره، ونعيم روحه بمحبته وذكره، وفرحه بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظم ممَّا يفرح القريب من السُّلطان الكريم عليه بسلطانه».

وقال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

والذي يدلُّ علىٰ ثواب الحسنات في البرزخ: حديثُ أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة؛ فخيرٌ تقدِّمونها إليه، وإن تك غير ذلك؛ فشرٌّ تضعونه عن رقابكم**»، متَّفق عليه.

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «في هذا الحديث أيضًا: التنبيه علىٰ أسباب نعيم البرزخ وعذابه، وأن أسباب النعيم الصلاح؛ لقوله: «**فإن كانت صالحة**»، والصلاح: كلمة جامعة تحتوي علىٰ تصديق الله

(١) الوابل الصَّيِّب (ص١٠٨).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص١١١).

ورسوله ﷺ، وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ؛ فهو تصديق الخبر، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، وأن العذاب سببه الإخلال بالصلاح».

وفي الحديث: «تأتي الصَّلاة فتقول: يا رب! أنا الصَّلاة»، وهكذا الصِّيام والصَّدقة، معنىٰ ذلك: أنَّ أعمال المسلم تُحاجّ عنه إلىٰ الله.

وقد ورد في بعض النُّصوص أنَّ الأعمال الصَّالحة تُنصب للمؤمن يوم القيامة، فتُبشِّره بالجنَّة، وتُسكِّن من روعه من أهوال يوم القيامة؛ قال النبيَّ ﷺ: «**والَّذي نفس محمَّد بيده، إنَّ المعروف والمنكر لخليقتان، يُنصبان للنَّاس يوم القيامة؛ فأمَّا المعروف فيُبشِّر أصحابه ويوعدهم الخير، وأمَّا المنكر فيقول: إليكم إليكم. وما يستطيعون له إلَّا لزومًا**»، رواه أحمد والبزار.

قال الحافظ الطَّبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسَّرَ أهل العلم قوله ﷺ: «**خليقتان**»؛ يعني: ثوابهما»[1].

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أهل المعروف في الدُّنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدُّنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وإنَّ الله ليبعث المعروف يوم القيامة في صورة الرَّجل المسافر، فيأتي صاحبه إذا انشقَّ عنه قبره، فيمسح عن وجهه التُّراب ويقول: أبشر يا وليَّ الله بأمان الله وكرامته، لا يهولنَّكَ ما ترىٰ من أهوال يوم القيامة. فلا يزال يقول له: احذر هذا، واتَّق هذا. يسكِّنُ بذلك رَوْعَتَهُ حتىٰ يجاوز به الصِّراط،**

(١) الجواهر المجموعة (ص٢٠٧).

فإذا جاوز الصِّراط عدل وليُّ الله إلىٰ منازله في الجنَّة، ثم ينثني عنه المعروف، فيتعلَّقُ به فيقول: يا عبد الله! من أنت؟ خذلني الخلائق في أهوال القيامة غيرك، فمن أنت؟

فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا فيقول: أنا المعروف الذي عملته في الدُّنيا، بعثني الله خلقًا لأجازيك به في القيامة». رواه البزار والطَّبراني في «المعجم الصَّغير»، وصحَّحه العلَّامة الألباني[1].

ومشاقّ العبادات يُثاب عليها المسلم، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠]، وثواب هذه الحسنات الأمان والنَّعيم في البرزخ ويوم القيامة.

وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ للصَّدقة «**إنَّك علىٰ خير**»، بيان ما يدركه المسلم من خير الصَّدقة في الآخرة، وقد تعاضدت الأحاديث علىٰ هذا المعنىٰ.

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل امرئٍ في ظلّ صدقته حتىٰ يُفصل بين النَّاس**»؛ رواه أحمد، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبَّان والألباني.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السَّبعة الذين يظلّهم

---

(١) صحيح الجامع (٢/ ١٨٨ - رقم ٢٠٢٧).

الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: «**رجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه**».

والصَّدقة بركة علىٰ المُتصدِّق ومن أسباب حفظه، عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السّوء، وصدقة السِّر تُطفئ غضب الربّ، وصلة الرَّحم زيادة في العمر**»؛ رواه الطَّبراني في «المعجم الكبير»، وحسَّنه المنذري والهيثميّ، وصحَّحه الألبانيُّ.

والصَّدقة لا يلحقها نقص، فبذلها نماء للمال وبركة له، ومن أسباب حفظه، فمن بخل ربَّما سلَّط الله علىٰ ماله ما يُذهبه، والصَّدقة تزكيةٌ للنَّفس من الشُّحِّ والبخل، قال ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال**»، رواه مسلم.

والصَّدقة تأتي من حسن الظَّنّ بالله، قال الفضل بن سهل[1]: «رأيت جملةَ البخل سوءَ الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وجملة السَّخاء حسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]».

والصَّدقة إن كانت جارية؛ جرىٰ ثوابها للمتصدِّق إلىٰ يوم القيامة، كما روىٰ مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

---

(١) الجواهر المجموعة (ص١٢٩، ١٣٠).

وقول الله عَزَّوَجَلَّ للصِّيام «**إنَّك علىٰ خير**»، فيه بيان فضل الصِّيام، والصَّائم استوعب نهاره كلَّه بالصَّبر علىٰ هذه الطَّاعة بالإمساك عن الطَّعام والنِّكاح.

وقد تعاضدت النُّصوص علىٰ بيان فضيلة الصِّيام في شفاعته للصَّائمين، فقد روىٰ أحمد من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**الصِّيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصِّيام: أي رب! منعته الطَّعام والشَّهوات بالنَّهار فشفِّعني فيه. ويقول القرآن: رب منعته النَّوم باللَّيل فشفِّعني فيه. فيشفعان**».

وكما أنَّ الصَّوم يُحاجّ عن صاحبه، فإنَّ الله تكفَّل بثوابه موفورًا للصَّائمين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها، إلَّا الصَّوم فإنَّه لي وأنا أجزي به**»، رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والصَّائم يجازيه الله لإحسانه في عبادة الصِّيام في الدُّنيا بالإمساك عن الطَّعام بإكرامه بتناول أطعمة الجنَّة وثمارها، قال تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، قال مجاهد: أيَّام الصِّيام[1].

وقد وقع لبعض السلف ما كان بشارة له للخير الذي يأتيه ونذارة له عن الخير الذي فرَّط فيه، قال داود بن أبي هند: أصابني الطاعون زمن الطاعون فأُغمي عليَّ، فكأنَّ اثنين أتياني فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند

(١) رموز الكنوز (٨/ ٢٦١).

رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: أي شيء تجد؟ قال: أجد تسبيحًا وتكبيرًا وخطوًا إلىٰ المسجد وشيئًا من قراءة القرآن.

وفي رواية: فقال أحدهما للآخر: انظر. فأدخل يده في فمه، فقال: كم من خير تكلمت به، وقال للآخر: انظر. فنظر إلىٰ رجلي، فقال: كم من خير مشيت فيه، ثم قالا: لم يأن له. فقاما وارتفعا فبرئت، وأقبلت علىٰ القرآن فحفظته، ولم أكن أحفظه قبل ذلك[1].

وقوله ﷺ: «**تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك علىٰ خير. ثم تجيء الصدقة، ثم الصيام، ثم الأعمال**» الحديث، فيه دليل علىٰ أنَّ ثواب المسلم يوم القيامة بقدر أعماله، وأعمال المسلم هي شعب الإيمان كما دلَّ عليه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، متفق عليه.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «نصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلةً وكثرةً، وقوَّةً وضعفًا، وتكميلًا وضدَّه».

فشعب الإيمان جمعت التوحيد وحقوقه، وهو الدِّين كله، فالتحقق بالتوحيد هو القيام بشعب الإيمان، وأعظم المؤمنين إيمانًا أعظمهم قيامًا

(١) سِيَرُ السَّلف الصالحين (٣/ ٧٥٦).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (٣٥٠، ٣٥١).

بشعبه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الجهاد تحقيق كون المؤمن مؤمنًا».

وأعمال المسلم وإيمانه هو الذي يوجب له الأمان في الدنيا والبرزخ والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يونس: ٩]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا إخبار عن حال السُّعداء الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين، وامتثلوا ما أُمروا فعملوا الصَّالحات؛ بأنَّه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أن تكون الباء هاهنا سببيَّة؛ فتقديره: بسبب إيمانهم في الدُّنيا، يهديهم الله يوم القيامة علىٰ الصِّراط حتىٰ يجوزوه ويَخْلُصوا إلىٰ الجنَّة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ قال: يكون لهم نورًا يمشون به.

وقال ابن جريج في قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾، قال: يُمثَّل له عمله في صورة حسنةٍ وريح طيِّبة، إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويُبشِّره بكلِّ خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نورًا من بين يديه حتىٰ يُدخله الجنَّة؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾».

---

(١) جامع المسائل (٩/ ٣٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٩٤).

الباب الخامس

باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [النحل: ٨٩].

روىٰ النسائي وغيره عن النبيِّ ﷺ أنه رأىٰ في يد عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ورقةً من التوراة، فقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ يا ابن الخطاب؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسىٰ حيًّا واتبعتموه وتركتموني؛ ضللتم**»، وفي رواية: «**لو كان موسىٰ حيًّا ما وسعه إلا اتباعي**». فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا»].

الشَّرْح:

كتاب الله تبيان لكل شيء، قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فما من شيء يحتاج النَّاس إليه في معادهم ومعاشهم إلا بيَّنه الله تعالىٰ في كتابه؛ إمَّا نصًّا، وإمَّا إيماءً، وإمَّا منطوقًا، وإمَّا مفهومًا».

وإذا كان هذا وصفه فهذا يوجب علىٰ المؤمنين به الاستغناء به عن كل ما سواه، واتِّخاذه فُرقانًا يُعرف به الحقّ من الباطل، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنَّ القرآن اشتمل علىٰ كلِّ علم نافع،

---

(١) فضل الإسلام (ص١٨).

(٢) الإبداع في كمال الشَّرع وخطر الابتداع (ص٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٥٤).

من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحُكم كلِّ حلال وحرام، وما النَّاس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم.

﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾».

فالقرآن بيَّنه العليم الحكيم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، قال الحافظ الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يعني: هذا القرآن ذو بلاغ؛ أي: ذو بيان كافٍ، والبلاغة هي البيان الكافي».

وقال تعالىٰ في وصف القرآن: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يستبصرون به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول».

ثم قال[3]: «فمن آمن فهو ﴿هدًى﴾ له من الضلال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ له من الشقاء، فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه».

والله أكمل الدِّين واصطفاه لنا، وأتمَّ علينا النِّعمة به، ورضي لنا الإسلام

---

(١) شرح السُّنَّة (١/ ١٩٠).

(٢، ٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٢٣).

دينًا، وهذا يوجب علينا القيام به وإقامته، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «تأمل كيف وصف الدِّين الَّذي اختاره لهم بالكمال، والنعمة الَّتي أسبغها عليهم بالتمام، إيذانًا في الدّين بأنَّه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل، ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النِّعمة بالتمام إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إيَّاها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدَّار وفي دار القرار. وتأمل حسن اقتران التَّمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدّين، وإضافة الدّين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النِّعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم؛ فهي نعمته حقًّا، وهم قابلوها».

وكمال الشَّرع وتمامه وكفايته عرف الصَّحابة قدره، فأمروا بلزومه وحذَّروا من الابتداع فيه؛ قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «هذا الكتاب الذي هدىٰ الله به رسولكم، فخذوا به تهتدوا»[٢]، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبِعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم».

وقال أبو برزة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الله يغنيكم بالإسلام وبمحمَّد ﷺ»[٣].

---

(١) بدائع التَّفسير (٢/ ٩٩، ١٠٠).

(٢) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (رقم ٧٢٦٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة (رقم ٧٢٧١).

وقال الزُّهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الاعتصام بالسُّنَّة نجاة».

فالاستغناء بالكتاب والسُّنَّة والاعتصام بهما؛ هو عقيدة الموحِّدين، وهذا ما تحقَّق به العالمون بما في الكتاب والسُّنَّة من الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، أمَّا المتعالمون المبتدعون الضَّالُّون عميان البصيرة فيُرخِّصون في الردَّة عن الإسلام، ناهيك عمَّا هو دونه من أنواع البدع؛ قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩].

وكيف يُستغنىٰ عن القرآن واتِّباعه والاهتداء به والدَّعوة إلىٰ هداه، وهو الكتاب الذي عجزت الجنّ والإنس جميعًا عن الإتيان بمثله؟! قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

والعارفون بحقيقة القرآن والمؤمنون به قدّروه حقّ قدره، فاستكفوا به عن كل ما سواه.

قال يزيد بن حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخطب بالمدينة، وتلا هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٤]، فقال: نعم، والله أحلَّ فيه الحلال، وحرَّم فيه الحرام، وقصَّ فيه نبأ من كان قبلكم، وحديث ما بعدكم، وبيَّن ما تأتون وما تذرون، لم

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٢).

يدعكم في لبس من دينكم، ولا شبهة من أمركم، كرامة أكرمكم بها، ونعمة أنعم بها عليكم؛ فهو أوعظ الواعظين وأبلغ المؤدبين، ليس بمعدل[1].

وليس في إمكاننا أن نستغني عن القرآن، فليس هناك كتاب عدل له هداية وبلاغة ودلالة لكل خير، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠].

والعلماء الناصحون منهجهم الدعوة إلىٰ اتِّباع المرسلين، والاهتداء بوحي ربِّ العالمين، والاستغناء به عن ضلالات الأهواء والبدع، قال صاحب يس: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «نبَّه علىٰ موجب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولًا لمن لا ينبغي أن يُخالف ولا يُعصىٰ، وأنه علىٰ هداية. ونبه علىٰ انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رياسة؛ فموجب الاتباع كونه مهتديًا، والمانع منه منتفٍ، وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر».

وأكمل الخلق - صلوات الله وسلامه عليه - أخبر أنَّ هدايته سببها

---

(١) سير السَّلف الصَّالحين (٣/ ٨٤٧).

(٢) الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمُعطِّلة (٢/ ٤٩٤، ٤٩٥).

الوحي الذي أوحاه الله إليه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ [سبأ: ٥٠].

وكان النبيُّ ﷺ يعظ الصَّحابة يوم الجمعة، ويأمرهم بالتمسُّك والاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، والاستغناء بهما ويُحذِّر من البدع ومحدثات الأمور ويقول: «إن خير الهدي هدي محمَّد ﷺ»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمَّد؛ فكل من كان إلىٰ ذلك أقرب، وهو به أشبه؛ كان إلىٰ الكمال أقرب، وهو به أحق، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف؛ كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق.

والكامل هو من كان لله أطوع، وعلىٰ ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله، وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصَبَرَ علىٰ ما قدره وقضاه؛ كان أكمل وأفضل، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النَّقص بحسب ذلك».

ووعظ النبيُّ ﷺ صحابته في آخر أيَّامه موعظة بليغة، موعظة مودِّع؛ فأمر باتِّباع سنَّته وسُنَّة خلفائه الأربعة، وحذَّر من البدع، فقال: «**عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعدي، عضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإن كلَّ بدعة ضلالة**».

فالسُّنِّي راغب في سنَّة النبيّ ﷺ، والبدعي راغب عنها.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٣٤).

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كل مَا صَحَّ عَن رَسُول الله ﷺ من أَفعاله، وَأمره، وَنَهْيه؛ سنَن، وَأمر الله بالاقتداء بِرَسُولِهِ ﷺ فِيهَا، غير أَنَّ بَعْضهَا ألزم من بعض، وَبَعضهَا أيسر من بعض؛ قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وَقَالَ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]؛ فَهَذَا أَمر الله فِي اتِّبَاع رَسُوله ﷺ، وَاتِّبَاع سنته».

وعقد الإمام محمد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «أصول الإيمان» بابًا يؤكِّد معنىٰ هذا الباب من مصنّف «فضل الإسلام»، فقال[2]: [باب الوصية بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رسول الله ﷺ خطب، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال:

«أما بعد: ألا أيها النّاس فإنما أنا بشر، يوشك أن يأْتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلينِ؛ أوّلهما كتاب الله، فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب الله وتمسَّكوا به»، فحثَّ علىٰ كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: **«وأهل بيتي»**، وفي لفظٍ: **«كتاب الله هو حبل الله المتين؛ من اتّبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ الضلالة»**. رواه مسلم.

---

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب (٦/ ١٨٣).

وله في حديثِ جابرٍ الطويل أنه ﷺ قال في خطبة يوم عرفة: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به؛ كتاب الله، وأنتم تُسألون عني؛ فما أنتم قائلون؟**»، قالوا: نشهد أنك قد بَلَّغْتَ وأدَّيت ونصحت. قال - بإصبعه السبابة يرفعها إلىٰ السماء وينْكتها إلىٰ الناسِ -: «**اللَّهم اشهدْ**» ثلاث مرات].

والوصيَّة بالاعتصام بالكتاب والسُّنَّة بفهم السَّلف؛ حثَّ عليها الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه كُلِّها أو جُلِّها، وهو منهج التزمه في مصنَّفاته كلّها، فأسسها وبنىٰ محتواها علىٰ أدلَّة الكتاب والسُّنَّة بفهم السلف، ولأهميَّة هذا الموضوع - لأنَّه الأساس في تلقِّي الدِّين واعتقاده والأخذ به - عقد له البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا خاصًّا من صحيحه سمَّاه «كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة»، اشتمل من الأحاديث المرفوعة وما في حكمها علىٰ مائة وسبعة وعشرين، بما فيها المعلَّقات، ووافقه مسلم علىٰ تخريجها سوىٰ بضعة أحاديث[1].

وضمَّن البخاري كتاب «الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة» ستَّة عشر أثرًا عن السَّلف[2].

واتِّباع القرآن ولزوم صراط الله المستقيم؛ من أسباب هداية الخلق وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة، ومن أسباب تولِّي الله لهم نصرًا وحفظًا وتأييدًا، ومن أسباب دخول الجنَّة.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٤٤).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٤٤).

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ يعني: الطَّريق الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، من استقام عليه وصل به إلىٰ الجنة، من سار عليه وصل إلىٰ الجنَّة وإلىٰ مرضاة الربّ، وإلىٰ النَّظر إلىٰ وجهه الكريم يوم القيامة وهو في الجنَّة.

فهو مستقيم ليس فيه اعوجاج، وهو صراط المُنعم عليهم، وهو صراط الرُّسل، وأتباعهم هم المنعم عليهم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ يعني: بالتَّوفيق بالعلم والعمل بالهداية، هذا صراطهم، هما توحيد الله وطاعته واتِّباع شريعته، هو العلم النَّافع والعمل الصَّالح، هذا هو الصِّراط المستقيم، توحيد الله وطاعته واتِّباع شريعته، وتعظيم أمره ونهيه؛ هذا هو صراط الله المستقيم، وهو صراط المنعم عليهم الرُّسل وأتباعهم».

صراط الله والقرآن عدل وخير ورحمة وهداية، وثواب عاجل في الدُّنيا وآجل في الآخرة؛ قال العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا الصراط بعث الله نبيه ﷺ يدعو إليه، كما قال سبحانه في آخر الشُّورىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣]، هذا محمَّد ﷺ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورىٰ: ٥٢، ٥٣]، فالرُّوح

(١) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٤١٩).

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٤١٧، ٤١٨).

هو الوحي؛ القرآن والسُّنَّة، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾، يعني: علمًا، علم القرآن والسنَّة، سمَّاه الله روحًا؛ لأنَّه تحصل به الحياة الطيِّبة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ يعني: هذا الروح ﴿نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ وهو ما أنزله علىٰ نبيِّه ﷺ من القرآن والسُّنَّة، جعله الله روحًا تحصل به الحياة، ونورًا تحصل به البصيرة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾؛ فكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ روح ونور، وهذا هو الصِّراط المستقيم».

وكما أمرنا الله باتِّباع القرآن فقد نهانا الله عن التقدُّم بين يديه؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحجرات: ١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «علىٰ كلِّ مؤمنٍ أن لا يتكلَّم في شيءٍ من الدِّين إلَّا تبعًا لما جاء به الرَّسول ﷺ، ولا يتقدَّم بين يديه، بل ينظر ما قال؛ فيكون قوله تبعًا لقوله، وعمله تبعًا لأمره؛ فهكذا كان الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ومن سلك سبيلهم من التَّابعين لهم بإحسان، وأئمَّة المسلمين؛ فلهذا لم يكن فيهم من يعارض النُّصوص بمعقوله، ولا يؤسِّس دينًا غير ما جاء به الرَّسول ﷺ؛فمنه يتعلَّم، وبه يتكلَّم، وفيه ينظر ويتفكَّر، وبه يستدلُّ؛ فهذا أصل أهل السُّنَّة».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٦٢، ٦٣).

وقال العلَّامة ابن بطَّال المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا عصمة لأحد إلَّا: في كتاب الله، أو في سنَّة رسوله ﷺ، أو في إجماع العلماء علىٰ معنًىٰ في أحدهما».

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**من رغب عن سنَّتي فليس مني**»؛ متَّفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الرَّاغب عن سنَّته هو الذي يعدل عنها إلىٰ غيرها تفضيلًا لذلك الغير عليها، ولهذا تبرَّأ منه النبيُّ ﷺ».

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ المؤمن يأخذ دينه عن ربّه عَزَّوَجَلَّ، وإنَّ المنافق نصَّب رأيه فاتَّخذه دينًا».

ومن عدل عن الائتمام بالقرآن والاهتداء بهديه؛ تولَّاه الشَّيطان؛ فيصير إلىٰ زيغ الشَّيطان وضلاله في الاعتقاد والدَّعوة، فلا يزال به الشَّيطان يُخرجه من صغير البدع إلىٰ كبيرها حتىٰ يُخرجه إلىٰ الإلحاد، وهذا كما نشاهده في الدُّعاة المبتدعة الذين أخرجتهم بدعهم إلىٰ التَّرخيص في الردَّة عن الإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

قال الحافظ الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «قيل: معناه: من

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٤٦).

(٢) القرمانيَّة (ص٤٤، ٤٥).

(٣) مختصر الحجَّة علىٰ تارك المحجَّة (١/ ٢٤٨).

(٤) شرح السُّنَّة (١/ ١٩٠).

يُعْرِضْ عن ذكر القرآن وما فيه من الحِكم إلىٰ أقاويل المُضلِّين وأباطيلهم، نُعاقبه بشيطان نُقيِّضه له حتىٰ يُضلَّهُ ويُلازمه قرينًا له».

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشِّرك، لعلَّه إذا ردّ بعض قول النبيِّ ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزَّيغ فيهلك».

ومن أعرض عن القرآن وصراط الله المستقيم؛ فهو ضالّ، ومصيره إلىٰ النَّار، وحياته الدُّنيا عليه حسرة وضنك، بل هو ميِّت الرُّوح وإن كان حيًّا ببدنه.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال العلَّامة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الكافر ميِّت مظلم القلب، والمؤمن حيّ نيِّر القلب؛ فلا يستويان».

والأمر كما قال التَّابعي الجليل محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أسرع النَّاس ردَّةً أهل الأهواء»، فمن دعا إلىٰ خلاف أمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وأذن للبدع والضَّلالات، وأجاز مخالفة الشَّرع والسُّنَّة حتَّىٰ في المروق من الدِّين والردَّة عنه؛ فهذا يزيغ الله قلبه في الشِّرك والكفر.

---

(١) الإبداع في كمال الشَّرع وخطر الابتداع (ص١٥).

(٢) دروس وفتاوىٰ في المسجد الحرام (ص٤١٨).

وإذا ارتفع صراخ ناعقي الدَّعوة إلىٰ إباحة الردَّة؛ تلا المسلمون الموحِّدون بطمأنينة قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

الباب السادس

باب ما جاء في الخروج
عن دعوى الإسلام

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب ما جاء في الخروج عن دعوىٰ الإسلام، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

عن الحارث الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «**آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة. فإنّه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوىٰ الجاهلية؛ فإنه من جثىٰ جهنم**. فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلىٰ وصام؟ قال: **وإن صلىٰ وصام؛ فادعوا بدعوىٰ الله الذي سمَّاكم المسلمين والمؤمنين عباد الله**» رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي الصحيح: «**من فارق الجماعة قيد شبر، فمات؛ فميتته جاهلية**»، وفيه: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!**».

قال أبو العباس: «كل ما خرج عن دعوىٰ الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة؛ فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري: يا للمهاجرين! وقال الأنصاري: يا للأنصار! قال ﷺ: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!**»، وغضب لذلك غضبًا شديدًا». انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ].

الشَّرْح:

أمر الجماعة عظيم؛ لأنَّه بها تقوىٰ شوكة المسلمين، ويكون لهم شأن

(١) فضل الإسلام (ص١٩-٢٢).

في نصر الدِّين، والقيام بشرائعه وشعائره، وبه ينتظم أمر الرَّاعي والرعية؛ فتُحفظ السُّبل، ويأمن النَّاس، ويُحفظ دينهم، وتقوم دنياهم.

وحديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ فيه وعيد شديد لمن فارق الجماعة، حيث قال النَّبيُّ ﷺ: «**من فارق الجماعة قيد شبر؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع**»، قال التِّرمذي: حديث حسن صحيح، ويشهد له قول النَّبي ﷺ في الخوارج: «**يمرقون من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرميَّة**».

وحذَّر الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ من الخروج عن دعوىٰ الإسلام، وأمر بالانتساب والاعتزاء إلىٰ الإسلام، مستدلًّا بقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، وبزجر النبيِّ ﷺ عن دعوىٰ الجاهليَّة، وأمره بدعوىٰ الله الذي سمَّانا المسلمين، وفي هذا تحقيق لآصرة الأخوَّة في الإسلام التي توجب ائتلاف القلوب علىٰ أمر الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وهذا من آكد ما يجب من تحقيق التَّوحيد بالموالاة في الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «عقد الله سبحانه الموالاة بين المؤمنين، وجعل بعضهم أولياء بعض».

وكان النبيُّ ﷺ يغرس في نفوس الصَّحابة التَّربية علىٰ الولاء في الله، لا في الأنساب، ففي الصَّحيحين عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله

(١) إعلام الموقِّعين (٣/ ٤١٧).

ﷺ قال: «**إنَّ آل فلان ليسوا لي بأولياء، إنَّما وليِّيَ الله وصالح المؤمنين**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الفضل الحقيقي هو اتباع ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الإيمان والعلم باطنًا وظاهرًا، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل.

والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسُّنَّة؛ مثل: الإسلام، والإيمان، والبر، والتقوىٰ، والعلم، والعمل الصالح، والإحسان، ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربيًّا، أو عجميًّا، أو أسود، أو أبيض، ولا بكونه قرويًّا، أو بدويًّا».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أبو طالب إذا سُئل عن اسمه قال: عبد مناف. وإذا انتسب افتخر بالآباء، وإذا ذُكرت الأموال عَدَّ الإبل، وسلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا سُئل عن اسمه قال: عبد الله. وعن نسبه قال: ابن الإسلام. وعن ماله قال: الفقر. وعن حانوته قال: المسجد. وعن كسبه قال: الصبر. وعن لباسه قال: التقوىٰ والتواضع. وعن وساده قال: السهر. وعن فخره قال: «**سلمانُ مِنَّا**»، وعن قصده قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وعن سيره قال: إلىٰ الجنَّة. وعن دليله في الطريق قال: إمام الخلق وهادي الأئمة».

ومقامات خيار السَّلف في عقد الأخوَّة علىٰ آصرة الإسلام، والتَّباعد من أخلاق الجاهليَّة؛ عظيمة، تبعث علىٰ التأسِّي بهم.

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم (١/ ٤١٥).

(٢) الفوائد (ص٥٤).

حكيم بن حزام بن خويلد من أشراف قريش ووجوهها في الجاهليَّة والإسلام، باع دار النَّدوة من معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمائة ألف درهم، فقال له ابن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بعت مكرمة قريش. فقال حكيم: ذهبت المكارم إلَّا التَّقوىٰ[١].

وقال الحارث بن مسكين رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «ما زال في نفسي من الشَّافعي حتىٰ بلغني أنَّه سُئل عن الأكفاء، فقال: الأكفاء في الدِّين، ليس الأكفاء من الحسب في شيء. فعلمت أنّه لم يحوجه إلىٰ هذا إلا الدِّيانة، وهو رجل من قريش».

قال يحيىٰ بن معين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت خيرًا من أحمد بن حنبل قط، ما افتخر علينا قط بالعربيَّة ولا ذكرها»[٣].

وقال محمَّد بن الفضل: وضع أحمد بن حنبل عندي نفقته، فكان يجيء في كل يوم فيأخذ منها حاجته، فقلت له يومًا: يا أبا عبد الله! بلغني أنَّك من العرب. فقال: يا أبا النُّعمان، نحن قوم مساكين. فلم يزل يدافعني حتىٰ خرج، ولم يقل شيئًا[٤].

فالمسلم يعتزي بإسلامه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «الله تعالىٰ قد سمَّانا في القرآن

(١) الاستيعاب (ص٢٠٢).

(٢) مناقب الشَّافعي للبيهقي (٢/ ١٦٠، ١٦١).

(٣، ٤) مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٢٤١).

(٥) الوصية الكبرىٰ (ص٤٨).

المسلمين المؤمنين عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلىٰ أسماء أحدثها قوم وسمّوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كَيْفَ يَجُوزُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْأُمَّةِ بِأَسْمَاءٍ مُبْتَدَعَةٍ لَا أَصْلَ لَهَا فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ. وَهَذَا التَّفْرِيقُ الَّذِي حَصَلَ مِنَ الْأُمَّةِ، عُلَمَائِهَا وَمَشَايِخِهَا وَأُمَرَائِهَا وَكُبَرَائِهَا؛ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ تَسَلُّطَ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهَا. وَذَلِكَ بِتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَرَسُولِهِ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤]. فَمَتَىٰ تَرَكَ النَّاسُ بَعْضَ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَإِذَا تَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَسَدُوا وَهَلَكُوا، وَإِذَا اجْتَمَعُوا صَلَحُوا وَمَلَكُوا؛ فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةَ عَذَابٌ. وَجِمَاعُ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فَمِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ: الْأَمْرُ بالائتلاف وَالِاجْتِمَاعِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ».

والاعتزاء بعزاء الجاهليَّة من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة؛ يورث الأمَّة الفرقة والشَّحناء والبغضاء، والأُمَّة إذا تفرَّقت ضعفت وتسلَّط

(١) الوصية الكبرىٰ (ص٥٢).

عليها الأعداء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اتِّفاق الكلمة وعدم التَّنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوِّي به المتنازعون عدوَّهُم عليهم؛ فإنَّهم في اجتماعهم كالحزمة من السِّهام، لا يستطيع أحدٌ كسرها كلّها».

وقال أيضًا[2]: «إذا اجتمعت - الأمَّة - قوَّىٰ بعضها بعضًا، وصار لها أثرٌ عظيم في النَّصر، ولما اجتمعت في الصَّحابة؛ لم تقم لهم أمَّةٌ من الأمم، وفتحوا الدُّنيا، ودانت لهم العباد والبلاد، ولما تفرَّقت فيمن بعدهم وضَعُفَت؛ آل الأمر إلىٰ ما آل، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم، والله المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

والنبيُّ ﷺ في هجرته للمدينة أوَّل ما بدأ به بناء المسجد، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لأنَّ بأخوَّة الإسلام تأتلف القلوب، ويكون المسلمون متَّحدين، فيقوىٰ أمرهم علىٰ القيام بأمر الله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأعداء الإسلام شرُّهم معلوم بالقيام بالتَّحريش بين المسلمين؛ لتفريق كلمتهم وإضعاف قوَّتهم، وما أعظم شرّ عبد الله بن سبأ اليهوديّ علىٰ

(١، ٢) الفروسيَّة (ص٥٠٦).

الإسلام ودولته، فقد طاف أمصار الإسلام يُحرِّش علىٰ خليفة المسلمين عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتىٰ أطاعه طائفة قاموا بقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فتفرَّقت كلمة المسلمين، واستتبع ذلك حروب وقتال أضعف المسلمين، وأورثهم الاختلاف والنِّزاع الذي لا تزال تعيش الأمَّة في بقيَّة آثاره.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤]، قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ تفريق الأُمَّة سبب لفشلها وذُلِّها، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]، ومنه نعلم أنَّ الحكمة الإنجليزية المشهورة: «فَرِّقْ تَسُدْ»؛ أصلها فِرْعَوني؛ لأنَّ فرعون هو أوَّلُ من جعل أهل الأرض شيعًا حتىٰ يَسُودَ عليهم».

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، هذا عقد عقده الله بين المؤمنين؛ أنه إذا وُجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ فإنه أخ للمؤمنين، أخوَّة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبُّون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبيُّ ﷺ آمرًا بحقوق الأخوة

---

(١) تفسير سورة القصص (ص١٣).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٨٥٠، ٨٥١).

الإيمانيَّة: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبع أحدكم علىٰ بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المؤمن أخو المؤمن؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره**»، متَّفق عليه.

وقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا**»، وشبَّك بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم علىٰ بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرُّق القلوب وتباغضها وتدابرها؛ فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم.

ثم أمر بالتقوىٰ عمومًا، ورتَّب علىٰ القيام بحقوق المؤمنين وبتقوىٰ الله الرحمةَ فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وإذا حصلت الرحمة؛ حصل خير الدنيا والآخرة، ودلَّ ذلك علىٰ أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة».

فتقوىٰ الله والأخوة في الله؛ من أسباب تراحم المسلمين، قال النبيُّ ﷺ: «**مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم كمثل الجسد الواحد، إن اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسَّهر والحمىٰ**» متَّفق عليه.

وتحذير الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ وأئمَّة الإسلام كشيخي الإسلام ابن تيمية ومحمَّد بن عبد الوهَّاب - رحمهما الله - عن عزاء الجاهليَّة وحزبيَّة الأنساب، اتخذها محمد سرور زين العابدين منهجًا، وجعلها ذريعة لمفارقة

الجماعة؛ فشحناء الجاهلية اتخذها محمَّد سرور سببًا لمفارقة الجماعة.

فهذا الحقد السُّروري، والحسد القطبي، والضَّلال الدَّعوي بدعاوىٰ الجاهلية، يريد به محمَّد سرور تفريقَ الجماعة، وإفساد ذات بين الرَّاعي والرَّعيَّة، وزرع الضغائن بينهما؛ لتؤول الأمور إلىٰ جاهلية ما قبل الدَّولة السّعوديَّة؛ قبائل متفرِّقة متباغضة يقتل بعضهم بعضًا، ويسلب وينهب بعضهم بعضًا، وما يريده محمَّد سرور من دعاوىٰ الجاهليَّة إلَّا إفساد ذات بين الرَّاعي والرَّعيَّة؛ ليسهل له ولحزبه الوثوب علىٰ السُّلطة.

قال محمَّد سرور[1]: «لا أدري كيف تكون تابعيَّة: قحطان، ومطير، وعجمان، وعتيب، وغامد، وزهران، وسبيع، وشمر، وبني خالد، وغيرهم من القبائل العربيَّة المشهورة، نعم لا أدري كيف تكون تابعيَّتهم سعوديَّة وهم يرون أنَّهم أكثر أصالة وأرفع نسبًا من آل سعود؟!».

هذا السَّفه السُّروري سببه حنقه وحسده لنعمة الائتلاف السّعودي بين الشَّعب وولاته، والشَّعب السّعودي فخور بوطنه وولاته وهويَّته، بلد اصطفىٰ الله ولاته لولاية الحرمين ونصرة التَّوحيد، وتحكيم الشَّريعة، والقيام بفرض الكفاية في الدَّعوة إلىٰ الله؛ فالتَّسمية بالدَّولة السّعوديَّة نظير ما كان عليه أوَّل دول الملوك في الإسلام الدَّولة الأمويَّة والعباسيَّة؛ فالحسد والبغضاء والجهل والتَّعالم أضلَّ محمَّد سرور ضلالًا بعيدًا.

---

(١) مجلَّة السُّنَّة السُّروريَّة، العدد الثَّالث والأربعون، الافتتاحيَّة (ص٥).

ولم تنته جاهليَّة محمَّد سرور والقطبيِّين عند التَّحريش بدعاوىٰ الجاهليَّة لإفساد ذات بين الرَّاعي والرَّعيَّة، فقد استطالوا علىٰ أهل السُّنَّة الملازمين للجماعة، الذين لم يصانعوا القطبيين في حروريَّتهم وخروجهم بنبزهم بالألقاب، وتسميتهم بـ«الجاميَّة»، وما هذا العدوان إلَّا برهان إفلاسهم من محاجَّة أهل السُّنَّة والجماعة بالعلم والحقِّ والعدل.

وأهل السُّنَّة - ولله الحمد - لا يلينون لغامز، جهادهم العلميّ في ردِّ أنواع الباطل، خصوصًا المفارقين للجماعة؛ باعثُه صحيحُ اعتقادهم الخالص لله.

وأهل السُّنَّة - ولله الحمد - مستعينون بالله في جهادهم العلميّ، متوكِّلون عليه، قيامهم بنصرة الحقّ طاعةً لله من أسباب ظهور بطلان البدع بأنواعها، خصوصًا شرَّها بدع الرَّافضة والخوارج، ومن أسباب ظهور الحق ووضوحه.

وأهل السُّنَّة والجماعة - ولله الحمد - استعانتهم بالله، وتجريدهم الإخلاص في جهادهم العلمي، واتباعهم الحق ونصرته؛ من أسباب طمأنينتهم في جهادهم، والله يثبِّت أولياءه وينصرهم، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

ومن العلم الذي أوتيه علماء أهل السُّنَّة معرفتُهم بسنَّة الله بابتلاء الحقّ ودعاته بالمبطلين، ويعلمون أنَّه بالثبات والصَّبر في نصرة الحقّ وردّ الباطل تكون لهم العاقبة وحسن الثَّواب، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الحـق منصـور وممـتحن فـلا تعجـب فهـذي سـنة الـرَّحمن

فإذا عارض الحقَّ المبطلون ثبت المحقُّون في جهادهم، وجاهدوا بالحقّ والعلم والعدل، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ كلمة حقٍّ تغلب ألف كلمة باطل».

ولزوم علماء أهل السُّنَّة الجماعة إنَّما هو اعتقادهم الذي يدينون الله به، ولعلمهم بما في أمر الله من خير الدِّين والدُّنيا للمسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ولاية أمر النَّاس من أعظم واجبات الدِّين؛ بل لا قيام للدِّين ولا للدُّنيا إلَّا بها؛ فإنَّ بني آدم لا تتمُّ مصلحتهم إلَّا بالاجتماع؛ لحاجة بعضهم إلىٰ بعضٍ تعاونًا وتناصرًا، يتعاونون علىٰ جلب المنفعة، ويتناصرون لدفع المضرَّة، إذ الواحد منهم لا يقدر وحده علىٰ جلب جميع منافعه، ودفع جميع مضارِّه. ولا بدَّ لهم عند الاجتماع من رأسٍ، حتَّىٰ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم**». رواه أبو داود من حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وروىٰ الإمام أحمد في «المسند» عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا يحلُّ لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم**».

---

(١) تفسير سورة فُصِّلت (ص٣١، ٣٢).

(٢) السِّياسة الشَّرعيَّة (ص٢٣٢-٢٣٤).

فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السَّفر؛ تنبيهًا بذلك علىٰ سائر أنواع الاجتماع التي هي أكثر وأدْوَم، ولأنَّ الله تعالىٰ أوجب الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر، ولا يتمُّ ذلك إلَّا بقوَّة وإمارةٍ. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، وإقامة الحجِّ والجمع والأعياد، ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتمُّ إلَّا بالقوَّة والإمارة؛ ولهذا رُوي: «**إنَّ السلطان ظلُّ الله في الأرض**».

ويقال: «**ستون سنَة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان**». والتَّجربة تبيِّن ذلك؛ فإن الوقت والمكان الذي يُعدم فيه السُّلطان بموت أو قتل، ولم يقم غيره، أو تجري فيه فتنة بين طائفتين، أو يخرج أهله عن حكم سلطان، كبعض أهل البوادي والقرىٰ؛ يجري فيها من الفساد في الدِّين والدُّنيا، ويفقد فيه من مصالح الدُّنيا والدِّين ما لا يعلمه إلا الله.

ولهذا كان السَّلف - كالفضيل بن عياضٍ، وأحمد بن حنبلٍ، وسهل بن عبد الله التستري، وغيرهم -، يُعَظِّمون قدرَ نعمة الله به، ويرون الدُّعاء له ومناصحته من أعظم ما يتقرَّبون به إلىٰ الله تعالىٰ، مع عدم الطَّمع في ماله ورئاسته، ولا لخشية منه، ولا لمعاونته علىٰ الإثم والعدوان.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه أمركم».

وقال: «ثلاث لا يغلُّ عليهن قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم».

وهذان حديثان حسنان».

وهذا يدلُّ قطعًا علىٰ منزلة الجماعة في الدِّين، فلزومها من أسباب دخول الجنَّة، قال النبي ﷺ: «**من أراد بحبوحة الجنَّة فليلزم الجماعة**»، ومفارقة الجماعة مروق من الدِّين ومن أسباب دخول النَّار، كما دلَّ عليه حديث الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي استدلَّ به الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب وما في معناه من الأحاديث.

والمسلمون لا يتمكَّنون من إقامة آكد شرائع وشعائر الإسلام بدون الجماعة، فانظر إلىٰ الجهاد مثلًا، فهو ذروة سنام الإسلام، به تُحفظ ديار الإسلام ودينهم، وأراضيهم ودماؤهم، وأموالهم وأعراضهم وسيادتهم، لا يمكن أن يُقام إلا بجماعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]، وعندما نكل قوم موسىٰ عن الجهاد معه قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

وقال الفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبيِّنًا منزلة الجماعة في الإسلام: «**لا إسلام إلَّا بجماعة، ولا جماعة إلَّا بإمارة، ولا إمارة إلا بسمع وطاعة**».

فأساس الإسلام التَّوحيد، ولزوم الجماعة، ومناصحة ولاة المسلمين، روىٰ مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يرضىٰ لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله أمركم**».

وقوام الدِّين بالكتاب الهادي والسَّيف النَّاصر، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الدِّين لابُدَّ له من كتاب هادٍ وسيف ناصر**».

فلزوم الجماعة ينفي الغلّ من قلوب الرَّعيَّة، وبه تأتلف قلوب الرَّاعي والرَّعيَّة ويتراحمون، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لا يغلّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم**».

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: لا يبقىٰ فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة؛ بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه عنه؛ فإن القلب يغل علىٰ الشرك أعظم غل، وكذلك يغل علىٰ الغش، وعلىٰ خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة؛ فهذه الثلاثة تملؤه غلًّا ودَغَلًا، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنَّة».

فالخروج علىٰ ولاة المسلمين يكون سببًا لإراقة الدِّماء، وانقطاع السُّبل، واستباحة المحرَّمات، لذلك كان أمر الشَّرع بلزوم الجماعة؛ لحفظ دين المسلمين ودنياهم.

---

(١) مدارج السَّالكين (٢/ ٧٥)، ط: دار الحديث - القاهرة.

ومعاملة الولاة بالنَّصيحة، وترك شحن نفوس الرَّعيَّة بالغلّ للجماعة؛ هو ما أمر به الشَّرع لمصلحة الجماعة، فالجماعة تنفي الشَّحناء والفرقة، وبها تحصل الرَّحمة، وتُدرك الأمة البركة، وبالفرقة والشَّحناء تحصل العداوة والبغضاء ويقع الشقاء؛ لأنَّ الفرقة والبغضاء داعية الشِّقاق والنِّزاع والهرج والفوضىٰ والشَّرِّ بأنواعه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وعن النُّعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**الجماعة رحمة، والفرقة عذاب**». رواه أحمد، وصحَّحه العلَّامة الألباني.

وما أُلقيت العداوة والبغضاء والفرقة بين قوم إلَّا أورثتهم العدوان والشَّقاء.

فيذكرنا الله جميعًا بنعمة الجماعة والائتلاف، ويحذِّرنا من التَّفرُّق والعداوة والبغضاء والشَّحناء.

والبدع داعية الفرقة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والتحزب للفرق البدعية شرٌّ بجعل معقد الولاء في مخالفة السنة.

قال العلامة ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كل مُتَّسم بغير الإسلام والسُّنَّة مبتدع، كالرَّافضة، والجهميَّة، والخوارج، والقدريَّة، والمرجئة، والمعتزلة، والكراميَّة، والكلابية، ونظائرهم.

فهذه فرق الضَّلال وطوائف البدع، ـ أعاذنا الله منها ـ».

---

(١) لُمْعة الاعتقاد (ص ١٩٧)، المطبوع ضمن متون التوحيد والعقيدة، ط: دار الآثار، القاهرة.

والنُّصوص عن النبيِّ ﷺ كثيرة في الأمر بلزوم الجماعة؛ منها:

١- **حديث ابن عبَّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عن النبيِّ** ﷺ **قال:** «**من رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنَّه من فارق الجماعة شبرًا، فمات؛ إلَّا مات ميتة جاهليَّة**»، رواه البخاري ومسلم.

٢- **وعن عبد الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله إلَّا بإحدىٰ ثلاث: النَّفس بالنَّفس، والثيِّب الزَّاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة**»، رواه البخاري ومسلم.

٣- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ؛ أنَّه قال: «**من خرج من الطَّاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ مات ميتةً جاهليَّة**»، رواه مسلم.

٤- **وعن ابن عبَّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**يد الله مع الجماعة**»، رواه التِّرمذي وقال: حديث حسن غريب.

٥- وعن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بالجماعة، وإيَّاكم والفرقة؛ فإنَّ الشَّيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنَّة فليلزم الجماعة**»، رواه التِّرمذيُّ وقال: حديث حسن صحيح.

قال العلَّامة أبو القاسم إسماعيل بن محمد الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قال أهل اللُّغة: بحبوحة الجنَّة: وسطها».

---

(١) الحُجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٢٩٩).

٦- وفي الصَّحيحين من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه قال لرسول الله ﷺ: «إنَّا كنا في جاهليَّة وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟».

قال: نعم.

قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: نعم، وفيه دخن.

قلت: وما دخنه؟

قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر.

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟

قال: نعم، دعاة علىٰ أبواب جهنَّم، من أجابهم إليها قذفوه فيها.

قلت: يا رسول الله! صفهم لنا.

قال: هم من جلدتنا، ويتكلَّمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: فاعتزل تلك الفرق كلّها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتىٰ يُدركك الموت وأنت علىٰ ذلك».

والمهم في هذا الأصل العظيم؛ معرفة معنىٰ «الجماعة»، والجماعة هي:

١- جماعة العلماء؛ لأنَّ الله جعلهم حجَّة علىٰ الخلق، ولأنَّ الهدىٰ ودين الحقّ الذي بعث الله به رسله معهم[١]، والنَّاس تبع لهم في أمر الدِّين[٢]، وهذا ما ذهب إليه البخاري في «صحيحه»، كتاب الاعتصام، باب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وما أمر النبيُّ ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم[٣].

قال أبو محمَّد البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «تفسير الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم، وسُئل ابن المبارك عن الجماعة فقال: أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. فقيل له: قد مات أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. قال: ففلان وفلان. قيل: قد مات فلان وفلان. قال ابن المبارك: أبو حمزة السُّكَّري جماعة».

وابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مرجعًا ومن أكابر علماء المسلمين في طبقته، تواضع ولم يذكر نفسه، وقد كان من خيرة علماء طبقته، ومن قال لابن المبارك: مات أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، لم يرد قطع الخلف عن السَّلف، وإنَّما أراد أنَّ علم السَّلف متوارث ، وسأل عمَّن أخذ به من علماء وقته. ومنهج أهل السُّنَّة في هذا الأصل العظيم واضح يستدلُّون بسلفيَّة المتأخِّرين بموافقة جماعة علماء السَّابقين الأوَّلين؛ فعلم الصدِّيق والفاروق وذي

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٩٧).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣١٧).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٣١٦).

(٤) شرح السُّنَّة (١/ ٢١٦).

النُّورين وأبي تراب وسائر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يمت، حفظته الأمَّة وأدَّته إلينا، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصول السُّنَّة عندنا التمسُّك بما كان عليه أصحاب النبيُّ ﷺ».

٢- والجماعة: هم جماعة المسلمين الذين في طاعة أميرهم، الحاكم المسلم الذي له شوكة وقدرة يسوس بها البلاد والعباد، قال الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الذين في طاعة من اجتمعوا علىٰ تأميره». ويدلُّ لهذا القول حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**من رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه**».

٣- الملازمون لمذهب الصَّحابة أهل السُّنَّة والجماعة، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك»[٢].

فمقصود ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسَّره كلامه المعهود في هذا التأصيل حيث قال في محاجَّته للمبتدعين المتحلِّقين للذكر بطريقة بدعيَّة: «إنَّكم علىٰ ملَّة هي أهدىٰ من ملَّة محمَّد أو مفتتحو باب ضلالة»، وكذلك قال: «لا يزال النَّاس بخير ما كان العلم في أكابرهم، فإذا صار العلم في أصاغرهم فذلك حين هلكوا».

فمقصود قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك»؛ يعني: وإن كنت وحدك في وقتك وطبقتك ما دمت موافقًا للسَّابقين الأوَّلين؛ لأنَّ الحقَّ في موافقة السَّابقين الأوَّلين لا في مخالفتهم،

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٧).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ١٢٢ - رقم ١٦٠).

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، ويدلّ لذلك أنَّ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عندما روىٰ حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حديث: «لا اعتكاف إلَّا في ثلاثة مساجد»؛ راجعه ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لتفرُّده بذلك عن عموم الصَّحابة، وقال له: «لعلَّك أخطأت وأصابوا، ونسيت وحفظوا». وقال عبيدة السَّلماني لعليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «قولك في الجماعة أحبُّ إلينا من قولك وحدك».

قال أبو شامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة؛ فالمراد به لزوم الحق واتِّباعه، وإن كان المتمسِّك به قليلًا والمخالف كثيرًا؛ لأنَّه الحقّ الذي كانت عليه الجماعة الأولىٰ من النبيّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولا نظر إلىٰ كثرة الباطل بعدهم».

فالحق يُعرف بعرضه علىٰ فهم السابقين الأولين الذين تلقوا الدين والعلم عن رسول الله ﷺ مباشرة، ومخالفتهم هي الضلال المبين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

قال العلامة عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٢٨٠ هـ)**[2]: «إنَّه لا يُستدرك سنن رسول الله ﷺ وأصحابه وأحكامهم وقضاياهم إلا بهذه الآثار

(١) الباعث علىٰ إنكار البدع والحوادث (ص٢٢).

(٢) الرَّدُّ علىٰ الجهمية (ص٦٣).

والأسانيد علىٰ ما فيها من الاختلاف[1]، وهي السبب إلىٰ ذلك، والنهج الذي درج عليه المسلمون، وكانت إمامهم في دينهم بعد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، منها يقتبسون العلم، وبها يقضون، وبها يقيمون، وعليها يعتمدون، وبها يتزينون، يُورِّثها الأول منهم الآخر، ويُبلِّغها الشاهد منهم الغائب احتجاجًا بها، واحتسابًا في أدائها إلىٰ من لم يسمعها، يسمونها السنن والآثار والفقه والعلم، ويضربون في طلبها شرق الأرض وغربها، يحلون بها حلال الله، ويحرمون بها حرامه، ويُميِّزون بها بين الحق والباطل، والسنن والبدع، ويستدلون بها علىٰ تفسير القرآن ومعانيه وأحكامه، ويعرفون بها ضلالة من ضلَّ عن الهدىٰ؛ فمن رغب عنها فإنَّما يرغب عن آثار السلف وهديهم، ويريد مخالفتهم ليتخذ دينه هواه، وليتأول كتاب الله برأيه خلاف ما عنىٰ الله به.

فإن كنتم من المؤمنين، وعلىٰ منهاج أسلافهم؛ فاقتبسوا العلم من آثارهم، واقتبسوا الهدىٰ في سبيله، وارضوا بهذه الآثار إمامًا، كما رضي بها القوم لأنفسهم إمامًا، فلعمري ما أنتم أعلم بكتاب الله منهم، ولا مثلهم، ولا يمكن الاقتداء بهم إلا باتباع هذه الآثار».

وفي قول النَّبي ﷺ لحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، توضيح لمعنىٰ الجماعة الذي بيَّنه الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذين في طاعة من اجتمعوا علىٰ تأميره»، فوليّ الأمر هو الحاكم المسلم الذي له شوكة وقدرة يسوس بها البلاد.

---

(١) روايات الآثار لا بُدَّ من تمييز صحيحها من ضعيفها بدراسة أسانيدها ومتونها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يصير الرجل إمامًا حتىٰ يوافقه أهل الشوكة عليها، الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان، فإذا بُويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان؛ صار إمامًا. ولهذا قال أئمة السلف: من صار له قدرة وسلطان يفعل بهما مقصود الولاية؛ فهو من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم، ما لم يأمروا بمعصية الله. فالإمامة ملك وسلطان، والملك لا يصير ملكًا بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم، بحيث يصير ملكًا بذلك، وهكذا كل أمر يفتقر إلىٰ المعاونة عليه، لا يحصل إلا بحصول من يمكنهم التعاون عليه».

فوليُّ الأمر الذي له القدرة والسُّلطان، وتمَّت بيعته بموافقة أهل الحلِّ والعقد؛ اجتماع الرَّعيَّة علىٰ السَّمع له والطَّاعة بالمعروف؛ هو الذي به تأتلف الجماعة.

قال الحافظ ابن عبد البرّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المقصود الجماعة علىٰ إمام يُسمع له ويُطاع».

وقال العلَّامة المجدِّد محمَّد ناصر الدِّين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ السِّياسة معناها: إدارة شئون الأُمَّة، فمن الذي يدير شؤون الأُمَّة؟

---

(١) منهاج السُّنَّة (١/ ٥٢٧).

(٢) التَّمهيد (٢١/ ٢٧٢).

(٣) التَّوحيد أوَّلًا (ص٣٧).

الجواب: ليس زيدًا، ولا بكرًا، ولا عمرًا، ممَّن يؤسِّس حزبًا، أو يترأس حركةً، أو يوجِّه جماعة!!

هذا الأمر خاصٌّ بوليّ الأمر الذي يُبايع من قِبل المسلمين».

وفهم معنىٰ «الجماعة» بفهم الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يؤكِّد المعنىٰ الذي ذكره الطَّبري وابن عبد البرِّ رحمهما الله، قال العلَّامة محمَّد بن إسماعيل الصَّنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «من تأمَّل ما أسلفناه من الأحاديث كحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: «عليكم بطاعة الله والجماعة»، يريد بها عدم التفرُّق والاختلاف في الإمارة؛ لأنَّه خطب بذلك أيَّام أصحاب الجمل.

ومثله قول ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في جواب من سأل**: هل نمنع الظَّلمة ما يأخذون من الواجب منه؟ فقال: «لا، أعطهم، ثم قال: «الجماعة الجماعة»».

ويؤيِّد معنىٰ كلام الصَّنعاني من فهم السَّلف تسمية من بقي من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتَّابعين - رحمهم الله - اجتماعَ الكلمة علىٰ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد الصُّلح مع الحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعام الجماعة.

وهكذا كان فهم علماء الصَّحابة وآل البيت بعد بيعة النَّاس كلّهم ليزيد بن معاوية، فقد لقي ابن عمر وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الحسين وابن الزُّبير، فسألاهما: ما وراءكما؟ فقالا: موت معاوية وبيعة يزيد. فقال ابن عمر

(١) الإشاعة في بيان من نُهي عن فراقه من الجماعة (ص٤٤، ٤٥).

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لا تُفرِّقا جماعة المسلمين[١].

وهكذا كان موقف عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مع ابن مطيع ومن كان معه في الحَرَّة ممَّن فارق الجماعة، قال نافع: جاء عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلىٰ عبد الله بن مطيع، حين كان من أمر الحَرَّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرَّحمن وسادة. فقال: إنِّي لم آتك لأجلس، أتيتك لأحَدِّثك حديثًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من خلع يدًا من طاعة؛ لقي الله يوم القيامة لا حُجَّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتةً جاهليَّة**»، رواه مسلم.

فالمقصود أن نعرف الجماعة بمفهومها الشَّرعيّ الذي دلَّت عليه نصوص القرآن والسُّنَّة؛ حتَّىٰ لا يغالط الحزبيُّون الذين ضلُّوا وأضلُّوا النَّاس في مفهوم هذا الأصل العظيم من العقيدة والمنهج، قال الحافظ ابن عبد البرّ رَحِمَهُٱللَّهُ[٢]: «المقصود الجماعة علىٰ إمام يُسمع له ويُطاع».

وأحزاب الإسلام السِّياسي اتَّخذوا لهم أميرًا، وجهدوا أنفسهم في حشد النَّاس للاجتماع علىٰ طاعته والسَّمع له، وهذه مغالطة حزبيَّة، فالحزبيُّون ليسوا ولاة أمر، وليس لهم حقّ في السَّمع والطَّاعة، ولا يجوز لأحد مبايعتهم ولا إعطاؤهم العهد علىٰ ذلك؛ فإنَّ هذا من مفارقة الجماعة.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ معلِّقًا علىٰ حديث: «من

---

(١) الكامل في التَّاريخ (ص٥٠١).

(٢) التَّمهيد (٢١/ ٢٧٢).

فارق الجماعة قيد شبر، فمات؛ فميتته جاهليَّة»[1]: «دلَّ هذا علىٰ أنَّ الجماعة هي الاجتماع علىٰ السُّلطان، وعدم التفرُّق عليه، ولا شكَّ أنَّ الاجتماع علىٰ السلطان وعلىٰ ولي الأمر، وعدم التفرق عليه؛ يجعل الأمة أمة واحدة، فإذا تفرَّقوا عليه، وصار لكل قبيلة زعيم يدبِّرهم ويوجِّههم؛ تفرَّقت الأمَّة، وبهذا نعرف خطأ ما يكون من بعض الإخوة حيث يبايعون واحدًا منهم علىٰ السَّمع والطَّاعة، فيجعلونه كالأمير المطاع؛ فإنَّ هذا بدعة في دين الله من جهة، ونوع من الخروج عن سلطة السُّلطان من جهة أخرىٰ. صحيح أنَّ النبيّ ﷺ قال فيمن خرجوا في سفر: **إذا كانوا ثلاثة فليؤمِّروا أحدهم، يدبِّرهم في سفرهم**. ولكن هذه إمارة خاصَّة في عمل خاصّ؛ لأنَّهم إذا لم يؤمِّروا أحدًا منهم يدبِّرهم في سفرهم عند الرَّحيل وعند النُّزول، وعند المكث طويلًا أو قصيرًا؛ اختل أمرهم، أمَّا أن نبايع شخصًا علىٰ أنَّه أمير حاضرًا أم غائبًا، وأنَّه يُطاع كما يُطاع السُّلطان؛ فهذا لا يجوز، هذا بدعة، حتَّىٰ في المسائل الدِّينيَّة».

وتلقِّي الدِّين عن الصَّحابة وأخذه بفهمهم يورث الأمَّة الاتِّفاق علىٰ الحقّ، الذي أمر الله به في قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومتىٰ اعتصمت الأمَّة بكتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، واجتمعت علىٰ

(١) شرح صحيح البخاري (٧/ ٥٤١، ٥٤٢)، ط: مكتبة الطَّبري - مصر.

ذلك، ولم تختلف ولم تتفرَّق؛ هُديت ونُصرت، وأحاطتها بركة الله؛ فإنَّها من وراء الجماعة.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

والأمر بالاجتماع والنَّهي عن الافتراق حفظ للجماعة، ومن أسباب قوَّتها، وهو عامٌّ لأمري الدِّين والدُّنيا، ولذلك عندما بَعَث النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل وأبا موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلىٰ اليمن أوصاهما وقال لهما: «**تطاوعا ولا تختلفا**»، رواه البخاري.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن في اجتماع المسلمين علىٰ دينهم، وائتلاف قلوبهم؛ يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكَّنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف علىٰ الائتلاف ما لا يمكن عدُّها، من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعىٰ في شهوة نفسه، ولو أدَّىٰ إلىٰ الضرر العام».

وكان ولا يزال أعداء الإسلام حريصين علىٰ تفريق كلمة المسلمين، والتَّحريش بينهم بأسباب الشَّحناء؛ ليُلقوا بينهم العداوة والبغضاء؛ فتختلف كلمتهم وتضعف قوَّتهم، وربَّما يكون بأسهم بينهم شديدًا.

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: كان بين الأوس والخزرج حرب وشنآن ودماء،

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن (ص١٣٦).

(٢) العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٧٢٤، ٧٢٥).

حتَّىٰ منَّ الله عليهم بالإسلام وبالنبيِّ ﷺ، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وألَّف بين قلوبهم، فبينا رجل من الأوس ورجل من الخزرج يتحدَّثان ومعهما يهوديّ جالس، فذكَّرهما أيَّامهما حتىٰ استبَّا ثم انفتلا، فنادىٰ هذا قومه وهذا قومه فخرجوا بالسِّلاح، وصفُّوا للقتال ورسول الله ﷺ شاهد بالمدينة يومئذ، فجاء فلم يزل يمشي بينهم ليسكتهم حتىٰ رجعوا ووضعوا السِّلاح، وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]؛ رواه عبد الرزَّاق.

وفي حديث الحارث الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**آمركم بخمس:...، والهجرة**»، بيان لحكم الهجرة، وفقه الهجرة يتبيَّن حكمه بمعرفة أنواعه.

والهجرة أنواع، منها[1]:

١- الهجرة من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام؛ ليحفظ المسلم دينه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقال النبيّ ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله؛ فهجرته إلىٰ الله ورسوله**»، متَّفق عليه.

٢- الهجرة من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: لا

(١) أحكام القرآن للقاضي أبي بكر ابن العربي (١/ ٤٨٤-٤٨٦).

يحلّ لأحد أن يقيم ببلد يسبّ فيها السَّلف.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٣- الهجرة من أرض المعصية، فقد قال أعلم من في الأرض للذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا: اخرج من أرضك؛ فإنَّها أرض سوء.

٤- الهجرة من أرض الوباء، فقد أذن النبيُّ ﷺ للعُرَنِيِّين في الخروج إلىٰ إبل الصَّدقة للعلاج.

ومن أعظم أنواع الهجرة وأهمّها وأوجبها، وهي الأساس لجميع أنواع الهجرة؛ هجرة القلب لله قصدًا وتألُّهًا.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الهجرة إلىٰ الله ورسوله ﷺ، فإنها فرض عين علىٰ كل أحد في كل وقت، وأنه لا انفكاك لأحد عن وجوبها، وهي مطلوب الله ومراده من العباد؛ إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلىٰ بلد، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: هجرة بالقلب إلىٰ الله ورسوله ﷺ، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها.

---

(١) الرِّسالة التَّبوكيَّة (ص١٥، ١٦)، ضمن مجموع الرَّسائل (٤-٧).

وهي هجرة «من» و«إلىٰ»، فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلىٰ محبته، ومن عبودية غيره إلىٰ عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلىٰ خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له إلىٰ دعاء ربِّه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له. وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الفرار من الله إليه، وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ، ولهذا قال النبي ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**». ولهذا يقرن سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع؛ لتلازمهما، واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود: أن الهجرة إلىٰ الله تتضمَّن هجران ما يكرهه، وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحبُّ والبغضُ؛ فإن المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحبَّ مما يهاجر منه، فيؤثر أحبَّ الأمرين إليه علىٰ الآخر. وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعونه إلىٰ خلاف ما يحبه الله ويرضاه، وقد بُلِيَ بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه؛ فعليه في كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا ينفك في هجرةٍ حتىٰ الممات».

وفي حديث الحارث الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «**وآمركم بالجهاد**».

---

(١) الرِّسالة التَّبوكيَّة (ص١٨-٢٠).

والجهاد بمفهومه العام هو بذل الجهد فيما يحبُّه الله، وهو القيام بشعب الإيمان، وهذا ما دلَّ عليه قول النبيّ ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»، رواه أحمد، والتِّرمذيّ وقال: حديث حسن صحيح، وصحَّحه العلَّامة الألبانيُّ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا المفهوم العام للجهاد[1]: «الجهاد تحقيق كون المؤمن مؤمنًا، ولهذا روىٰ مسلم في «صحيحه» عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «**من مات ولم يغز، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو؛ مات علىٰ شعبة من نفاق**»».

وقال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فُسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه علىٰ طاعة الله؛ فإن النفس مَيَّالةٌ إلىٰ الكسل عن الخيرات، أمَّارةٌ بالسوء، سريعة التأثُّر عند المصائب، وتحتاج إلىٰ صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها علىٰ الصبر عند المصائب. وهذه الطاعات هي: امتثال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر علىٰ المقدور.

فالمجاهد حقيقةً: من جاهدها علىٰ هذه الأمور؛ لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلِّه: مجاهدتُها علىٰ قتال الأعداء، ومجاهدتهم بالقول والفعل؛ فإنَّ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الدين».

(١) جامع الرَّسائل (٩/ ٣٦١).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص٥١، ٥٢).

ومن أفضل أنواع الجهاد، وأعظمه ثوابًا، وأرفعه منزلة عند الله؛ الجهاد العلميّ؛ بتعليم دين الله وحفظه وصيانته من التَّحريف والابتداع.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ أفضل الدَّرجات: النبوَّة، وبعدها الصِّدِّيقيَّة، وبعدها الشَّهادة، وبعدها الصَّلاح، وهذه الدَّرجات الأربع التي ذكرها تعالىٰ في كتابه».

وقال متمِّمًا[٢]: «فمن طلب العلم ليحيىٰ به الإسلام؛ فهو من الصِّدِّيقين، ودرجته بعد درجة النبوَّة».

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**من خرج في طلب العلم؛ فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع**»، رواه التِّرمذي.

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تعلَّموا العلم؛ فإنَّ تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد»[٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «من يشتغل بالعلم، إنَّه أحد نوعي الجهاد؛ فيكون اشتغاله بالعلم كالجهاد في سبيل الله».

(١، ٢) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٢١).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٩٤).

(٤) الحكم الجديرة بالإذاعة، مجموع مؤلَّفات الحافظ ابن رجب (١/ ٢٤٤).

فلا ريب أن طلب العلم وتعليمه من أفضل الطَّاعات وأجلّ الحسنات، عن عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**»، رواه البخاري.

والجهاد العلميّ لا يكون إلَّا بعد التسلُّح بالعلم، فالحقّ إنَّما ينصره من عرفه، فمن أراد نصرة الإسلام والدِّفاع عن الحقّ وردّ الباطل؛ فعليه بطلب العلم.

قال العلَّامة ابن شاهين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ الحقَّ لا يُحقُّه إلَّا من عرفه، ولا يُبطل الباطل إلَّا من عرفه، ولا يعرف الحقَّ من الباطل إلَّا أهل العلم، فعون أهل الحقّ علىٰ حقّهم، ودفع أهل الباطل عن باطلهم؛ من أفضل الأعمال، وهو عمل بالقرآن؛ لأنَّ الله يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]».

وأفضل أنواع الجهاد بالعلم: نصرة السُّنَّة والردّ علىٰ المبتدعة، قال محمَّد بن يحيىٰ الذُّهلي: سمعت يحيىٰ بن معين يقول: الذَّبّ عن السُّنَّة أفضل من الجهاد في سبيل الله. فقلت ليحيىٰ: الرجل ينفق ماله ويُتعب نفسه، ويجاهد، فهذا أفضل منه؟!

قال: نعم، بكثير[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «من الحكايات المشهورة التي

---

(١) الكتاب اللَّطيف لشرح مذاهب أهل السُّنَّة (ص٩٧).

(٢) سير أعلام النُّبلاء (١٠/ ٥١٨).

(٣) نقض المنطق (ص١٥٦).

بلغتنا: أنَّ الشَّيخ أبا عمرو ابن الصَّلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكَّا».

وسبب هذا التَّفضيل يرجع إلىٰ حفظ بناء الإسلام من الدَّاخل، الذي لا يستطيع القيام بجهاد الدَّفع ولا الابتداء ما لم يكن قويًّا متماسكًا.

قال أبو الفضل الهمداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مبتدعة الإسلام، والكذَّابون والواضعون للحديث؛ أشد من الملحدين، هؤلاء قصدوا إفساد الدِّين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل؛ كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالدُّخلاء يفتحون الحصن؛ فهم شرٌّ علىٰ الإسلام من غير الملابسين له».

(١) الصَّارم المسلول (ص١٧١).

الباب السابع

باب وجوب الدُّخول في الإسلام كله وترك ما سواه

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه، وقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية. قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية: «تبيضُّ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسودّ وجوه أهل البدعة والاختلاف».

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أُمَّهُ علانية كان في أمتي من يصنع ذلك. وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة.** قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **ما أنا عليه وأصحابي**». فليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله كلام الصادق المصدوق في هذا المقام، خصوصًا قوله: «**ما أنا عليه وأصحابي**». يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة!

رواه الترمذي، ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وصحَّحه، لكن ليس فيه ذكر النار، وهو في حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عند أحمد وأبي داود، وفيه: «**أنه سيخرج من أمتي قوم تتجارىٰ بهم الأهواء كما يتجارىٰ الكَلَب بصاحبه، فلا يبقىٰ منه عرق ولا مفصل إلا دخله**»، وقد تقدم قوله: «**ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية**»].

الشَّرْح:

في استفتاح الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب وجوب الدُّخول

---

(١) فضل الإسلام (ص٢٣، ٢٤).

في الإسلام كلّه بقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ حثٌّ علىٰ حفظ الدِّين كلّه، فبالقيام به وتعليمه تُحفظ شرائع الإسلام، وبتضييعه تندرس معالم الدِّين وتذهب شرائعه وشعائره.

سُئل جعفر الصَّادق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: متىٰ تجتمع خصال السُّنَّة كلّها في العبد؟

قال: إذا صدَّق وآمن وأقرَّ بجميع خصال السُّنَّة كلّها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾ [يونس: ٩][1].

وقال العلَّامة ابن الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لا يستحقُّ أحدٌ اسم السُّنَّة إلَّا من يستكمل فيها خصال السُّنَّة كلّها؛ لأنَّ من أنكر خصلة من خصال السُّنَّة لا يُقال له: صاحب السُّنَّة.

والسُّنن مقرونة بعضها ببعض، لا يُقبل واحدة دون الأخرىٰ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ ﴾ [البقرة: ٨٥]».

وتفسير ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا **قوله تعالىٰ:** ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] بقوله: «تبيضّ وجوه أهل السُّنَّة، وتسودّ وجوه أهل البدعة»؛ هو منطوق ما دلَّت عليه نصوص القرآن والسُّنَّة من أنَّ الحسنات

(١) الرِّسالة الواضحة في الردّ علىٰ الأشاعرة (٢/ ٨٨٥).

(٢) الرِّسالة الواضحة في الردّ علىٰ الأشاعرة (٢/ ٨٨٠).

نور في القلوب وضياء في الوجوه، والحسنات هي الأعمال الصَّالحة، والعمل الصَّالح هو ما كان خالصًا لله صوابًا علىٰ السُّنَّة، فالكفر والبدع تسوِّد الوجوه، والإسلام والسُّنَّة تبيِّض الوجوه، قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النبيُّ ﷺ سبب في إخراج النَّاس من الظُّلمات إلىٰ النُّور، وأمَّا المخرج حقيقة فهو الله عَزَّوَجَلَّ.

والمراد بالظُّلمات: ظلمات الجهل، وظلمات الشِّرك، وظلمات العدوان، وظلمات العصيان.

وكل ما خالف الحق فهو ظلمة، وكل ما وافقه فهو نور».

ومن اهتدىٰ بنور صراط الله المستقيم، ووحيه المبين؛ كان له نورًا وفرقانًا في دنياه، ونورًا في قبره، ونورًا بين يديه في مروره علىٰ الصِّراط حتىٰ يدخل الجنَّة.

وظهور نور الإيمان ونضرة النَّعيم في وجوه المؤمنين؛ هو من عاجل

(١) تفسير سورة الحديد (ص٣٧٩).

بشراهم، ويزداد هذا النُّور ويظهر أكثر في الجنَّة دار النَّعيم، فالله يجازي بالإحسان إحسانًا، فمن اهتدىٰ بنور وحيه؛ نوَّر الله قلبه ووجهه في الدَّارين.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جمع لهم بين النَّضرة والسُّرور، هذا جمال ظواهرهم، وهذا جمال بواطنهم، كما جمَّلُوا في الدُّنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام، وبواطنهم بحقائق الإيمان».

والحسنات كلّها نور في القلوب وضياء في الوجه، وأعظم ذلك الوضوء والصَّلاة والذِّكر وتعليم شرع الله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّه - الذِّكر - يكسو الوجه نضرة في الدُّنيا، ونورًا في الآخرة؛ فالذَّاكرون أَنْضَرُ النَّاس وجوهًا في الدُّنيا، وأَنْوَرُهُم في الآخرة».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن الذكر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعىٰ بين يديه علىٰ الصراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فالأول هو المؤمن، استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر

---

(١) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (١/ ٣٩٣).

(٢) الوابل الصيِّب (ص١٩٦).

(٣) الوابل الصيِّب (ص١١٤، ١١٥).

هو الغافل عن الله تعالىٰ، المعرض عن ذكره ومحبته. والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يبالغ في سؤاله ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه وعصبه، وشعره وبَشَره، وسمعه وبصره، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله، وخلفه وأمامه، حتىٰ يقول: «**واجعلني نورًا**». فسأل ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجعل النور في ذاته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورًا.

فدين الله عَزَّوَجَلَّ نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التي أعدَّها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نور السموات والأرض، ومن أسمائه النور، والظلمات أشرقت لنور وجهه».

وطلب العلم الشَّرعيّ وتعليمه يكسو وجه المتعلِّمين والمعلِّمين نورًا وضياءً، فقد روىٰ أحمد وأصحاب السُّنن من رواية أكثر من عشرين صحابيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ منهم: جبير بن مطعم، وعمر الفاروق، وذي النُّورين عثمان، وعبد الله بن مسعود، وعليّ، وابن عبَّاس، وأبي هريرة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومعاذ، والنُّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**نضَّر الله امرأً سمع منَّا حديثًا فبلَّغه كما سمعه، فربَّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع**».

قال العلَّامة المحدِّث عبد المحسن العبَّاد حفظه الله[1]: «إنَّما دعا ﷺ لمبلِّغي سُنَّته بهذه الدَّعوة التي هي حصول النُّضرة؛ جزاءً لهم علىٰ تسبُّبهم

(١) دراسة حديث: «نضَّر الله امْرأً سمع مقالتي»، رواية ودراية (ص١٧٦).

في هداية الخلق، وإرشاد النَّاس إلىٰ الخير الذي به تبيضّ وجوههم، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه؛ فكانت دعوة الرَّسول ﷺ بأن ينضِّر الله وجوههم مجازاةً لهم بجنس أعمالهم جزاءً وفاقًا».

ونضارة الوجه تكون لمن بلَّغ شرع الله كما بيَّنه النبيُّ ﷺ للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومن كتمه أو حرَّفه أو بدَّله؛ فهذا يجازىٰ من جنس عمله، لا نور له؛ لأنَّه كتم نور الله بعدم تبليغه أو بتحريفه.

قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لا أظلم ممَّن كذب علىٰ الله وعلىٰ دينه».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الكذب علىٰ الله يستلزم التكذيب بالحق والصدق».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «متىٰ كتم الحقَّ أو كذب فيه فقد حادَّ الله سبحانه في شرعه ودينه، وقد أجرىٰ الله سنَّته بالمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك، كما أجرىٰ عادته سبحانه في المتبايعين إذا كتما

(١، ٢) إعلام الموقِّعين (٥/ ٣٦).

(٣) إعلام الموقعين (٥/ ٣٧، ٣٨).

وكذبا أن يمحق بركة بيعهما، ومن التزم الصِّدقَ والبيانَ منهم في مرتبته بُورك له في علمه ووقته ودينه ودنياه، وكان مع النَّبيِّين – عليهم الصلاة والسلام – والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وحسن أولئك رفيقًا، ذلك الفضل من الله وكفىٰ بالله عليمًا، فبالكتمان يعزل الحقَّ عن سلطانه، وبالكذب يقلبه عن وجهه، والجزاء من جنس العمل، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبَّة والتَّعظيم الَّذي يُلبسُه أهلَ الصِّدق والبيان، ويُلبسه ثوب الهوان والمقت والخزي بين عباده، فإذا كان يوم اللقاء جازىٰ الله سبحانه من يشاء من الكاذبين الكاتمين بطمس الوجوه وردِّها علىٰ أدبارها، كما طمسوا وجهَ الحقِّ وقلبوه عن وجهه، جزاءً وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]».

فالله عَزَّوَجَلَّ يجعل لمن استضاء بنور وحيه نورًا في قلبه ووجهه، ومن أعرض عن نور الله فلا نور له، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلىٰ الوجه، والقُبح والشين الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلىٰ الوجه، كما تقدم. ثم إنَّ ذلك يقوىٰ بقوَّة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة، فكلما كثر البر والتقوىٰ قوي الحسن والجمال، وكلما قوي الإثم والعدوان قوي القُبح

(١) الاستقامة (ص٢٦٤).

والشّين، حتىٰ ينسخ ذلك ما كان للصورة من حسن وقبح؛ فكم ممن لم تكن صورته حسنة، ولكن من الأعمال الصالحة ما عظم به جماله وبهاؤه حتىٰ ظهر ذلك علىٰ صورته.

ولهذا يظهر ذلك ظهورًا بيِّنًا عند الإصرار علىٰ القبائح في آخر العمر عند قرب الموت، فنرىٰ وجوه أهل السنَّة والطاعة كلما كبروا ازداد حسنها وبهاؤها، حتىٰ يكون أحدهم في كبره أحسن وأجمل منه في صغره، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها، حتىٰ لا يستطيع النظر إليها من كان منبهرًا بها في حال الصغر لجمال صورتها.

وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره؛ مثل الرافضة، وأهل المظالم والفواحش من التُّرْكِ ونحوهم؛ فإن الرافضي كلما كبر قبح وجهه وعظم شينه حتىٰ يقوىٰ شبهه بالخنزير».

فالاعتقاد الصَّحيح نور، والطَّاعات نور، قال ﷺ: «**الصَّلاة نور**»؛ رواه مسلم، وذكر الله نور، واتِّباع صراط الله نور، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من كان له صورة حسنة فعفَّ عمَّا حرَّم الله تعالىٰ، وخالف هواه، وجمَّل نفسه بلباس التقوىٰ الذي قال الله فيه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]؛ كان هذا الجمال يحبُّه الله، وكان من هذا الوجه أفضل ممن لم يؤتَ مثل هذا الجمال، ما لا يكساه وجه العاصي؛ فإنْ كانت خلقته حسنة ازدادت حُسْنًا،

(١) الاستقامة (ص٢٥٥، ٢٥٦).

وإلا كان عليها من النور والجمال بحسبها.

وأما أهل الفجور فتعلو وجوههم ظلمة المعصية حتىٰ يُكسف الجمال المخلوق، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إنَّ للحسنة لنورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق.**

وإن للسيئة لظلمة في القلب، وغبرة في الوجه، وضعفًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

وهذا يوم القيامة يكمل حتىٰ يظهر لكل أحد، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: ٢-٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤]».

إلىٰ أن قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأمثال هذا كثير ممَّا فيه وصف أهل السَّعادة بنهاية الحسن والجمال والبهاء، وأهل الشَّقاء بنهاية السّوء والقبح والعيب».

واستدلَّ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النَّهي عن الفرقة بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «في المشار إليهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنَّهم أهل الضَّلالة من هذه الأمَّة، قاله أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فعلىٰ هذا معنىٰ «**فارقوا دينهم**»: باينوه، وتركوه جانبًا، واتَّبعوا أهواءهم.

ومعنىٰ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه؛ كالمعتزلة والرَّافضة؛ فإنَّهم آمنوا بكثير ممَّا جاءهم به النبيُّ ﷺ وكفروا بكثير منه، فإنَّهم لا يؤمنون بكثير من أحوال الآخرة؛ كعذاب القبر، وإخراج المؤمنين من النَّار بالشَّفاعة، والنَّظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ في الجنَّة.

ويجوز أن يكون معنىٰ: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: صاروا أشياعًا وفرقًا.

القول الثَّاني: إنَّهم أهل الكتاب، قاله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والضحَّاك،

---

(١) الاستقامة (ص٢٥٧).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٦٠، ٦١).

وقتادة، ومجاهد.

فالمعنىٰ: فارقوا دينهم الذي جاءهم به موسىٰ وعيسىٰ».

وقول الصَّحابيين أبي هريرة وابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا متوافق، وهو ما دلَّ عليه نهي النبيّ ﷺ عن تشبُّه أمَّتنا بأهل الكتاب في الفرقة وسائر ما ضلُّوا فيه، وقد أكَّد الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ القولين بإتباع حديث افتراق الأمَّة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾؛ فيه حثٌّ علىٰ لزوم الدِّين الذي بُعث به محمَّد ﷺ، وفيه تحذير عن مباينته بالبدع والأهواء المخالفة له.

وتفسير الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ **قوله تعالىٰ**: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، بقول حبر الأمَّة وترجمان القرآن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تبيضُّ وجوه أهل السُّنَّة والائتلاف، وتسودُّ وجوه أهل البدع والاختلاف. فيه بيان منهج الإمام بتلقِّي معاني القرآن بفهم الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذه الآية متعاضدة مع نصوص هذا الباب في التَّحذير عن الاختلاف في الدِّين وعن الفرقة عن الجماعة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٥-١٠٧].

قال الحافظ عبد الرزَّاق الرَّسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾، وفيهم قولان:

أحدهما: أنَّهم اليهود والنَّصارىٰ، قاله ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والثَّاني: أنَّهم الحروريَّة، قاله أبو أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

وروىٰ الإمام أحمد عن أبي غالب قال: رأىٰ أبو أمامة رؤوسًا منصوبة علىٰ درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كلاب النَّار، شرُّ قتلىٰ تحت أديم السَّماء، خير قتلىٰ من قتلوه. ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلىٰ آخر الآية، قال أبو غالب لأبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلَّا مرَّةً أو مرَّتين أو ثلاثًا أو أربعًا - حتَّىٰ عدَّ سبعًا - ما حدَّثتكموه.

قال التِّرمذي: هذا حديث حسن.

وحديث افتراق الأمَّة ورد بأسانيد كثيرة، وألفاظ متنوِّعة، منها ما هو صحيح لذاته، ومنها ما هو صحيح لغيره، والرِّوايات الصَّحيحة للحديث متَّفقة علىٰ إثبات عدد الفرق إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، وأنَّها كلَّها في النَّار، إلَّا واحدة، وهي الجماعة.

وهنا نستعرض الصَّحيح المشهور من روايات الحديث، وهي كالتالي:

١ - ما رواه أبو داود في «سننه»، كتاب السُّنَّة، باب شرح السُّنَّة (ص٦٥٠ -

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٦٠، ٢٦١).

رقم ٤٥٩٦)، والتِّرمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمَّة (ص٦٠٠ - رقم ٢٦٤٠)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (ص٥٧٤ - رقم ٣٩٩١)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١/ ٣٣-رقم٦٦)، والآجري في «الشَّريعة» (١/ ١٢٦ - رقم ٢١، ٢٢)؛ كلّهم من طريق محمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ قال: «**تفرَّقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة - أو اثنتين وسبعين فرقة -، والنَّصارىٰ مثل ذلك، وتفترق أمَّتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة**».

أبو سلمة هو ابن عبد الرَّحمن بن عوف الزُّهري، ثقة، روىٰ له الجماعة[1]، ومحمَّد بن عمرو هو ابن علقمة بن وقَّاص اللَّيثي، روىٰ عنه مالك، ويحيىٰ بن سعيد القطَّان، وشعبة بن الحجَّاج، وحمَّاد بن سلمة، وسفيان بن عيينة، وغيرهم من الكبار.

جعله يحيىٰ بن سعيد القطَّان فوق سهيل بن أبي صالح، وقال ابن المبارك: لم يكن به بأس. وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال النّسائي: ثقة. وقال ابن عديّ: له حديث صالح.

فأقل أحواله صدوق، إن لم نقل: إنَّه ثقة.

روىٰ له البخاري مقرونًا بغيره، ومسلم في المتابعات، واحتجَّ به الأربعة[2].

والحديث من هذا الطَّريق صحَّحه جماعة من أهل العلم، قال التِّرمذي

(١) تقريب التَّهذيب (ص١١٥٥ -رقم ٨٢٠٣).

(٢) تهذيب الكمال (٢٦/ ٢١٢-٢١٨)، إكمال تهذيب الكمال (١٠/ ٣٠١).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «حديث حسن صحيح».

وصحَّحه ابن حبَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، وصحَّحه أيضًا الحاكم، وقال[٣]: «هذا حديث كبير في الأصول».

وقال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «حسن صحيح».

وقال الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٥]: «صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

وقال العلَّامة صديق حسن خان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رجاله رجال الصَّحيح؛ فيكون أصل هذا الحديث صحيحًا ثابتًا»[٦].

وقال العلَّامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٧]: «إسناده حسن، رجاله كلّهم ثقات، رجال الشَّيخين، غير محمَّد بن عمرو، وهو حسن الحديث».

وهذا الطَّريق صحَّحه العلَّامة مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٨]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٩]: «هذا الحديث بهذا الإسناد حسن».

---

(١) جامع التِّرمذي (ص٦٠٠).

(٢) صحيح ابن حبَّان (٨/ ٢٥٨-رقم ٦٦٩٦).

(٣) المستدرك (١/ ٦).

(٤) نقله عنه المقريزي في الخطط والآثار (٤/ ١٦٩).

(٥) الاعتصام (٣/ ١٥٦).

(٦) فتاوىٰ العلَّامة صديق حسن خان (ص٥٦).

(٧) ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة (١/ ٣٣).

(٨) الصَّحيح المسند لما في غير الصَّحيحين (٢/ ٣٥٣).

(٩) الصَّحيح المسند من دلائل النبوَّة (ص٣٦٦).

٢- روىٰ أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود من طريقه في «سننه» كتاب السُّنَّة، باب شرح السُّنَّة (ص٥٦٠-رقم ٤٥٩٧)، والدَّارمي (٢/ ٢٤١)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٧١ - رقم ٢٦٨)، وابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ٣٣-رقم ٦٥)؛ كلّهم من طريق صفوان بن عمرو عن الأزهر بن عبد الله الحرازي، عن أبي عامر عبد الله بن لحي الهوزاني، عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه قام خطيبًا فقال: ألا إنَّ رسول الله ﷺ قام فينا، فقال: «**ألا إنَّ من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا علىٰ اثنتين وسبعين ملَّة، وإنَّ هذه الملَّة ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين؛ اثنتان وسبعون في النَّار، وواحدة في الجنَّة، وهي الجماعة**».

وجاء في رواية زيادة في المتن(١): «**وإنَّه سيخرج في أمَّتي أقوام تجارىٰ بهم تلك الأهواء كما يتجارىٰ الكَلَب بصاحبه**»، وقال عمرو: «**الكَلَب بصاحبه، لا يبقىٰ منه عرق ولا مفصل إلَّا دخله**».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده حسن»(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناد حسن»(٣).

وقال العلَّامة الشَّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ(٤): «رجال إسناد الحديث كلّهم ثقات».

---

(١) رواية محمَّد بن يحيىٰ: حدَّثنا أبو المغيرة، حدَّثنا صفوان، بنحوه. سنن أبي داود (ص٦٥٠).

(٢) البداية والنِّهاية (١٩/ ٣٨).

(٣) الكاف الشاف (٢/ ٧٩، ٨٠).

(٤) فتاوىٰ العلَّامة صديق حسن خان (ص٥٦).

وقال العلَّامة السَّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لفظ حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما تقدَّم؛ فهو الذي ينبغي أن يعوَّل عليه».

وقال العلَّامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديث صحيح»[٢].

وقال العلَّامة أبو القاسم إسماعيل بن محمَّد الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الكَلَب: بفتح اللَّام، من قولهم: «كَلْبٌ كَلِبٌ»، وهو الذي يأخذه شبه الجنون، فإذا عقر إنسانًا كلِبَ، فيقال: رجل كلِبٌ».

٣- **قال ابن ماجه**: حدَّثنا هشام بن عمَّار، حدَّثنا الوليد بن مسلم، حدَّثنا أبو عمرو، حدَّثنا قتادة، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ بني إسرائيل افترقت علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، وإنَّ أمَّتي ستفترق علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، كلُّها في النَّار إلَّا واحدة، وهي الجماعة»**[٤].

قال الجورقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديث حسن غريب مشهور، رواته كلُّهم ثقات أثبات»[٥].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٦]: «هذا إسناد قوي علىٰ شرط الصَّحيح،

---

(١) لوامع الأنوار (١/ ٩٣).

(٢) ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة (١/ ٣٣).

(٣) الحُجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٢٩٥).

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (ص٥٧٤-رقم ٣٩٩٣).

(٥) التَّوضيح لشرح الجامع الصَّحيح (٣٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٦) البداية والنِّهاية (١٩/ ٣٧).

تفرَّد به ابن ماجه».

وقال الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد صحيح»[١].

وقال الحافظ البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد صحيح، رجاله ثقات»[٢].

وهو كما قالوا؛ فالوليد بن مسلم ثقة روىٰ له الجماعة[٣]، وأبو عمرو هو الأوزاعي الإمام الفقيه ثقة روىٰ له الجماعة[٤] وقتادة بن دعامة هو السَّدوسي أبو الخطَّاب البصري، ثقة ثبت، روىٰ له الجماعة[٥].

٤- **قال ابن ماجه**: حدَّثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصي، حدَّثنا عبَّاد بن يوسف، حدَّثنا صفوان بن عمرو، عن راشد بن سعد، عن عوف بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنَّة، وسبعون في النَّار، وافترقت النَّصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة؛ فإحدىٰ وسبعون في النَّار، وواحدة في الجنَّة، والذي نفس محمَّد بيده لتفترقنَّ أمَّتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنَّة، واثنتان وسبعون في النَّار**. قيل: يا رسول الله! من

---

(١) الباعث علىٰ الخلاص من حوادث القصاص (ص٧٨-رقم ١٦).

(٢) مصباح الزُّجاجة (٢/ ٢٩٦- رقم ١٤٠٤).

(٣) تقريب التَّهذيب (ص١٠٤١-رقم ٧٥٠٦).

(٤) تقريب التَّهذيب (ص٥٩٣-رقم ٣٩٩٢).

(٥) تقريب التَّهذيب (ص٧٩٨-رقم ٥٥٥٣).

هم؟ قال: **الجماعة**»[١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إسناده لا بأس به».

وقال الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إسناد جيد».

وقال العلَّامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد جيد، رجاله كلُّهم ثقات معروفون، غير عبَّاد بن يوسف، وهو ثقة إن شاء الله»[٤].

أمَّا رواية الحديث باللَّفظ الذي ذكره الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد رواه التِّرمذي[٥]:

حدَّثنا محمود بن غيلان، حدَّثنا أبو داود الحفَري، عن سفيان الثَّوري، عن عبد الرَّحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليأتينَّ علىٰ أمَّتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حذو النَّعْل بالنَّعْل، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أُمَّهُ علانية لكان في أمَّتي من يصنع ذلك، وإنَّ بني إسرائيل تفرَّقت علىٰ ثنتين وسبعين مِلَّة، وتفترق أمَّتي علىٰ ثلاث وسبعين مِلَّةً، كُلُّهم في النَّار إلَّا ملَّة واحدة**»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**».

---

(١) السُّنن، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (ص٥٧٤-رقم ٣٩٩٢).

(٢) البداية والنِّهاية (١٩/ ٣٦).

(٣) الباعث علىٰ الخلاص من حوادث القصاص (ص٧٨-رقم ١٧).

(٤) ظلال الجنَّة في تخريج السُّنَّة (١/ ٣٢).

(٥) كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمَّة (ص٦٠٠-رقم ٢٦٤١).

قال أبو عيسىٰ التِّرمذي: هذا حديث حسن غريب، مُفَسَّرٌ، لا نعرفه مثل هذا إلَّا من هذا الوجه[١].

والحديث من هذا الطَّريق متنه موافق لسائر الرِّوايات الصَّحيحة، إلَّا الزِّيادة التي تفرَّد بروايتها عبد الرَّحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهي قوله: «**ليأتينّ علىٰ أمَّتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل، حتىٰ إن كان منهم من أتىٰ أُمَّه علانيةً لكان في أمَّتي من يصنع ذلك**»، وهي زيادة منكرة، مخالفة لرواية الثِّقات.

وفي توجيه النبيِّ ﷺ أمَّته لتلقِّي الدِّين عنه كما أدَّاه الصَّحابة في قوله: «**ما أنا عليه وأصحابي**»؛ بيان منهج تلقي الحقّ واجتناب الباطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كما أنه لم يكن في القرون أكمل من قرن الصحابة، فليس في الطوائف بعدهم أكمل من أتباعهم؛ فكل من كان للحديث والسُّنَّة وآثار الصحابة أتبع؛ كان أكمل، وكانت تلك الطائفة أولىٰ بالاجتماع والهدىٰ والاعتصام بحبل الله، وأبعد عن التفرُّق والاختلاف والفتنة، وكل من بعد عن ذلك؛ كان أبعد عن الرحمة، وأدخل في الفتنة.

فليس الضلال والغي في طائفة من طوائف الأمَّة أكثر منه في الرافضة، كما أنَّ الهدىٰ والرشاد والرحمة ليس في طائفة من طوائف الأمة أكثر منه في أهل الحديث والسنَّة المحضة، الذين لا ينتصرون إلا لرسول الله - ﷺ -؛ فإنهم خاصته، وهو إمامهم المطلق الذي لا يغضبون لقول غيره إلا إذا اتبع

---

(١) جامع التِّرمذي (ص٦٠٠).

(٢) منهاج السُّنَّة (٦/ ٣٦٨).

قوله، ومقصودهم نصر الله ورسوله ﷺ».

وفي نهي النبيِّ ﷺ عن الافتراق دلَّ أمَّته علىٰ ما تعتصم به من شروره وغوائله، بالاعتصام بسُنَّته وبتلقِّي الدِّين عن صحابته، فقال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، وفي نصوص أخرىٰ حثَّ علىٰ وجه الخصوص بتلقِّي الدِّين عن خلفائه الأربعة، خصوصًا خاصَّة خاصَّتهم أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال رسول الله** ﷺ: «**إنَّه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحْدثات الأمور؛ فإنَّ كل بدعة ضلالة**»، رواه أحمد وأبو داود، والتِّرمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قال العلَّامة الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله: «**فإنَّه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**»؛ إشارة إلىٰ ظهور البدع والأهواء - والله أعلم -، فأمر بلزوم سُنَّته، وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين، والتمسُّك بها بأبلغ وجوه الجِدِّ، ومجانبة ما أُحدث علىٰ خلافها».

وقال العلَّامة البغوي أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «والحديث يدلُّ علىٰ تفضيل الخلفاء الرَّاشدين علىٰ من سواهم من الصَّحابة، وهم: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فهؤلاء أفضل النَّاس بعد النَّبيِّين والمرسلين صلَّىٰ الله عليهم، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة؛ فأفضلهم أبو

(١) شرح السُّنَّة (١/ ٢٠٦).

(٢) شرح السُّنَّة (١/ ٢٠٨).

بكرٍ، ثمَّ عمر، ثمَّ عثمان، ثمَّ عليٌّ.

وكما خصَّ النَّبيُّ ﷺ هؤلاء من بين الصَّحابة باتِّباع سُنَّتهم، فقد خصَّ من بينهم أبا بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حديث حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**اقتدوا باللَّذين من بعدي: أبي بكرٍ، وعمر**»(١).

وكان ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا سُئل عن الأمر، وكان في القرآن؛ أخبر به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ؛ أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإن لم يكن قال فيه برأيه(٢)».

وما من عالم ولا إمام ولا ناصح للإسلام والمسلمين إلَّا ويحثُّ علىٰ تلقِّي الدِّين عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويُبيِّن أنَّ الأمَّة يتلقَّىٰ خلفها دينهم عن سلفهم من خير القرون، وبقدر الموافقة لهم يكون المسلم متَّبعًا، وبقدر المخالفة لهم يكون مبتدعًا.

قال العلَّامة أبو المظفَّر السَّمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ(٣): «شعار أهل السُّنَّة اتِّباعهم السَّلف الصَّالح، وتركهم كل ما هو مبتدع محدث».

وأخذ الدِّين وتلقِّيه عن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنَّهم خير النَّاس كما قال النبيُّ ﷺ، وهم أنصح وأفصح الخلق بعد النبيّ ﷺ، وهم بطانة النبيّ ﷺ

(١) حسَّنه الحافظ ابن عبد البرّ رَحِمَهُ اللَّهُ في جامع بيان العلم وفضله (ص٥٤٩).

(٢) أي باجتهاده.

(٣) الحجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٣٦٤).

وتلاميذه الذين أخذوا عنه العلم والدِّين مباشرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن أصحاب رسول الله - ﷺ - تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن، لفظه ومعناه جميعًا، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي - وهو الذي روىٰ عن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ - أنه قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**». كما رواه البخاري في صحيحه، وكان يقرئ القرآن أربعين سنة -؛ قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبي - ﷺ - عشر آيات؛ لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا».

وقول النبيِّ ﷺ: «**خير النَّاس قرني**»؛ حذف فيه المعمول ليفيد العموم، فهم خير النَّاس دينًا وعلمًا وعقيدة وإخلاصًا ونصحًا ونصرة للدِّين وقيامًا به، وإقامة لشعائره ومبانيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الصَّحابة**[٢]: «من نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل؛ علم يقينًا أنَّهم خير الخلق بعد الأنبياء - عليهم السَّلام -، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنَّهم الصفوة من قرون هذه الأمَّة، التي هي خير الأمم وأكرمها علىٰ الله تعالىٰ».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٢) العقيدة الواسطيَّة (ص٢٤٥)، مطبوع ضمن مجموع متون التَّوحيد والعقيدة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لم يتنازع أهل العلم والإيمان فيما استفاض عن النبي ﷺ من قوله: «**خير القرون القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، وكلُّ من له لسان صدقٍ مِنْ مشهورٍ بعلم أو دين؛ معترفٌ بأن خير هذه الأمة هم الصحابة، وأن المتَّبع لهم أفضل من غير المُتَّبع لهم، ولم يكن في زمنهم أحد من هذه الصنوف الأربعة – المُتكلِّمة والصوفية والفلاسفة والباطنية –، ولا تجد إمامًا في العلم والدين – كمالك والأوزاعي والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، ومثل الفضيل وأبي سليمان ومعروف الكَرْخي وأمثالهم – إلا وهم مصرِّحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعلم الصحابة، وأفضل عملهم ما كانوا فيه مقتدين بعمل الصحابة، وهم يرون أن الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضائل والمناقب. والذين اتبعوهم من أهل الآثار النبوية، وهم أهل الحديث والسُّنَّة العالمون بطريقهم المُتَّبعون لها، وهم أهل العلم بالكتاب والسنة في كل عصر ومصر.

فهؤلاء الذين هم أفضل الخلق من الأوَّلين والآخرين».

وحديث الافتراق فيه نهي عن مفارقة الدِّين والتفرُّق فيه، وفيه حثٌّ علىٰ اتِّباع النبيِّ ﷺ والصَّحابة وهو الاتِّباع، وفيه تحذير من مخالفتهم وهو الابتداع.

قال البربهاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والأساس الذي تُبنىٰ عليه الجماعة هم

(١) شرح الأصبهانيَّة (٦٣٠، ٦٣١).

(٢) شرح السُّنَّة (ص٦٧).

أصحاب محمَّد ﷺ ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السُّنَّة والجماعة؛ فمن لم يأخذ عنهم فقد ضلَّ وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضَّلالة وأهلها في النَّار».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة اتِّباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، واتِّباع سبيل السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار».

وقال العلَّامة محمَّد بن إسماعيل الصَّنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «عيَّن - النبي ﷺ - الفرقة الناجية بأنها من كان علىٰ ما هو ﷺ وأصحابه. وقد عَرَف - بحمد الله - من له أدنىٰ همَّة في الدين ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ونُقِلَ إلينا أقوالهم وأفعالهم - حتىٰ أكلهم وشربهم ونومهم ويقظتهم - حتىٰ كأنا رأيناهم رأي عين. وبعد ذلك فمن رزقه الله إنصافًا من نفسه، وجعله من أولي الألباب، لا يخفاه حال نفسه أولًا: هل هو متبع لما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه، أو غير متَّبع؟ ثم لا يخفىٰ حال غيره من كلِّ طائفة: هل هي متَّبعة أو مبتدعة؟».

وحديث افتراق الأمَّة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة؛ لا ينافي قول النبيِّ ﷺ: «أمَّتي أمَّة مرحومة»، بل يوافقه؛ لأنَّ الفرقة بمخالفة ما جاء به النبيّ ﷺ هو الذي به فوات الرَّحمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كما أنه لم يكن في القرون

---

(١) العقيدة الواسطيَّة (ص٢٤٦).

(٢) حديث افتراق الأمَّة إلىٰ نَيِّف وسبعين فرقة (ص٧٩).

(٣) منهاج السُّنَّة (٦/ ٣٦٨).

أكمل من قرن الصحابة، فليس في الطوائف بعدهم أكمل من أتباعهم؛ فكل من كان للحديث والسُّنَّة وآثار الصحابة أتبع؛ كان أكمل، وكانت تلك الطائفة أولىٰ بالاجتماع والهدىٰ والاعتصام بحبل الله، وأبعد عن التفرُّق والاختلاف والفتنة، وكل من بعد عن ذلك؛ كان أبعد عن الرحمة».

وفي تحذير النبيِّ ﷺ من الافتراق، وأمره باتباع سنته وأصحابه؛ دليل علىٰ أن المفارق للسنَّة والمخالف للصحابة؛ هو من المفرِّقين للدين والجماعة.

فقوله ﷺ: «**ما أنا عليه وأصحابي**»؛ توجيه لأخذ الدِّين عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهم مرجع للأمَّة.

هذا ما حاجَّ به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الخوارجَ في سوء فهمهم لمعاني القرآن، واجتزائهم لنصوصه، حيث قال لهم: «أتيتكم من عند صهر رسول الله ﷺ والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم الذين نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله».

فسادات آل البيت العلماء كابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحثُّون الناس علىٰ فهم الدين عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واتِّخاذهم مرجعًا في تلقِّي الدِّين.

فمن أراد الحقَّ فليطلبه من معدنه الأوَّل من السَّابقين الأوَّلين، الذين أخذوا معاني القرآن والسُّنَّة من النبيِّ ﷺ؛ فهذا ميراث النبوة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «كان أسعدُ الناس بهذه الوراثة أصحابَ الكتاب والآثار المأخوذةِ عن سيّد المرسلين - وهم أهل القرآن

(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة، ص(٤٠).

والحديث -، الباحثين في كلّ باب في العلم عن آثار الصحابة والتابعين، العالمين بصحيحه وعليلِه، الفاهمين بمنطوقِه ودليلِه، السالكين سبيلَ السابقين، الذين أخبرَ بهم النبي - ﷺ - حيث يقول: «**يَحمِلُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهِلين**»».

وفقه حديث افتراق الأمة يوجب لزوم العدل الذي عُرف به أهل السنَّة في معاملة المخالف للسنة بحسب ما تقتضيه المخالفة للسنة، فمن كانت بدعته مكفِّرة؛ فهذا أعظم مفارقة للسنة ممن كانت بدعته غير مكفِّرة، وكذلك من انتحل البدع وأصرَّ عليها بسبب عدم تلقيه علوم الشريعة من الكتاب والسنَّة بفهم سلف الأمَّة؛ ليس كمن كان قصده اتباع السنَّة فأخطأ.

وكذلك من أخطأ بعد بذل وسعه في تحري الحق وطلبه من الكتاب والسنة؛ ليس كمن قصَّر في طلب ما يجب عليه من طلب معرفة الحق من الكتاب والسنَّة بفهم السلف، أو سؤال أكابر العلماء؛ فقد جعل الله لكلِّ شيء قدرًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ المبتدعة جنس تحته أنواع كثيرة، **وليس حكم جميع المبتدعة سواءً**، ولا من ابتدع بدعة تخالف القرآن والحديث مخالفة بيِّنة ظاهرة كمن ابتدع بدعة خفية لا يُعلم خطؤه فيها إلا بعد نظرٍ طويل، ولا من كثر اتباعه السنَّة، إذا غلط في مواضع كثيرة؛ كمن كثر مخالفته للسنَّة وقلَّ متابعته لها، ولا من كان مقصوده اتباع الرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا، وهو مجتهد في ذلك، لكنه يخفىٰ عليه بعض

(١) جواب سؤال أهل الرحبة (ص ١٢٤ - ١٢٧).

السنة أحيانًا؛ كمن هو معرض عن الكتاب والسنة، طالب الهدىٰ في طرق الملحدين في آيات الله وأسمائه، المتبعين لطواغيتهم من أئمة الزندقة والإلحاد، وشيوخ الضلال والأهواء؛ فقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

فمن كان من أهل البدع، والتحريف للكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته؛ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ومن كان مفرطًا في طلب ما يجب عليه من العلم والسُّنَّة، متعصبًا لطائفةٍ دون طائفة؛ لهواه ورياسته، قد ترك ما يجب عليه من طلب العلم النبوي وحسن القصد، ولكنّه مع ذلك مؤمن بما جاء به الرسول ﷺ، إذا تبيَّن له ما جاء به الرسول ﷺ لم يكذبه، ولا يرضىٰ أن يكون مشاقًّا للرسول ﷺ متبعًا لغير سبيل المؤمنين، لكنه يتبع هواه ويتكلم بغير علمٍ؛ فهذا قد يكون من أهل الذنوب والمعاصي وفُسَّاقهم، الذين حكمهم حكم أمثالهم من المسلمين أهل الفتن والفرقة والأهواء والذنوب. ومن كان قصده متابعة الرسول ﷺ باطنًا وظاهرًا، لا يقدِّمُ طاعة أحدٍ علىٰ طاعة الرسول ﷺ، ولا يوافق أحدًا علىٰ تكذيب ما قاله الرسول ﷺ، ولو كان من أهل قرابته أو مدينته أو مذهبه أو فرقته، لكنه قد خفي عليه بعض السُّنَّة؛ إما لعدم سماعه للنصوص النبويَّة، أو لعدم فهمه لما أراد الرسول ﷺ، أو لسماع أحاديث ظنَّها صدقًا وهي كذب، أو لشبهات ظنَّها حقًّا وهي باطل؛ كما قد وقع في بعض ذلك كثيرٌ من العلماء والعباد، لم يخلصوا من أكثر ذلك؛ فهؤلاء ليسوا كفارًا ولا

فساقًا، بل مخطئون خطأً يغفره الله لهم، كما قال تعالىٰ علىٰ لسان[1] المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد ثبت في الصحيح من غير وجهٍ؛ أن الله تعالىٰ غفر للذي قال: «**إذا أنا مت فأحرقوني واسحقوني، وذروني في اليم؛ فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يُعذِّبه أحدًا من العالمين**»؛ فهذا مؤمن ظنَّ أنَّ الله لا يقدر علىٰ إعادته، وأنَّه لا يعيده إذا فعل ذلك، وقد غفر الله له هذا الخطأ بخشيته منه وإيمانه.

وقد أنكر كثيرٌ من السلف أشياء خالفوا بها السنَّة، ولم يكفِّرهم أحدٌ من أئمة الدين، فقد كان غير واحدٍ يكذب بأحاديث ثابتة عن النبي ﷺ، ويُغلِّط رواتها؛ لما ظنه معارضًا لها من ظاهر القرآن أو أخبر خبرًا؛ كما أنكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عدَّة أخبارٍ، وأبو بكر وعمر وعليٌّ وزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم بعض الأخبار، وأنكر غير واحدٍ بعضَ الآيات التي لم يعلم أنَّها من القرآن، وهؤلاء من سادات المسلمين، وخيار أهل الجنَّة، وأفضل هذه الأمة، وقد اختلفوا اختلافًا آل بهم إلىٰ الاقتتال بالسيف والتلاعن باللسان، ومع هذا فالطائفتان من أهل العلم والإيمان مبرءون عند أهل السنَّة من الكفر والفسوق».

(١) يعني أنطق الله بذلك عباده المؤمنين من الصَّحابة، ولا يُراد بذلك عقيدة الحلول والاتِّحاد

الباب الثامن

باب ما جاء أنَّ البدعة أشدّ من الكبائر

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب ما جاء أنَّ البدعة أشد من الكبائر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن لقيتهم لأقتلنَّهم قتل عاد».

وفيه أنه ﷺ نهىٰ عن قتل أمراء الجور ما صلَّوا.

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلًا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنَّة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنَّة سيئة؛ كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»، رواه مسلم.

وله من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «**من دعا إلىٰ هدًىٰ**»، ثم قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة**»].

الشَّرْح:

تبيين الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضرر البدعة، وتحذيره منها؛ هو من النصيحة لله ولرسوله ﷺ، ولكتاب الله وسنة رسوله ﷺ،

---

(١) فضل الإسلام (ص ٢٥ – ٢٧).

وأئمة المسلمين وعامتهم.

وبيان الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تغليظ شر البدعة أكثر من الكبائر مع تحذيره منهما جميعًا؛ هو منهج علماء السنة الناصحين فقد صنَّف مصنَّفًا في التحذير من الكبائر؛ فجمع في مصنَّفاته بين التَّحذير من الأمرين جميعًا، وقد حذَّر الله من شرور الشُّبهات والشَّهوات المحرَّمة جميعًا، قال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩]، فالاستمتاع بالخلاق هو اتِّباع الهوىٰ، والخوض بالباطل هو البدع.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذان هما أصل كل شرّ وفتنة وبلاء».

وكذلك حذَّر النبيُّ ﷺ منهما جميعًا، فقال: «**إنَّ ممَّا أخشىٰ عليكم مضلَّات الهوىٰ، وشهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم**»، رواه أحمد، وهو حديث صحيح.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لأن يلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ المرءُ بكلِّ ذنب - خلا الشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -؛ خير له من أنْ يلقاه بشيء من الأهواء».

(١) بدائع التَّفسير (٢/ ٣٦٧).

(٢) مناقب الإمام الشافعي، للحافظ ابن كثير، ص(١٨٥).

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد تبيين قواعد في تغليظ الأعمال بحسب ما تقتضيه أحكام الشريعة، وبذلك يكون عند العالم وطالب العلم معايير الشريعة في تقييم الفرق والأفراد، وبنحو ذلك تكلَّم العلماء في تقييم الولاة والملوك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نجد الناس يفضِّلُون من كان من الملوك ونحوهم إنَّما يظلم نفسه بشرب الخمر والزنا أو الفواحش، ويتجنَّب ظلم الرعية ويتحرَّىٰ العدل فيهم، علىٰ من كان يتجنَّب الفواحش والخمر والزنا، وينتصب لظلم الناس في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم»[2].

وطالب العلم وهو يقرأ متون عقيدة السلف يجد أنّ من جُمل اعتقادهم وأصولها «الصبر علىٰ أئمة الجور».

قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كيف نجد نحن بألطف دلالة وأدقها وأحسنها أنه من اجتنب الشرك جميعه كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلىٰ الشرك كنسبة الصغائر إلىٰ الكبائر، فإذا وقعت الصغائر مكفَّرَةً باجتناب الكبائر، فالكبائر تقع مكفَّرةً باجتناب الشرك.

وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنىٰ، وهو قوله ﷺ فيما

---

(١) الاستقامة ص (٣٢٩).

(٢) الواجب في الشَّرع أن يكون الوالي مقيمًا للشَّرع حاكمًا بالعدل مجتنبًا ظلم نفسه ورعيَّته.

(٣) بدائع التفسير (٢/ ١٩، ٢٠).

يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**ابن آدم، إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا؛ لقيتك بقرابها مغفرة**». وقوله: «**إن الله حرَّم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»، بل محو التوحيد - الذي هو توحيد - الكبائر؛ أعظم من محو اجتناب الكبائر للصغائر».

وقال العلامة محمد بن وضاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبرني غير واحد أنَّ أسد بن موسىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب إلىٰ أسد بن الفرات رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلَم يا أخي أنَّ ما حملني علىٰ الكتاب إليك ما ذكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنَّة، وعيبك لأهل البدع، وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك، وشدَّ بك ظهرَ أهل السنة، وقوَّاك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم؛ فأذلهم الله بيدك، وصاروا ببدعتهم مستترين.

فأبشر يا أخي بثواب ذلك، واعتدَّ به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد.

وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله تعالىٰ وإحياء سنة رسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من أحيا شيئًا من سنتي كنتُ أنا وهو في الجنة كهاتين** - وضم بين أصبعيه -»، وقال: «**أيُّما داعٍ دعا إلىٰ هدًىٰ فاتُّبِع عليه؛ كان له مثل أجر من اتبعه إلىٰ يوم القيامة**»، فمتىٰ يدرك أجر هذا بشيء

(١) البدع والنهي عنها ص(٣٤-٣٧)، مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب (٦/ ٢١٧، ٢١٨).

من عمله؟!

وذُكر أيضًا أنَّ لله عند كل بدعة كِيدَ بها الإسلام وليًّا لله يذب عنها، وينطق بعلاماتها.

فاغتنم يا أخي هذا الفضل، وكن من أهله؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قال لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه إلىٰ اليمن وأوصاه: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا؛ خيرٌ لكَ من كذا وكذا**»، وأعظم القول فيه؛ فاغتنم ذلك وادعُ إلىٰ السنَّة؛ حتىٰ يكون لك في ذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمَّة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلىٰ يوم القيامة؛ كما جاء في الأثر».

وتحدَّث ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن شرور البدع، وسبب فرح الشيطان بإغواء بني آدم بها أكثر من المعاصي، فقال[1]: «لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله ﷺ، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمُّنها القول علىٰ الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد علىٰ إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وعزل من ولَّاه الله ورسوله، واعتبار ما ردَّه الله ورسوله وردّ ما اعتبره، وموالاة من عاداه ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلًا والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق علىٰ القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

(١) مدارج السالكين (١/ ١٨٦)، ط: دار الحديث - القاهرة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلىٰ كبيرها، حتىٰ ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين؛ فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمىٰ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠]».

والإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب السادس من كتاب التوحيد، باب: [من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه]، قال في مسائل الباب في المسألة الثانية:

«**فيه شاهد لكلام الصحابة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: أنَّ الشرك الأصْغر أكبر من الكبائر»[(١)].

قال شيخنا العلَّامة المجدِّد محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله: «لكلام الصحابة»؛ أي: لقولهم، وهو كذلك؛ فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا»، وذلك لأنَّ سيِّئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة؛ لأنَّ الشرك لا يُغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر؛ فإنَّها تحت المشيئة».

وبعض البدع مرقاة الكفر، ودهليز للردَّة والإلحاد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «بدعة التشيُّع التي هي مفتاح باب الشرك».

---

(١) كتاب التوحيد (ص٣٨)، ط: دار السلام.

(٢) شرح كتاب التوحيد، مطبوع ضمن مجموع فتاوىٰ الشيخ (٩/ ١٦٣).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٦١).

وبدع الرافضة الشِّركيَّة لم تقتصر علىٰ الاستغاثة بالموتىٰ، بل تغلَّظت بما يترتَّب عليه إبطال الدِّين كلّه بتكفيرهم الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، الذين هم نقلة الدِّين، وكذلك بدعة تعطيل أسماء الله وصفاته فإنَّها تؤول بالمعطِّل بأن يعبد عدمًا. وبدعة الإرجاء تؤدِّي إلىٰ ترك العمل فيكفر من لم يقم الدِّين ولم يعبد الله. وبدعة القدر منها ما يؤول إلىٰ إنكار علم الله، ومنها ما يُثبت خالقًا مع الله، كالذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد، ولذلك سمَّاهم السَّلف مجوس هذه الأمَّة.

وبدعة الحروريَّة توقع الأمَّة في: الفرقة والشَّحناء، ومفارقة الجماعة، وانقطاع السُّبل، وذهاب الأمن، وإراقة الدِّماء، واستباحة المحرَّمات.

وعبارات السلف كثيرة في بيان أن صغير البدع يؤول كبيرًا حتىٰ يُخرج من الإسلام إلىٰ الإلحاد.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «إياكم وما يُحدث الناس من البدع؛ فإنَّ الدين لا يذهب من القلوب بمرة، ولكنَّ الشيطان يحدث له بدعًا حتىٰ يخرج الإيمان من قلبه، ويوشك أن يدع الناس ما ألزمهم الله من فرضه في الصلاة والصيام والحلال والحرام، ويتكلمون في ربِّهم عَزَّوَجَلَّ، فمن أدرك ذلك الزمان فليهرب. قيل: يا أبا عبد الرحمن! فإلىٰ أين؟ قال: يهرب بقلبه ودينه ، لا يجالس أحدًا من أهل البدع».

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة (ص٥٦، رقم ١٩٦).

وقال أبو محمَّد الحسن بن علي البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٣٢٩هـ)**[١]: «احذر صغار المحدثات من الأمور؛ فإنَّ صغير البدع يعود حتىٰ يصير كبيرًا، وكذلك كلُّ بدعة أُحدثت في هذه الأمَّة، كان أوَّلها صغيرًا يشبه الحقَّ، فاغتر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعظمت وصارت دينًا يُدان بها».

فما دام المبتدع لا يأتمُّ بالكتاب والسنَّة بفهم سلف الأمَّة؛ فإن الهوىٰ يتجارىٰ به؛ لأنَّه أعرض عن تلقي دينه من حيث يهتدي، وعدل إلىٰ أهواء تُردي في البدع والضلالة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل من أراد أن يُظهر خلاف ما عليه أمَّة من الأمم من الحقِّ، إنَّما يأتيهم بالأسهل الأقرب إلىٰ موافقتهم؛ فإنَّ شياطين الإنس والجن لا يأتون ابتداءً ينقضون الأصول العظيمة، فإنهم لا يتمكَّنون».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّما الغرض التنبيه علىٰ أن دعاة الباطل المخالفين لما جاءت به الرسل يتدرَّجون من الأسهل الأقرب إلىٰ موافقة الناس إلىٰ أن ينتهوا إلىٰ هدم الدين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «المبتدع يؤول إلىٰ الشرك،

---

(١) شرح السُّنَّة (ص٦٦، ٦٧).

(٢) نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٧٩).

(٣) نقض تأسيس الجهمية (٢/ ٨٠).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٥٩، ٥٦٠).

ولم يُوجد مبتدع إلَّا وفيه نوع من الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وكان من إشراكهم بهم أنَّهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم».

ومن أعظم ما يدل علىٰ تغلظ البدعة أكثر من الكبائر مع تغلُّط الكبائر المعلوم؛ أنها قرينة الشرك بالله، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «البدعة قرينة الشرك في كتاب الله – تعالىٰ –، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، فالإثم والبغي قرينان، والشرك والبدعة قرينان».

وقال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا سبب تغليظ السلف في التحذير من البدعة والردِّ عليها[2]: «الأوَّل: غلظ البدعة في الدين في نفسها، فهي عندهم أجل من الكبائر، ويعاملون أهلها بأغلظ مما يعاملون به أهل الكبائر، كما تجد في قلوب الناس: أن الرافضي عندهم ولو كان عالمًا عابدًا أبغض وأشد ذنبًا من السني المجاهر بالكبائر.

الثاني: أن البدع تجرُّ إلىٰ الردَّة الصريحة، كما وُجد من كثير من أهل البدع.

---

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (١/ ١٣١).

(٢) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، مجموع مؤلفات الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب (٦/ ٢١٨).

فمثال البدعة التي شددوا فيها مثل تشديد النبيِّ ﷺ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح؛ خوفًا مما وقع من الشرك الصريح الذي يصير به المسلم مرتدًّا».

ومن البدع التي تؤول إلىٰ الردة بدعة الخوارج، فقد قال فيهم النبيُّ ﷺ: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة**»، وقال فيهم: «**شر قتلىٰ تحت أديم السماء**»، فهم شرٌّ من الكفار الأصليين؛ لردتهم وكفرهم وتكفيرهم المسلمين.

ومن أجل عظم شر بدعة الخوارج حذَّر الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه البدعة علىٰ وجه الخصوص في هذا الباب.

وسبب تحذير السلف من البدعة؛ هو اتباعهم مقتضىٰ الدليل من الكتاب والسُّنَّة في أحكامها علىٰ البدعة والمبتدعين، وهذا مستنبط من معنىٰ قول النبي ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة حتىٰ يدع بدعته**»، وذلك أن المبتدع سلك طريقًا يقطعه عن الله، وهو يظن أنه سالك صراط الله المستقيم، فاعوجاجه عن الصراط واعتقاده أنه سالك له يُحبط عمله؛ فالبدعة مردودة، قال النبيُّ ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ**»، متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، واللفظ لمسلم.

ومع حبوط عمله فهو ملازم لبدعته لجهله؛ يحسب أنها تُقربه إلىٰ الله، وهو ضالٌّ في اعتقاده ذلك وفي عمله البدعي، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قال سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]: «هم اليهود والنصارىٰ».

وقال عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: «هم الحَرُورِيَّة».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «معنىٰ هذا عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحَرُوريَّة كما تشمل اليهود والنصارىٰ وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء علىٰ الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا؛ فإن هذه الآية مكيَّة قبل خطاب اليهود والنصارىٰ، وقبل وجود الخوارج بالكليَّة، وإنما هي عامَّة في كلِّ من عَبَدَ الله علىٰ غير طريقة مرضيَّة، يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود».

وسبب ضلال عامة فرق المبتدعة خصوصًا الخوارج والرافضة؛ زيغُ قلوبهم، فيتبعون المتشابه من نصوص القرآن والسنَّة بأفهامهم المغلوطة، فيضلون ويُضلون.

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **عن النبي** ﷺ **في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾** [آل عمران: ٧]؛ قال: «**هم الخوارج**». رواه البيهقي[٤].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[٥]: «هذا من علامات النبوة، فإن الخوارج أوَّل من تبع ما تشابه منه، وابتغوا بذلك الفتنة، فقتلوا من أهل

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٥٥).

(٤) السنن الكبرىٰ (١٧/ ٧٠).

(٥) العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٦٢، ٦٦٣).

الإسلام ما لا يحصىٰ كثرة، وتجنَّبوا قتل أهل الشرك، وأخبارهم في ذلك شهيرة، ولذلك ورد في عدة أحاديث صحيحة أنهم شر الخلق والخليقة. وذكر الخوارج نبَّه به الحديث المذكور علىٰ مَنْ ضاهاهم في اتباع المتشابه وابتغاء تأويله، فالآية شاملة لكل مبتدع سلك ذلك المسلك».

ومن أعظم أسباب ضلال الخوارج تعالمهم بفهمهم نصوص القرآن والسنَّة بخاصة أنفسهم، ووضعها في غير مواضعها، وعدم رجوعهم إلىٰ العلماء لفهم الدين ومعاني القرآن والسنة، وهذا ما بيَّنه ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للخوارج في نشأتهم الأولىٰ، حيث قال لهم مبيِّنًا أسباب فهم الدين من غير ضلال وابتداع: «أتيتكم من عند صهر رسول الله ﷺ والصحابة، وهم الذين نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله».

ومن أدرك الصحابة ولم يستنكف عن سؤالهم عن معاني النصوص؛ هُدي للحق، إن كان قد ضل في فهمه.

قال طلق بن حبيب: «كنت أشد الناس تكذيبًا بالشفاعة، حتىٰ لقيت جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها فيها ذكر خلود النار، فقال لي: أتُراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بالسنَّة مني؟ قلت: لا. قال: فإن الذي قرأت هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبًا فعُذبوا ثم أُخرجوا من النار. وأومأ بيده إلىٰ أذنيه، فقال: صُمَّتا إذا لم أكن سمعته من رسول الله ﷺ ونحن نقرأ الذي تقرؤه»[1].

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٣٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٤/ ٣٩٤-رقم ٥٦٧١).

والخوارج أُتوا من جهلهم وسوء ظنهم بالمسلمين؛ فإنَّ النبي ﷺ كان يُعطي العطاء من يحتاج إلىٰ تأليفه، كالمطاعين في عشائرهم؛ فأنكر ذلك رجل كثُّ اللحية، مشرف الوَجْنتين، غائر العينين، ناتئ الجبين، محلوق الرأس، فقال: اتق الله يا محمَّد! فقال رسول الله ﷺ: «**فمن يُطع الله إن عصيته؟! أيأمنني علىٰ أهل الأرض ولا تأمنوني؟!**»، وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من ضئضئ هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّميَّة، لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قتل عاد**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا النوع من العطاء، وإن كان ظاهره إعطاء الرؤساء وترك الضعفاء كما يفعل الملوك؛ فالأعمال بالنيَّات، فإذا كان القصد بذلك مصلحة الدين وأهله؛ كان من جنس عطاء النبي ﷺ وخلفائه، وإن كان المقصود العلو في الأرض والفساد؛ كان من جنس عطاء فرعون، وإنما ينكره ذو الدين الفاسد؛ كذي الخُويصرة الذي أنكره علىٰ النبيِّ ﷺ حتىٰ قال فيه ما قال.

وكذا حزبه الخوارج أنكروا علىٰ أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ما قصَدَ به المصلحة من التحكيم، ومَحْو اسمه، وما تركه من سبي نساء المسلمين وصبيانهم. وهؤلاء أمر النبيُّ ﷺ بقتالهم؛ لأنَّ معهم دينًا فاسدًا لا يصلح به دنيا ولا آخرة».

---

(١) السياسة الشرعية (ص٧٥، ٧٦).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الخوارج كان مبدؤهم بسبب الدنيا، حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنَّه لم يعدل في القسمة».

ومما يدلُّ علىٰ فساد نيَّات الخوارج وسوء مقاصدهم؛ ما ذكره النبيُّ ﷺ عنهم من خصوصيتهم بما نعتهم به: «**يخرجون علىٰ حين فرقة من المسلمين**»؛ فهم انتهازيون، يستغلُّون الظروف لمفارقة الجماعة والوثوب علىٰ السلطة.

ولا يزال الخوارج والرافضة يستجلبون الناس إلىٰ الخروج علىٰ الولاة، بدعوىٰ رفع الظلم أو الانتصار لمظلوميات القرون الأولىٰ.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني[2]: «قالوا - السبئية -: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلمًا أن تجعل التشيُّعَ عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقتلهم الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والتبرِّي من تيم وعدي، وبني أمية، وبني العبَّاس، وأن عليًّا يعلم الغيب!».

والسلف لم يظلموا عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الخلافة، وهو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بايع بالخلافة للخلفاء الثلاثة قبله طواعيةً، وطاعةً لله، من غير إكراه.

قال العلَّامَة أبو الحسين محمَّد بن أحمد الملطي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٨٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٤٠).

(ت: ٣٧٧ هـ)[١]: «الذي أجمع عليه كلُّ مؤمن أنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا علىٰ بيعة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقدَّموه، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معهم، فلو علم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ له حقًّا لم يبايعه».

وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه كان يعلم أنَّ النبيَّ ﷺ لم يعهد إليه بالخلافة، قال عبد الله بن كعب بن مالك: إن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبره، أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج من عند النبيِّ ﷺ في وجعه الذي تُوفِّيَ فيه، فقال الناس: يا أبا حسن! كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ قال: «**أصبح بحمد الله بارئًا**»؛ فأخذ بيده العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: ألا تراه، أنت والله بعد الثلاث عبد العصا، والله إنِّي لأُرَىٰ رسول الله ﷺ سيتوفىٰ في وجعه، وإنِّي لأعْرفُ في وجوه بني عبد المطلب الموتَ؛ فاذهب بنا إلىٰ رسول الله ﷺ فنسأله: فيمن يكون الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصىٰ بنا. قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فيمنعنا، لا يُعطيناها الناس أبدًا، وإني لا أسألها رسول الله ﷺ أبدًا»[٢].

وقول النبي ﷺ: «خلافة النبوة بعدي ثلاثون عامًا» رواه أبو داود وصحَّحه الإمام أحمد. خبر ممن لا يكذب ولا ينطق عن الهوىٰ، المبعوث بالعدل، دالٌّ علىٰ صحَّة خلافة أبي بكر الصدِّيق، والفاروق عمر، وذي

(١) التنبيه والردُّ علىٰ أهل الأهواء والبدع (ص١٧٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب المعانقة وقول الرَّجل: كيف أصبحت؟ (ص١٠٩١- رقم ٦٢٦٦).

النورين عثمان، وأبي تراب عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، علىٰ نحو ترتيبهم في الخلافة.

وكان أوَّل ظهور للخوارج بعد عهد النبي ﷺ في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث حرضوا عليه وملؤوا القلوب من الضغائن ضده بدعوىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو خير منهم، وكانوا السبب في قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما تسلسل بعد ذلك من الشر في الأمَّة الإسلاميَّة.

فالخوارج أُتوا من الجهل وسوء القصد، وإذا اجتمع هذان في قوم أو حزب؛ فلا تسأل عن الشرِّ الذي يصيب الإسلام والمسلمين منهم.

قال الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٣٦ هـ)[1]:

«لم يختلف العلماء قديمًا وحديثًا أنَّ الخوارج قوم سوء، عصاة لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ، وإن صلَّوا وصاموا، واجتهدوا في العبادة؛ فليس ذلك بنافع لهم، وإن أظهروا الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وليس ذلك بنافع لهم؛ لأنهم قوم يتأوَّلون القرآن علىٰ ما يهوون، ويموهون علىٰ المسلمين، وقد حذَّرنا الله تعالىٰ منهم، وحذرنا النبيُّ ﷺ، وحذرناهم الخلفاء الراشدون بعده، وحذرناهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسان.

والخوارج هم الشراة الأنجاس الأرجاس، ومن كان علىٰ مذهبهم من سائر الخوارج، يتوارثون هذا المذهب قديمًا وحديثًا، ويخرجون علىٰ الأئمَّة والأمراء، ويستحلُّون قتل المسلمين؛ فأوَّل قرن طلع منهم علىٰ عهد رسول الله ﷺ: هو رجل طعن علىٰ رسول الله ﷺ وهو يقسم الغنائم

(١) الشريعة (ص٢١)، ط: دار الحديث - القاهرة.

بالجعرانة، فقال: اعدل يا محمَّد، فما أراك تعدل. فقال ﷺ: «**ويلك! فمن يعدل إذا لم أكن أعدل؟!**» فأراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتله، فمنعه النبيُّ ﷺ من قتله، وأخبر عليه الصلاة والسلام: «**إن هذا وأصحابًا له يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين**»، وأمر ﷺ في غير حديث بقتالهم، وبيَّن فضل من قتلهم أو قتلوه، ثُمَّ إنَّهم بعد ذلك خرجوا من بلدان شتىٰ، واجتمعوا وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ قدموا المدينة، فقتلوا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «لما قُتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسار عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ العراق، وحصل بين الأمة من الفتنة والفرقة يوم الجمل ثم يوم صفين ما هو مشهور؛ خرجت الخوارج المارقون علىٰ الطائفتين جميعًا، وكان النبيُّ ﷺ قد أخبر بهم وذكر حكمهم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحَّ الحديث في الخوارج من عشرة أوجه». وهذه العشرة أخرجها مسلم في «صحيحه» موافقة لأحمد وروىٰ البخاري منها عدَّة أوجه، وروىٰ أحاديثهم أهل السنن والمسانيد من وجوه أخرىٰ.

ومن أصح حديثهم حديث عليٍّ بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ففي الصحيحين عن عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثًا، فوالله لأن أخرَّ من السماء إلىٰ الأرض

(١) شرح حديث جبريل (ص٣١٤-٣٣٣).

أحبُّ إليَّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم؛ فإن الحرب خدعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة**». وفي الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ النبي ﷺ من اليمن بذهيبة في أدم مقروض لم تُحَصَّلْ من ترابها. فقال: فقسمها بين أربعة نفر، فقال رجل من أصحابه: كنا أحق بهذا من هؤلاء. قال: فبلغ ذلك النبيُّ ﷺ فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً**»، قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتق الله!! فقال: «**ويلك! أَوَلست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟!**».

قال: ثم ولىٰ الرجل، فقال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: لا، لعله أن يكون يصلي. قال خالد: «وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه». فقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**». قال: ثم نظر إليه وهو مقف فقال: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»، قال: أظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**». اللفظ لمسلم.

ولمسلم في بعض الطرق عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ ذكر قومًا يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحليق، ثم قال: «**شر الخلق** - أو: **من شر الخلق** -، **تقتلهم أدنىٰ الطائفتين إلىٰ الحق**»، قال أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنتم قتلتموهم يا أهل العراق. وفي لفظ له: «**تقتلهم أقرب الطائفتين إلىٰ الحق**».

وهذا الحديث مع ما ثبت في الصحيح عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال للحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين**»، فبيَّن أنَّ كلا الطائفتين كانت مؤمنة، وأن اصطلاح الطائفتين كما فعله الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أحب إلىٰ الله ورسوله ﷺ من اقتتالهما، وأن اقتتالهما وإن لم يكن مأمورًا به؛ فعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه أقرب إلىٰ الحق من معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه، وأن قتل الخوارج مما أمر به ﷺ، ولذلك اتفق علىٰ قتالهم الصحابة والأئمة.

وهؤلاء الخوارج لهم أسماء، يُقال لهم: الحرورية؛ لأنهم خرجوا بمكان يقال له: حروراء. ويقال لهم: أهل النهروان؛ لأنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاتلهم هناك، ومن أصنافهم: الإباضية أتباع عبد الله بن إباض، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق، و النجدات أصحاب نجدة الحروري. وهم أوَّل من كفَّر أهل القبلة بالذنوب، واستحلُّوا دماء أهل القبلة بذلك؛ فكانوا كما نعتهم النبيُّ ﷺ: «**يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان**»، وكفَّرُوا عليَّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومن والاهما، وقتلوا عليَّ

بن أبي طالب مستحلين لقتله، قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي منهم، وكان هو وغيره من الخوارج مجتهدين في العبادة، لكن كانوا جهَّالًا فارقوا السنَّة والجماعة؛ فقال هؤلاء: ما الناس إلا مؤمن وكافر، والمؤمن من فعل جميع الواجبات وترك جميع المحرَّمات؛ فمن لم يكن كذلك فهو كافر مخلد في النار. ثم جعلوا كل من خالف قولهم كذلك، فقالوا: إن عثمان وعليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ونحوهما حكموا بغير ما أنزل الله وظلموا؛ فصاروا كفارًا.

ومذهب هؤلاء باطل بدلائل كثيرة من الكتاب والسنَّة؛ فإنَّ الله سبحانه أمر بقطع يد السارق دون قتله، ولو كان كافرًا مرتدًّا لوجب قتله؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**من بدل دينه فاقتلوه**»، وقال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدىٰ ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنًا بعد إحصان، أو قتل نفس يُقتل بها**». وأمر سبحانه أن يُجلد الزاني والزانية مائة جلدة، ولو كانا كافرين لأمر بقتلهما، وأمر سبحانه بأن يُجلد قاذف المحصنة ثمانين جلدة، ولو كان كافرًا لأمر بقتله، وكان النبيُّ ﷺ يجلد شارب الخمر ولم يقتله، بل قد ثبت عنه ﷺ في «صحيح البخاري» وغيره: أن رجلًا كان يشرب الخمر وكان اسمه عبد الله حمارًا، وكان يضحك النبيَّ ﷺ، وكان كلما أُتي به إليه جلده، فأتي به إليه مرة فلعنه رجل؛ فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله**»؛ فنهىٰ عن لعنه بعينه، وشهد له بحبِّ الله ورسوله، مع أنه قد لعن شارب الخمر عمومًا، وهذا من أجود ما يُحتج به علىٰ أنَّ الأمر بقتل الشارب في الثالثة أو الرابعة منسوخ؛ لأن هذا أتي به ثلاث مرات. وقد أعيا الأئمة الكبار جواب هذا الحديث، ولكن نسخ الوجوب لا يمنع الجواز؛ فيجوز أن يقال: يجوز قتله

إذا رأىٰ الإمام المصلحةَ في ذلك؛ فإن ما بين الأربعين إلىٰ الثمانين يرجع إلىٰ اجتهاد الإمام، فيفعلها عند المصلحة كغيرها من أنواع التعزير، وكذلك صفة الضرب؛ فإنه يجوز جلد الشارب بالجريد والنعال وأطراف الثياب، بخلاف الزاني والقاذف؛ فيجوز أن يقال: قتله في الرابعة من هذا الباب.

وأيضًا فإن الله تعالىٰ قال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]؛ فقد وصفهم بالإيمان والأخوة، وأمرنا بالإصلاح بينهم. فلما شاع في الأمة أمر الخوارج، وتكلمت الصحابة فيهم، ورووا عن النبيِّ ﷺ الأحاديث فيهم، وبيَّنوا ما في القرآن من الردِّ عليهم؛ ظهرت بدعتهم في العامة.

فجاء بعدهم المعتزلة، الذين اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري، وهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزال، وأتباعهما؛ فقالوا: أهل الكبائر يخلدون في النار - كما قالت الخوارج - ولا نسميهم لا مؤمنين ولا كفارًا؛ بل فسَّاق، ننزلهم منزلة بين منزلتين. وأنكروا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وأن يخرج أحد من النار بعد أن دخلها. وقالوا: ما الناس إلا رجلان: سعيد لا يعذب أو شقي لا يُنعم، والشقي نوعان: كافر وفاسق. ولم يوافقوا الخوارج علىٰ تسميتهم كفارًا.

وهؤلاء يرد عليهم بمثل ما ردوا به علىٰ الخوارج؛ فيقال لهم: كما أنهم

قسموا الناس إلىٰ مؤمن لا ذنب له، وكافر لا حسنة له؛ قسمتم الناس إلىٰ مؤمن لا ذنب له وإلىٰ كافر وفاسق لا حسنة له، فلو كانت حسنات هذا كلها حابطة، وهو مخلد في النار؛ لاستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق، كما يستحقها المرتد؛ فإن هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق، وقد قال الله في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦]؛ فجعل ما دون الشرك معلَّقًا بمشيئته. ولا يجوز أن يحمل هذا علىٰ التائب؛ فإن التائب لا فرق في حقِّه بين الشرك وغيره، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ فهنا عمَّ وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خصَّ وعلَّق.

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥]؛ فقد قسم الله سبحانه الأمَّة التي أورثها الكتاب واصطفاها ثلاثة أصناف: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، وهؤلاء الثلاثة ينطبقون علىٰ الطبقات الثلاث المذكورة في حديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ.

ومعلوم أنَّ الظالم لنفسه إن أريد به من اجتنب الكبائر أو التائب من

جميع الذنوب، فذلك مقتصد أو سابق؛ فإنه ليس أحد من بني آدم يخلو عن ذنب؛ لكن من تاب كان مقتصدًا أو سابقًا، وكذلك من اجتنب الكبائر كُفرت عنه السَّيِّئات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. فلا بد أن يكون هناك ظالم لنفسه موعود بالجنة، ولو بعد عذاب يطهر من الخطايا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ ذكر أن ما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هو مما يجزىٰ به ويكفر به من خطاياه، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم، ولا أذًىٰ حتىٰ الشوكة يشاكها؛ إلا كفَّر الله بها من خطاياه**». وفي «المسند» وغيره أنَّه لما نزلت هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! جاءت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءًا؟! فقال: «**يا أبا بكر! ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك مما تجزون به**». وَأيضًا فقد تواترت الأحاديث عن النبيِّ ﷺ في أنه يخرج أقوام من النار بعدما دخلوها، وأن النبي ﷺ يشفع في أقوام دخلوا النار.

وهذه الأحاديث حجَّة علىٰ الطائفتين: الوعيدية الذين يقولون: من دخلها من أهل التوحيد لم يخرج منها. وعلىٰ المرجئة الواقفة الذين يقولون: لا ندري هل يدخل من أهل التوحيد النار أحد أم لا، كما يقول ذلك طوائف من الشيعة والأشعرية؛ كالقاضي أبي بكر وغيره».

ومن رُزق علمًا وإنصافًا واعتبارًا بأحوال الدُّول والولاة والناس، وما

اصطلوا به من شرور الخوارج؛ تحقَّق أن الشرَّ الذي أصابهم بخروج الخوارج كان أعظم من الشر الذي كانوا يحتملونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ ما أمر به النبيُّ ﷺ من الصبر علىٰ جور الأئمَّة، وترك قتالهم والخروج عليهم؛ هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد».

وقال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الخوارج إنَّما هم ثُوَّار، يثورون علىٰ الناس بأقل الذنوب، وهم يستبيحون أعظم الحرمات».

والخوارج كفروا خير الناس وأفضلهم إسلامًا وأعظمهم إيمانًا، قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الخوارج هم أول من أفشىٰ لعن السَّلف الصَّالح، وتكفير الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ».

وتجارت بالخوارج بدعتهم إلىٰ استحلال سفك دماء المسلمين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «أهل البدع الخوارج الذين خرجوا علىٰ عثمان وعلىٰ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا جعلوا آراءهم وأهواءَهم حاكمةً علىٰ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله ﷺ وسيرةِ الخلفاءِ الراشدين، فاستحلُّوا بذلك الفتنةَ وسفكَ الدِّماءِ وغيرَ ذلك من المنكرات».

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٥٣١).

(٢) التعليق علىٰ صحيح مسلم (٩/ ٢٩٠).

(٣) الاعتصام (١/ ٢٠٨).

(٤) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص٣٩١).

والخوارج يستفتحون علىٰ الناس بالعدل وإزالة الظلم، ويصيرون إلىٰ تكفير بعضهم فضلًا عن تكفير غيرهم من المسلمين، ويصطلي الناس بظلمهم حيث كانوا يعدونهم بالعدل. قال أبو وائل شقيق بن سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الخارجي[١]: «والله! ما عزَّ هذا لله دينا، ولا ردَّ لمظلوم مظلمة».

وقال العلَّامة أبو الحسين محمَّد بن أحمد الملطي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٣٧٧ هـ)**[٢]: «قد روي عن النَّبيِّ ﷺ بإجماع الأمَّة، لا يختلف فيه ناقل ولا راوٍ؛ أنه سمَّاكم مارقة، وأخبر عنكم، وذكركم أنكم كلاب أهل النَّار، فقيل: يا رسول الله! ما معنىٰ مارقة؟ قال: «**يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرَّميَّة**»؛ يعني: يخرجون من الدِّين، وأنتم بإجماع الأمة مارقون خارجون من دين الله، لا اختلاف بين الأمة في ذلك، مع أن أفعالكم من إهراق دماء المسلمين، وتكفيركم السَّلف والخلف، واستحلالكم لما حرَّم الله عليكم ظاهرة شاهدة عليكم بأنكم خارجون من الدِّين».

وقال العلَّامة عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الخوارج**[٣]: «إنَّهم قوم خرجوا علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وكفَّروهم، وفسَّقوهم بتحكيم الحكمين، ووضع الهدنة بين المسلمين في قتالهم، فكفَّروهم بأمور ظنُّوها ذنوبًا وسيِّئات متأوِّلين قوله تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا

(١) الزهد لأبي حاتم الرازي (ص٦٧- رقم ٨٧).

(٢) التنبيه والرَّدُّ علىٰ أهل الأهواء والبدع (ص٦٥، ٦٦).

(٣) مصباح الظَّلام (ص٤٤٥، ٤٤٦).

لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١]، قالوا: فلا حكم لأحد ولا هدنة بعد براءة».

وتكفير الخوارج للصَّحابة هو من جهلهم بدين الله، ومن ظلمهم وعدوانهم علىٰ الصَّحابة، ومن وضع النُّصوص في غير مواضعها.

فتحاكم الصَّحابة فيما بينهم هو من العمل بحكم الله لا تعطيله، ولكنَّ الخوارج لا يفقهون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، والبراءة من المشركين جعلها الخوارج في الصَّحابة الموحِّدين، فلا يستدل بقوله تعالىٰ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] في الصَّحابة المؤمنين إلَّا مخبول في عقله أعمىٰ البصيرة، يضع نصوص القرآن في غير مواضعها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ناظرهم - الخوارج - لما أنكروا تحكيم الرجال بأنَّ الله قال في الزوجين إذا خيف شقاق بينهما أن يبعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، وقال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، وأمر أيضًا أن يحكم في الصيد بجزاء ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، فمن أنكر التحكيم مطلقًا فقد خالف كتاب الله تعالىٰ، وذكر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن التحكيم في أمر أميرين لأجل دماء الأمة أولىٰ من التحكيم في أمر الزوجين والتحكيم لأجل دم الصيد».

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٠، ٩١).

وصدق شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عن الخوارج: «يستبيحون أعظم الحرمات»، فقد أرادوا من عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سبي أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وغنيمة أموال الصَّحابة، والإجهاز علىٰ جرحاهم، واتباع مدبرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أنكروا – الخوارج – علىٰ عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قتاله لأهل الجمل، ونهيه عن اتباع مدبرهم، والإجهاز علىٰ جريحهم، وغنيمة أموالهم وذراريهم.

وكانت حجة الخوارج أنه ليس في كتاب الله إلَّا مؤمن أو كافر؛ فإن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم، وإن كانوا كفارًا أُبيحت دماؤهم وأموالهم وذراريهم؛ فأجابهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بأن القرآن يدل علىٰ أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين، وبيَّن أنَّ أمهات المؤمنين حرام».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «موضع غلطهم – الخوارج – ظنهم أنَّ من كان مؤمنًا لم يبح قتاله بحال، وهذا مما ضل به من ضلَّ من الشيعة، حيث ظنوا أنَّ من قاتل عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كافر؛ فإنَّ هذا خلاف القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٨٩).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٨٩، ٩٠).

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، فأخبر سبحانه أنهم مؤمنون مقتتلون، وأمر إن بغت إحداهما علىٰ الأخرىٰ أن تقاتل التي تبغي؛ فإنه لم يكن أمر بقتال أحدهما ابتداءً، ثم أمر إذا فاءت إحداهما بالإصلاح بينهما بالعدل، وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾، فدل القرآن علىٰ إيمانهم وأخوتهم مع وجود الاقتتال والبغي، وأنَّه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به».

والأصل الذي بنىٰ عليه الخوارج والمعتزلة بدعتهم في تكفير المسلمين بالمعصية؛ اعتقادهم أنَّ الإيمان قطعة واحدة، إما يبقىٰ كله أو يذهب كله، وهذا باطل قطعًا؛ فإنَّ الإيمان ذو شعب كما قال النبي ﷺ «**الإيمان بضع وستُّون شعبة**»، رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فالذنوب والمعاصي لا تزيل الإيمان ولا الإسلام، وإنَّما الذي يزيل الإسلام نواقضه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أصل نزاع هذه الفرق في الإيمان؛ من الخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، والجهمية، وغيرهم: أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه؛ فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبيُّ ﷺ: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**». ثم قال الخوارج والمعتزلة:

(١) شرح حديث جبريل (ص٣٨٣، ٣٨٤).

الطاعات كلها من الإيمان، فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان، فذهب سائره. فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان. وقالت المرجئة والجهمية: ليس الإيمان إلا شيئًا واحدًا لا يتبعض، إمَّا مجرد تصديق القلب؛ كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان؛ كقول المرجئة، قالوا: لأنَّا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءًا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه؛ فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان. وهو قول المعتزلة والخوارج، لكن قد يكون له لوازم ودلائل، فيُستدل بعدمها علىٰ عدمه. وصار كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين».

الباب التاسع

باب ما جاء أنَّ اللّه احتجز التوبة عن صاحب البدعة

ثم قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: [باب ما جاء أنَّ الله احتجز التوبة علىٰ صاحب البدعة.

هذا مرويٌّ من حديث أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومن مراسيل الحسن. وذكر ابن وضاح عن أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان عندنا رجل يرىٰ رأيًا فتركه، فأتيت محمَّد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقلت: أشعرت أن فلانًا ترك رأيه! قال: انظر إلىٰ ماذا يتحول، إنَّ آخر الحديث أشد عليهم من أوَّله: «**يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه**». وسُئل أحمد بن حنبل عن معنىٰ ذلك، فقال: لا يُوفق لتوبة].

الشَّرْح:

لا يزال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُبيِّن ما في البدع من الأخطار، ويبيِّن ما في البدع من الشر علىٰ المبتدع نفسه، فضلًا عن إفساده لأديان الناس، ناهيك عن عظيم شرِّه علىٰ الأوطان والمجتمعات، وهذا منهج علماء وأئمَّة الإسلام؛ التحذير من البدع والمبتدعين.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أدركت الناس كلهم أصحاب سنَّة، ينهون عن أصحاب البدع، وصاحب السنة وإن قلَّ عمله فإنِّي أرجو له، وصاحب البدعة لا يرتفع له إلىٰ الله تعالىٰ عمل وإن كثر».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قال سفيان الثوري وغيره: إن

---

(١) فضل الإسلام (ص٢٨، ٢٩).

(٢) مختصر الحُجَّة علىٰ تارك المحجَّة (١/ ١٣٨).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٩).

البدعة أحب إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأنَّ البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها.

ومعنىٰ قولهم: «إنَّ البدعة لا يتاب منها»؛ أن المبتدع الذي يتَّخذ دينًا لم يشرعه الله ولا رسوله قد زُين له سوء عمله فرآه حسنًا؛ فهو لا يتوب ما دام يراه حسنًا؛ لأنَّ أوَّل التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، أو بأنَّه ترك حسنًا مأمورًا به أمر إيجاب أو استحباب؛ ليتوب ويفعله، فما دام يرىٰ فعله حسنًا وهو سيئ في نفس الأمر؛ فإنه لا يتوب».

قال المروذي: سُئل أحمد عما ورد عن النبيِّ ﷺ: «**إن الله احتجز التوبة عن صاحب بدعة**»، وحجب التوبة أيْشٍ معناه؟

فقال أحمد: لا يوفَّق ولا ييسَّر صاحب بدعة لتوبة[1].

وقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير حديث أنس: «لا يُوفق لتوبة»؛ هو معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «تأمَّل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله ﷺ، كيف تجد في ضمن هذا الأمر والخبر؛ أنَّ من ترك الاستجابة له ولرسوله ﷺ حَالَ بينه وبين قلبه؛ عقوبةً له علىٰ ترك الاستجابة؛ فإنه سبحانه يعاقب القلوب بإزاغتها عن

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٣٨٧).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٣٣٤، ٣٣٥).

هداها ثانيًا كما زاغت هي عنه أوَّلًا، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]».

فالله عَزَّوَجَلَّ عدل لا يظلم أحدًا، فمن أعرض عن أسباب الهداية، وأخذ بأسباب البدع؛ فهو الذي جنىٰ علىٰ نفسه بالغواية والزيادة في الضلالة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠].

فمن اغتذىٰ بالباطل من البدع والضلالات؛ فهو الذي أفسد علىٰ نفسه دينه وإدراكه، ومع الإصرار علىٰ ذلك والرغبة عن الانتفاع ببيان وتوضيح الناصحين المُظهرين للسنَّة، الرادّين للبدع، ربما ناوأهم وعاداهم ليبطل نور الله وحقه المبين، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فالمعرض عن الله واتباع صراطه، إذا كان جهلًا؛ فهو المعرض عن طلب العلم الواجب عليه من شرع الله، الراغب عن الاستضاءة بنور الوحي بفهم السلف، فهو الظالم لنفسه بترك تعليم دين الله، وإن كان المعرض عن اتباع صراط الله وسنَّة رسول الله ﷺ تعالمًا وكبْرًا؛ فهو المهلك لنفسه بالاستكبار عن الله، قال النبيُّ ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوًىٰ متبع، وإعجاب المرء بنفسه**».

ويشهد لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **مرفوعًا: «إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة حتىٰ يدع بدعته»**؛ حديثُ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**تُفتح أبواب الجنَّة يوم الاثنين والخميس؛ فيُغفر لكل عبد لا يُشرك**

بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا»[(١)].

وفسر الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **المشاحن بأنَّه**: «كل صاحب بدعة فارق عليها الأمَّة»[(٢)].

وأعظم البدع شحناء للمسلمين ودينهم وجماعتهم بدعةُ الرافضة والخوارج.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قد فسَّر الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الشحناء المانعة بالذي في قلبه شحناء لأصحاب النبيِّ ﷺ، ولا ريب أن هذه الشحناء أعظم جرمًا من مشاحنة الأقران بعضهم بعضًا، وعن الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: المشاحن كل صاحب بدعة فارق عليها الأمة. وكذا قال ابن ثوبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المشاحن هو التارك لسنة نبيه ﷺ، الطاعن علىٰ أمته، السافك دماءهم. وهذه الشحناء - أعني شحناء البدعة - توجب الطعن علىٰ المسلمين، واستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم؛ كبدع الخوارج، والروافض ونحوهم.

فأفضل الأعمال سلامةُ الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن علىٰ سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم

(١) رواه مسلم (٢٥٦٥).

(٢، ٣) لطائف المعارف (ص٢٧١، ٢٧٢).

ونصيحتهم، وأن يُحبَّ لهم ما يحب لنفسه، وقد وصف الله تعالىٰ المؤمنين عمومًا بأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]».

والمبتدع لا يُوفق لتوبة؛ لأنَّه أعرض عن الله، ولم يُقبل عليه باتباع صراط الله الدال علىٰ كل خير، وهو سبيل الهداية للحقِّ والسنَّة؛ فمن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ولا يظلم ربك أحدًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من ابتغىٰ الهدىٰ في غير الكتاب والسُّنَّة؛ لم يزدد من الله إلا بُعدًا».

ومن أسباب تغليظ العلماء القول في البدعة وتحذيرهم منها أنَّها تُضعف وتفسد التَّوحيد في القلوب وتُضعف الاتِّباع للنبيِّ ﷺ، وتُشغل النُّفوس بالأعمال البدعيَّة التي منشؤها فساد وضلال الاعتقاد الذي جعلها تحيد عن صراط الله المستقيم إلىٰ سبل الشَّيطان.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أمَّا البدعة فما يحصل به من الاعتقادات الفاسدة التي لا تَصلُح لله، هذا مع ما يصدُّ عنه من الاعتقادات الصالحة والعبادات النافعة، إمَّا بطريق المضادَّة، وإمَّا بطريق الاشتغال، فإنَّ النفس تشتغل وتستغني بهذا عن هذا».

والسني يزيده الله هدًىٰ؛ لإقباله علىٰ الله بالاهتداء بالكتاب والسنة، قال

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٢٠).

(٢) الكلام علىٰ مسألة السَّماع (ص٤٣٣، ٤٣٤).

تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ العبد إذا آمن بالكتاب، واهتدىٰ به مجملًا، وقَبِلَ أوامره، وصدَّق بأخباره؛ كان ذلك سببًا لهداية أخرىٰ تحصل له علىٰ التفصيل».

وقد أعذر الله وأنذر بضلال من الْتَفت عن هداه ونوره ووحيه، خصوصًا من كان ملتفتًا عن الوحي لكبرٍ في نفسه، قال تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المعنىٰ: إن يروا سبيل الله لا يتخذوه سبيلًا؛ أي: لا يسلكوه تكبُّرًا علىٰ رسلي، وتعظُّمًا عليه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾؛ وهو طريق الشيطان ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أي: فيسلكوه استسلامًا للشيطان، وذهابًا مع الهوىٰ».

ومن يكابر الحق تعالمًا فهو من أجهل الناس، قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كل إنسان يكابر الحقَّ وينابذه؛ فإنَّه أجهل الناس».

---

(١) الفوائد (ص١٨٩).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٥٩).

(٣) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٣).

وقال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة، لا خير فيها، وتجد أنَّهم يخاصمون ويجادلون وينتهون إلىٰ لا شيء، لا ينتهون إلىٰ الحق لأنَّهم لم يقصدوا إلَّا أن ينصروا ما هم عليه».

وقول ابن سيرين لأيوب - رحمهما الله - في المتحوِّل من بدعة: انظر ماذا يتحول. قد ذكر في هذا الأثر مروقه من الدين؛ استدلالًا بقول النبي ﷺ في الخوارج: «**يمرقون من الدين**»، وفي أثر آخر قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أسرع الناس ردَّةً أهل الأهواء»، وهذا معنىٰ قول السلف: «البدع بريد الكفر».

وعبارات السلف كثيرة في التحذير من البدع ببيان ما يؤول إليه حال المبتدع، قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ابتدع مبتدع إلا استحلَّ السيف»[٣].

والمبتدع تغلظ حكمه في الشرع، وتغلَّظت عقوبته؛ لأنَّه: مُحرِّف للدِّين، مُغيِّر للشرع، مفترٍ علىٰ الله الكذب، معتقد الضلالة، متعبد بالبدعة، قائل علىٰ الله بالجهالة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «من خالف أمره - ﷺ - من أجل الشبهات؛ وهم أهل الأهواء والبدع؛ فكلهم لهم نصيب من الذلة والصغار بحسب مخالفتهم لأوامره، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢، ٤) شرح السنَّة للبربهاري (ص٦٦، ٦٧).

(٤) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب (١/ ٢٤٤).

غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وأهل الأهواء والبدع كلهم مفترون علىٰ الله، وبدعتهم تتغلَّظ بحسب كثرة افترائهم عليه، وقد جعل الله من حرَّم ما أحله الله أو حلَّل ما حرَّمه الله مفتريًا عليه بالكذب، ومن نسب إلىٰ الله ما لا يجوز؛ فنسبته إليه من تمثيل أو تعطيل، أو كذَّب بأقداره؛ فقد افترىٰ علىٰ الله الكذب.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال سفيان: الفتنة أن يطبع الله علىٰ قلوبهم.

فلهذا تغلظت عقوبة المبتدع علىٰ عقوبة العاصي؛ لأنَّ المبتدع مفترٍ علىٰ الله، مخالف لأمر رسوله ﷺ لأجل هواه».

الباب العاشر

باب قول اللّه تعالى:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، إلىٰ قوله -: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧]. وقوله: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وفيه حديث الخوارج وقد تقدم، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأوْلياء، إنَّما أوليائي المتَّقون**». وفيه أيضًا عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ ذُكِرَ له أنَّ بعض الصحابة قال: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام. وقال آخر: أما أنا فلا أتزوَّج النساء. وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر. فقال ﷺ: «**لكنني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم؛ فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني**». فتأمل إذا كان بعض الصحابة لمَّا أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ، وسُمي فعله رُغوبًا عن السنة، فما ظنُّك بغير هذا من البدع؟! وما ظنك بغير الصحابة؟!].

الشَّرْح:

هذا الباب ضمَّنه الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان صحة دعوىٰ المنتسبين لسيد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقد كان أهل الكتاب يزعمون أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يهودي أو نصراني؛ فأكذبهم الله، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا

---

(١) فضل الإسلام (ص٣٠، ٣١).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وكان مشركو قريش يزعمون زورًا وكذبًا أنهم أولياء بيت الله الحرام؛ فأكذبهم الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤]؛ فهذا من أعجب الأمور؛ من نصب الأصنام حول الكعبة، وأشرك بالله، وصدَّ المسلمين عن بيت الله؛ يزعم أنه ولي بيت الله!!

بل كانوا شرًّا من ذلك، فقد زعموا ظلمًا وعدوانًا أنهم واليهود خيرٌ من رسول الله ﷺ والصحابة.

فقد قالت قريش لكعب بن الأشرف اليهودي ونفر معه من اليهود: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمَّد. فقال اليهود: ما أنتم وما محمَّد؟! فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء - الناقة عظيمة السنام -، ونسقي الماء علىٰ اللبن، ونفكُّ العُناة - الأسرىٰ -، ونسقي الحجيج، ومحمَّد قطَّع أرحامنا، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلًا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢][1].

---

(١) رواه عكرمة مسندًا إلىٰ ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه ابن حبَّان، ورواه عكرمة أيضًا مرسلًا من غير إسناده إلىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، انظر العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٨٨٦)، وأيًّا كان فإنه مرسل اعتضد بالقرآن؛ فيكون حجَّة.

والموحِّدون هم من حقَّقوا التوحيد اعتقادًا ودينًا ودعوة، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

والمسلم اصطفىٰ الله له خير الأسماء، قال تعالىٰ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

وانتساب المسلم الأعظم هو أنه عبد لله، فلا أكرم ولا أزكىٰ من هذه النسبة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «النسبة بين العبد وربه، وهي نسبة العبوديَّة المحضة، وهي آخِيَّتُه التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه».

وقال ابن القيم متممًا[2]: «هذه النسبة هي التي تنفع العبد؛ فلا ينفعه غيرها في الدُّور الثلاثة؛ أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار؛ فلا قوامَ له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة، وهي السبب الواصل بين العبد وربِّه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في صفة المسلم**[3]: «لا يتقيَّد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سُئل عن شيخه؛ قال: الرسول ﷺ. وعن طريقه؛ قال: الاتباع. وعن خرقته؛ قال: لباس

(١، ٢) الرسالة التبوكية (ص٥٧، ٥٨).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٧٤).

التقوىٰ. وعن مذهبه؛ قال: تحكيم السنَّة. وعن مقصوده ومطلبه؛ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]. وعن رباطه وعن خانكاه؛ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]».

وقد حاج الله أهل الكتاب بما يلزمهم الحجَّة؛ لأنَّهم أهل كتاب عندهم علم عن الله باتباع الحق والإيمان، ببشارة موسىٰ وعيسىٰ - عليهما السلام - بمحمَّد ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ الخطاب للنبيِّ ﷺ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارىٰ، وهم يدَّعون أنَّهم علىٰ حق، وأنهم المقيمون لشرائع الله، ومع ذلك فبعضهم يقول لبعض: لستم علىٰ شيء. كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، وكل منهم نفىٰ أن يكون صاحبه علىٰ شيء إطلاقًا، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو حَكَمٌ عدل، فأمر نبيَّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ أي: لستم علىٰ شيء من الدين».

---

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ١٥٥).

وقال العلَّامَة محمَّد جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يخفىٰ أنهم – أهل الكتاب – إذا أقاموا التوراة والإنجيل؛ آمنوا بمحمَّد – صلوات الله عليه وسلامه –. لما تتقاضىٰ إقامتهما الإيمان به؛ إذ كثر ما جاء فيهما من البشارات به، والتنويه باسمه ودينه، فإقامتهما علىٰ وجوههما تستدعي الإسلام».

وإذا أراد النصارىٰ العزَّ والتمكين والغلبة؛ فعليهم اتباع عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «نقول: نعم، صدق الله العظيم، إن الذين يتَّبعون عيسىٰ لهم النصر علىٰ الكافرين إلىٰ يوم القيامة، ولكن مَنِ الذين اتبعوا عيسىٰ؟

هم الذين ردُّوا بشارته وكذبوا من بشَّر به؟ لا، أبدًا، أنتم لم تتبعوا عيسىٰ، ووالله! لو خرج عيسىٰ لقاتلكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ الإسلام، ولهذا في آخر الزمان لا يقبل إلا الإسلام، لا يقبل الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير».

ولذلك انتقد العلماء من فسَّر «المتبعين لعيسىٰ» بالنصارىٰ، قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «أنكر هذا القول حُذَّاق العلماء،

---

(١) محاسن التأويل (٦/ ٢٠٨٧).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٣٢٣).

(٣) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ١٩٦).

وقالوا: والله ما اتبعه من ادعاه ربًّا»، وبهذا نعرف خطأ من يُسمِّي النصراني بالمسيحي؛ لأنَّ النصارىٰ خالفوا المسيح عيسىٰ ابن مريم، ولم يتبعوه.

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن نسبة النصارىٰ إلىٰ المسيح عيسىٰ ابن مريم نسبة يكذبها الواقع؛ لأنهم كفروا ببشارة المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ وهو محمَّد ﷺ، وكفرهم به كفر بعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ».

علىٰ كل حال: ما النصر إلا من عند الله، والمقصود بالنصر أن تكون كلمة الله هي العليا، ولذلك لم يكتم المسلمون ما في القرآن من بيان معانيه الدالة علىٰ أسباب النصر؛ ليأخذ بها من أراد العزَّ والتمكين.

قال العلَّامَة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قال تعالىٰ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وتقدَّم أن الله أيَّد المؤمنين منهم علىٰ الكافرين، ثم إن النصارىٰ المنتسبين لعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يزالوا قاهرين لليهود؛ لكون النصارىٰ أقرب إلىٰ اتباع عيسىٰ من اليهود، حتىٰ بعث الله نبيَّنا محمَّدًا ﷺ، فكان المسلمون هم المتبعين لعيسىٰ حقيقة؛ فأيدهم الله ونصرهم علىٰ اليهود والنصارىٰ وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارىٰ وغيرهم علىٰ المسلمين؛ حكمة من الله، وعقوبة علىٰ تركهم لاتِّباع الرسول ﷺ».

---

(١) مجموع فتاوىٰ العلَّامَة محمَّد العثيمين (٣/ ١٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٦).

وفي استدلال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله** ﷺ: «**من رغب عن سنَّتي فليس منِّي**»، تنبيهٌ إلىٰ المعيار والميزان الذي تُوزن به الأعمال، والأفراد؛ فيُعرف به السني من البدعي، فالراغب في سنة النبي ﷺ الآخذ بها والموافق لها هو السني، والراغب عنها المخالف لها هو البدعي.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن السنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه اعتقادًا واقتصادًا وقولًا وعملًا».

وما أحسن استدلال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمعنىٰ هذا الباب بحديث الخوارج[2]؛ لأنهم يقاتلون الناس علىٰ الدِّين وهم مارقون منه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**».

والخوارج في نشأتهم الأولىٰ كفَّروا من هو خير منهم، أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والخوارج يُقاتلون لردَّتهم ولكفرهم، وهذا مناط قتلهم كما دلَّ عليه القرآن، وسبب نزول الآية في المبتدعة المرتدين، والسنة في الخوارج بخصوصهم.

فالنبيُّ ﷺ قال في الذي عاب عليه المفاضلة في قسمة الغنائم يوم حنين: «**إذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر الخلق والخليقة**».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١١١).

(٢) حيث قال في هذا الباب: «وفيه حديث الخوارج»، فضل الإسلام (ص٣٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه الأحاديث كلُّها دليل علىٰ أن النبي ﷺ أمر بقتل طائفة هذا الرجل العاتب عليه، وأخبر أن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم، وقال: «**لئن أدركتم لأقتلنَّهم قتل عاد**»، وذكر أنهم شرُّ الخلق والخليقة.

وفيما رواه الترمذي وغيره عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنه قال: «**هُمْ شَرُّ قَتْلىٰ تحت أديم السماء، خير قتلىٰ من قتلوه**»، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول ذلك مرات متعددة، وتلا فيهم قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال: «**هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم**»، وتلا فيهم قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال: «**زاغوا فزيغ بهم**»، ولا يجوز أن يكون أمر بقتلهم لمجرد قتالهم الناس كما يُقاتل الصائل من قاطع الطريق ونحوه، وكما يُقاتل البغاة؛ لأنَّ أولئك إنَّما يُشرع قتالهم حتىٰ تنكسر شوكتهم، ويكفُّوا عن الفساد، ويدخلوا في الطاعة، ولا يُقتلون أينما لُقُوا ولا يُقتلون قتل عاد، وليسوا شر قتلىٰ تحت أديم السماء، ولا يُؤمر بقتلهم، وإنَّما يؤمر في آخر الأمر بقتالهم؛ فعُلم أن هؤلاء أوجَبَ قتلهم مروقُهم من الدِّين، لمَّا غلوا فيه حتىٰ مرقوا منه، كما دلَّ عليه قوله في حديث عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم**»؛ فرتَّبَ الأمر بالقتل علىٰ مروقهم؛ فعُلم أنه الموجب له».

---

(١) الصارم المسلول (ص١٨٢، ١٨٣).

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فثبت أن قتلهم لخصوص صفتهم، لا لعموم كونهم بُغَاة أو محاربين، وهذا القدر موجود في الواحد منهم كوجوده في العدد منهم، وإنما لم يقتلهم عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أوَّل ما ظهروا؛ لأنه لم يَبِن له أنهم الطائفة المنعوتة حتىٰ سفكوا دمَ ابن خبَّاب، وأغاروا علىٰ سرح – أنعام – الناس، فظهر فيهم قوله: «**يقتلون أهلَ الإسلام، ويَدَعُون أهلَ الأوثان**»، فعلم أنهم المارقون، ولأنه لو قتلهم قبل المحاربة لربما غضبت لهم قبائلهم، وتفرَّقوا علىٰ عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد كان حاجته إلىٰ مداراة عسكره واستئلافهم كحال النبيِّ ﷺ في حاجته في أوَّل الأمر إلىٰ استئلاف المنافقين».

وسبب ضلال الخوارجِ من سُوء قصدهم وجهلهم، وغلوِّهم في تكفير المسلمين، وعقائدهم الفاسدة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «غَلَوْا في الدين غُلُوًّا جازوا به حَدَّهُ؛ لنقص عقولهم، فصاروا كما تأوله علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيهم من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وأوجب لهم ذلك عقائد فاسدة ترتَّب عليها أفعال منكرة، كفَّرهم بها كثير من الأمة، وتوقَّف فيها آخرون، فلما رأىٰ النبيُّ ﷺ الرجل الطاعن

---

(١) الصارم المسلول (ص١٨٣، ١٨٤).

(٢) الصارم المسلول (ص١٨٤).

عليه في القسمة، الناسب له إلىٰ عدم العدل بجهله وغلوِّه، وظنِّه أن العَدْل هو ما يعتقده من التسوية بين جميع الناس، دون النظر إلىٰ ما في تخصيص بعض الناس وتفضيله من مصلحة التأليف، وغيرها من المصالح؛ علم أنَّ هذا أول أولئك، فإنَّه إذا طعن عليه في وجهه علىٰ سُنَّته؛ فهو يكون بعد موته وعلىٰ خلفائه أشدَّ طعنًا».

وأسعد الناس بسنة النبي ﷺ هم أصحاب الحديث، حفظوها من رواية الضعفاء، ومن تحريف المبتدعين والجاهلين.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا رأيت رجلًا من أصحاب الحديث، فكأنَّما رأيت رجلًا من أصحاب النبي ﷺ، جزاهم الله خيرًا، حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل».

وقال الإمام الشافعي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عليكم بأصحاب الحديث؛ فإنهم أكثر الناس صوابًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهلُ الحديث والسنَّة، الذين ليس لهم متبوع يتعصَّبون له إلا رسول الله ﷺ».

وهكذا الشأن بالنسبة لفرق ما بين أهل السنة وأهل البدعة من فرق

(١) مناقب الإمام الشافعي للحافظ ابن كثير (ص١٨٧، ١٨٨).

(٢) مناقب الإمام الشافعي للحافظ ابن كثير (ص١٨٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٧).

القبلة، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّما سُمُّوا أهل السنة لاتباعهم لسنة النبيِّ ﷺ».

فأهل السنة ينسبون إلىٰ السنَّة؛ لأنَّ انتسابهم حقيقي، والمبتدعة مفارقون للسنة مخالفون لها؛ فباينوا أهل السنَّة اسمًا واعتقادًا ومنهجًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أئمة السنة ليسوا مثل أئمة البدعة؛ فإن أئمَّة السنَّة تضاف السنَّة إليهم؛ لأنهم مظاهر، بهم ظهرت، وأئمة البدعة تضاف إليهم؛ لأنهم مصادر، عنهم صدرت».

فأهل السنة أئمَّة اتباع للنبي ﷺ، اتبعوا سنة النبي ﷺ التي بينت معاني القرآن وأحكام الشريعة.

أما المبتدعة فعدلوا عن الاتباع إلىٰ الابتداع بأهوائهم.

قال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فرق ما بين المتبعين والمبتدعين[٣]: «أصحاب الحديث؛ فإنَّ الكتاب عُدَّتُهم، والسنة حجَّتهم، والرسول ﷺ فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يعرجون علىٰ أهل الأهواء، ولا يلتفتون إلىٰ الآراء».

وقال العلَّامَة أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]:

---

(١) منهاج السنة (٣/ ١٢٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٦).

(٣) شرف أصحاب الحديث (ص٩).

(٤) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٢٤).

«كل من اعتقد مذهبًا فإلىٰ صاحب مقالته التي أحدثها ينتسب، وإلىٰ رأيه يستند، إلا أصحاب الحديث؛ فإنَّ صاحب مقالتهم رسولُ الله ﷺ؛ فهم إليه ينتسبون، وإلىٰ علمه يستندون، وبه يستدلون».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المخالف لما بعث به رسوله ﷺ من عبادته وطاعته، وطاعة رسوله ﷺ ؛ لا يكون متبعًا لدين شرعه الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] بل يكون متبعًا لهواه بغير هدًىٰ من الله، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]. وهم في ذلك تارة يكونون علىٰ بدعة يسمونها «حقيقة» يقدمونها علىٰ ما شرعه الله، وتارة يحتجون بالقدر الكوني علىٰ الشريعة، كما أخبر الله به عن المشركين».

وإذا كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ خير الناس، كما قال النبيُّ ﷺ؛ فمن تلقَّىٰ الدين عنهم، واتَّبع ما أخذوه عن رسول الله ﷺ؛ فهو أحقُّ الناس بمسمَّىٰ أهل السنة والجماعة، والفرقة الناجية، والطائفة المنصورة.

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «اتباعه - ﷺ - من غير ابتداع؛ لا ينطبق تمامًا إلا علىٰ الطريقة السلفية، الذين لا يبتدعون في

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) تفسير جزء عمَّ (ص١٦٧).

العبادات القولية ولا في العبادات الفعلية شيئًا في دين الله، تجدهم يتَّبعون ما جاء به الشرع».

والسلفية التي امتدحها شيخنا؛ هي اتباع منهج السلف من غير تحزُّب بدعي، قال: شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ظهرت أخيرًا إخوانيون وسلفيون وتبليغيون، وما أشبه ذلك؛ فكل هذه الفرق اجعلها علىٰ اليسار، وعليك بالأمام، وهو ما أرشد إليه النبيُّ ﷺ في قوله: «**عليكم بسنَّتي وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين**».

ولا شك أنَّ الواجب علىٰ جميع المسلمين أن يكون مذهبهم مذهب السلف، لا الانتماء إلىٰ حزب معيَّن يسمىٰ السلفيين».

وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن البيعة أو العهد عند الحزبيين بدعة، وهو من الخروج عن الجماعة[2].

وقال العلَّامة مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنَّ السلفي وكذا السُّنِّي اسمان مترادفان لمن تمسَّك بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ علىٰ فهم السلف الصالح، فعلىٰ هذا لا تصدق هاتان التسميتان علىٰ الحزبيين، ولا علىٰ المبتدعة، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]».

---

(١) شرح الأربعين النووية (ص٣٤٠).

(٢) شرح صحيح البخاري.

(٣) تقدمة إرشاد البرية إلىٰ شرعية الانتساب للسلفية.

وفي قول النبيِّ ﷺ: «خير الناس قرني»، ردٌّ علىٰ من قال: «طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم»؛ فالخيرية التي ذكرها النبيُّ ﷺ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تعمُّ دينهم وعلمهم وعقيدتهم وأخلاقهم ومنهجهم وحكمتهم.

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذه العبارة فيها حقٌّ وباطل؛ أما الحقُّ فقولهم: طريقة السلف أسلم. وأما الباطل فقولهم: طريقة الخلف أعلم وأحكم. لأن هذه الجملة الأخيرة تناقض الأولىٰ تمامًا؛ لأنه كيف تكون السلامة مع الجهل أو السفه؟! لأنَّ ضد العلم الجهل، وضد الحكمة السفه، فكيف يمكن أن تكون هناك سلامة بدون علم وحكمة؟! فمتىٰ كانت طريقة السلف أسلم؛ لزم أن تكون أعلم وأحكم، ويدلُّ علىٰ هذا أن السلف - والحمد لله - كتبهم مملوءة بتفسير آيات الصفات وأحاديثها، فلم يأتِ عنهم كلمة واحدة يقولون فيها: والله لا نعرف هذا المعنىٰ، ولا نعرف معنىٰ الآية، ولا نعرف معنىٰ الحديث. أبدًا، بل كانوا يقولون: المعنىٰ معلوم، والكيف مجهول. ويقولون: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيفٍ. فطريقة السلف إذًا أسلم وأعلم وأحكم».

وما أكثر فرق القبلة التي تنتسب إلىٰ السنة، وهم مبتدعة مفارقون للجماعة! فإن النبي ﷺ عندما ذكر اختلاف أمته وتفرُّقهم إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة؛ ذكر الفرقة الناجية ونصَّ علىٰ الجماعة؛ ليجتنب كل مسلم مفارقتها، وليلزم الجماعة وينتسب إليها حقيقة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ٩٣).

ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

والسني من أصوله تلقِّي الدين عن السلف؛ فهو أساس منهجه، ومنار طريقه، وسبيل هدايته، والبدعي ينفر من الانتساب إلىٰ السلف، ومنهم من يسبُّ السلف ويُضللهم، وما ذاك إلا لأنه مفارق لعقيدتهم ودينهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن شعار أهل البدع هو ترك انتحال اتباع السلف؛ ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة عبدوس بن مالك: «أصول السنة عندنا التمسُّك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ»».

وما من مسلم ولا عالم إلا وهو يُعظم السلف، ويعرف لهم فضلهم وقدرهم في جهادهم، وفي حفظهم للدين وأدائه لعموم المسلمين، يُزكيهم ويأخذ عنهم الدين؛ اتباعًا لقول النبيِّ ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم**»، متَّفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كل من كان بالحديث من هؤلاء أعلم، كان بمذهب السلف أعلم وله أتبع.

وإنما يوجد تعظيم السلف عند كل طائفة بقدر استنانها وقلَّة ابتداعها».

ومن جَهِلَ سنة النبي ﷺ وما بُعث به، وما كان عليه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٥٦).

والتابعون، وجهل الموافق لهم من المخالف؛ اضطربت عليه الأمور، فتجده يُبدِّع أهل السنَّة، ويُزكِّي فرق البدع والضلال.

ومن ذلك عدوان الرافضة والصوفية علىٰ أهل السنَّة ودعوة الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإصلاحية التجديديَّة، فيسمونها بـ«الوهَّابية»، علىٰ معنىٰ أنها مذهب جديد خارج عن عقيدة ودعوة السلف، والناس أعداء ما جهلوا.

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يظنون أنَّ الشيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتدع مذهبًا جديدًا، وهو صحيح؛ هو مذهب جديد بالنسبة لهم ولشركهم، لكن بالنسبة لأهل السنَّة ليس مذهبًا مستقلًّا».

وقال العلَّامَة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الوهَّابية: هي التمسُّك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والسير علىٰ هديه، وهدي خلفائه الراشدين، والتابعين لهم بإحسان، وما كان عليه السلف الصالح، وأئمة الدين والهدىٰ، أهل الفقه والفتوىٰ في باب معرفة الله، وإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، التي نطق بها الكتاب العزيز، وصحَّت بها الأخبار النبويَّة، وتلقتها صحابة رسول الله ﷺ بالقبول والتسليم؛ يثبتونها، ويؤمنون بها، ويمرونها كما جاءت، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ويتمسَّكون بما درج عليه التابعون، وتابعوهم من أهل العلم

(١) تفسير سورة المائدة (٢/ ١٢٥).

(٢) البدع وآثارها السيئة (ص ١٧-١٩).

والإيمان والتقوىٰ، وسلف الأمَّة وأئمتها، ويؤمنون بأن أصل الإيمان وقاعدته هي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمَّدًا رسول الله، وهي أصل الإيمان بالله وحده، وهي أفضل شعب الإيمان، ويعلمون بأنَّ هذا الأصل لا بُدَّ فيه من العلم والعمل والإقرار بإجماع المسلمين، ومدلوله وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، كائنًا من كان، وأن هذا هو الحكمة التي خُلقت لها الجن والإنس، وأُرسلت لها الرسل وأنزلت بها الكتب، وهي تتضمَّن كمال الذل والحب لله وحده، وتتضمن كمال الطاعة والتعظيم، وأن هذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه».

وأشدُّ فرق المبتدعة مخالفة لمن ينتسبون إليه؛ هم الرافضة؛ فإنهم ينتسبون لسادات آل البيت وهم أشد مفارقة ومخالفة لهم، قال العلَّامَة حسين النعمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هم من أبعد الناس عن هدي أهل البيت والعترة، وإن تشبعوا بزخارف الانتماء والانتساب، وأظهروا تشيعًا لذلك الجناب؛ فإنهم في ميزان الصدق والتحقيق من تصحيح تلك الأماني بمكانٍ سحيق».

وبرئ سادات آل البيت ممن انتسب إليهم وخالف سنة سيد آل البيت ﷺ، فضلًا عن المعلوم الصحيح من عقيدة ومنهج سادات آل البيت الكرام.

قال محمَّد بن علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «مَن فضَّلَنا علىٰ أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقد برئ من سنة جدنا ﷺ، ونحن خصماؤه غدًا عند الله عَزَّوَجَلَّ».

---

(١) معارج الألباب في مناهج الحق والصواب (ص٣٥).

(٢) الشرح والإبانة عن أصول الديانة (ص١٨٦- رقم ٢٢٨).

والواجب موالاة سادات آل البيت ببيان اعتقادهم الصحيح المنقول عنهم بالروايات الصحيحة؛ ليتميَّز لعموم المسلمين موافقتهم لعقيدة ودين سيد آل البيت نبي الله محمَّد ﷺ، وبذلك يُفرِّق المسلمون بين الصحيح المنقول عنهم والمكذوب علىٰ آل البيت وما ضلَّ الغلاة فيهم، ممَّا لا يرضاه سادات آل البيت أنفسهم.

قال العلَّامَة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والله ما نترك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع الرافضة، نحن أحق به منهم؛ لأنَّه منَّا ونحن منه، ولا نترك الشافعي مع الأشعرية؛ فإنَّا أحق به منهم».

وقال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو من جملة من روىٰ المسح علىٰ الخفين، ومع ذلك فإن الرافضة لا يقولون بالمسح علىٰ الخفين، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو من جملة من روىٰ تحريم المتعة، وهم لا يقولون بالتحريم، وعليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول ويعلن علىٰ منبر الكوفة بأنَّ خير هذه الأمة أبو بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهم يقولون: ليسا خير هذه الأمة، بل بعضهم يقول: إنهما ماتا علىٰ النفاق. وبعضهم يقول: إنهما كافران. وما أشبه ذلك، مما يدل علىٰ أن مبنىٰ عقيدتهم ليس علىٰ هدًىٰ - ولكنه علىٰ هوًىٰ -؛ أنهم لو كانوا يتشيَّعون لآل البيت حقيقة لما صاروا إلىٰ مخالفة عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي هو أفضل آل

---

(١) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة (١/ ٢٧٣).

(٢) تفسير سورة النساء (١/ ٢١٢).

البيت».

وحاج علماء الحق الشيعة فيما انتحلوه من العقائد الضالة، برواية صحيح المنقول عن سادات آل البيت فيما خالفوهم فيه من العقائد الضالَّة.

من أعظم ذلك الغلوِّ في القبور، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع قبْرًا مشرفًا إلا سويته، ولا صورةً إلا طمستها».

وعليُّ بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ رأىٰ رجلًا يجيء إلىٰ فرجة كانت عند قبر النبيِّ ﷺ فيدخل فيها، فنهاه، فقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ، قال: «**لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**»(١).

ورأىٰ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ سهيل بن أبي سهيل عند القبر فناداه وهو في بيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يتعشىٰ، فقال: هلم إلىٰ العشاء، فقال سهيل: لا أريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟! فقلت سلمت علىٰ النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم عليه، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلُّوا عليَّ إن صلاتكم تبلغني**

(١) رواه أبو يعلىٰ (١/ ٣٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥)، وصحَّحه الضياء المقدسي في «المختارة»، والعلَّامَة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

حيثما كنتم، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء»[(١)].

قال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة، وأهل البيت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، من رواية عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وابنه الحسن وابني ابنيه علي بن الحسين زين العابدين، والحسن بن الحسن شيخ بني هاشم في زمانه، الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار».

وهكذا صنع الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث استدلَّ بأثر علي بن الحسين في بيان عقيدة آل البيت الموافقة لسيد آل البيت محمَّد ﷺ في حماية التوحيد[(٣)].

وانظر إلىٰ مخالفة المبتدعة لمن ينتسبون إليه من أئمة السنة الأعلام؛ فالأشاعرة تنتسب إلىٰ الشافعي، وهم مخالفون له في عقيدته؛ أخذوا فقهه، وخالفوا عقيدته.

---

(١) رواه سعيد بن منصور، وأبو يعلىٰ (١/ ٣٦١)، وله شاهد عند أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبي داود (ص٢٩٦)، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الأحاديث معروفة عند أهل العلم، جاءت من وجوه حسان، يصدق بعضها بعضًا»، الإخنائية (ص٣٤٦).

(٢) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص١٩٨).

(٣) كتاب التوحيد، باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك (ص٨٩، ٩٠).

قال العلَّامَة أبو الحسن الكرجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فانتحال مذهبه مع مخالفته له في العقيدة مستنكر - والله - شرعًا وطبعًا، فمن قال: أنا شافعي الشرع، أشعري الاعتقاد. قلنا له: هذا من الأضداد، لا، بل من الارتداد؛ إذ لم يكن الشافعي أشعري الاعتقاد».

فالأشاعرة فارقوا الجماعة، وخالفوا اعتقاد أهل السنَّة، فلا تصح نسبتهم إليهم، قال العلَّامَة محمَّد بن إسماعيل الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن الأشعرية قد ابتدعت بدعًا في علم الكلام مذمومة، مخالفة لما كان عليه سلف الأمة، ففراق ما هم عليه من الابتداع مأمور به، لا نهي عنه، فليسوا بأهل السنة ولا بالجماعة».

وفي قول النبي ﷺ: «**فإنِّي أقوم وأنام، وأصوم وأفطر**» بيان وسطيَّته ﷺ، واقتصاده في الطَّاعة بما يؤدّي به حقّ جوارحه من عبوديَّة الله من غير إفراط مراعيًا حفظ بدنه، فقد أدَّىٰ حقَّ ربِّه وأعطىٰ بدنه حقَّه من الرَّاحة.

وفي قوله ﷺ: «**وأتزوج النساء**»، بيان أن النكاح والزواج سنة المرسلين، عليهم أتم الصلاة والتسليم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إن الله سبحانه قدَّر التناسل في الدنيا؛ لأنه

---

(١) الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول، بواسطة مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ١٧٥-١٧٧).

(٢) الإشاعة في بيان من نُهي عن فراقه من الجماعة (ص٧٢).

(٣) حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح (١/ ٥٣٨).

قدَّر الموت، وأخرجهم إلىٰ هذه الدار قرنًا بعد قرن، وجعل لهم أمدًا ينتهون إليه، فلولا التناسل لبطل النوع الإنساني، ولهذا الملائكة لا تتناسل؛ فإنهم لا يموتون كما تموت الإنس والجن، فإذا كان يوم القيامة أخرج الله سبحانه الناس كلهم من الأرض، وأنشأهم للبقاء لا للموت، فلا يحتاجون إلىٰ تناسل يحفظ النوع الإنساني؛ إذ هو منشأ للبقاء والدوام، فلا أهل الجنَّة يتناسلون ولا أهل النار».

الباب الحادي عشر

باب قول الله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب قول الله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «إن لكل نبي ولاة من النبيِّين، وأنا وليي منهم أبي إبراهيم وخليل ربي»**. ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم، ولا إلىٰ أموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»**.

ولهما عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: **«أنا فرطكم علىٰ الحوض، وليرفعن إليَّ رجال من أمتي، حتىٰ إذا أهويت لأناولهم؛ احتجبوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»**.

ولهما عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «وددت أنَّا قد رأينا إخواننا. قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: **أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعد**. قالوا: فكيف تعرف من لم يأتِ بعد من أمتك؟ قال: **أرأيتم لو أن رجلًا له خيل غرٌّ محجلة بين ظهراني خيل دُهْمٌ بُهْمٌ ألا يعرف خيله؟** قالوا: بلىٰ. قال: **فإنهم يأتون غرًّا محجَّلين من الوضوء، وأنا فرطهم علىٰ الحوض، ألا ليذادن رجال يوم القيامة عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلمَّ. فيقال: إنهم بدَّلوا بعدك. فأقول: سحقًا سحقًا»**.

وللبخاري: «بينما أنا قائم إذا زمرة، حتىٰ إذا عرفتهم وعرفوني خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلمَّ. فقلت: أين؟ قال: إلىٰ النار والله. قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدُّوا بعدك علىٰ أدبارهم القهقرىٰ. ثم إذا زمرة – فذكر مثله – قال: فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم».

ولهما في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **«فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]**»**.

ولهما عنه مرفوعًا: «ما من مولود يولد إلا علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتىٰ تكونوا أنتم تجدعونها». ثم قرأ أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم: ٣٠] متفق عليه.

---

(١) فضل الإسلام (ص٣٢-٣٨).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وأنا أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنَّا كنا في جاهلية وشرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: **نعم**. فقلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: **نعم، وفيه دخن**. قلت: وما دخنه؟ قال: **قوم يستنُّون بغير سُنَّتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**. قلت: فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟ قال: **نعم، فتنة عمياء، ودعاة علىٰ أبواب جهنم؛ مَنْ أجابَهم إليها قذفوه فيها**.

قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: **قوم من جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا**. قلت: يا رسول الله، ما تأمرني إن أدركتُ ذلك؟ قال: **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ علىٰ أصل شجرة حتىٰ يأتيك الموت وأنت علىٰ ذلك**»؛ أخرجاه، وزاد مسلم: «ثم ماذا؟ قال: **ثم يخرج الدجال، معه نهر ونار، فمن وقع في ناره؛ وجب أجره وحط وزره، ومن وقع في نهره؛ وجب وزره وحط أجره**. قلت: ثم ماذا؟ **قال: هي قيام الساعة**».

وقال أبو العالية: «تعلَّموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم؛ فإنه الإسلام، ولا تتحرفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا، وعليكم بسنَّة نبيِّكم، وإياكم وهذه الأهواء». انتهىٰ.

تأمَّل كلام أبي العالية هذا، ما أجلَّه! واعرف زمانه الذي يحذّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة، وخوفه علىٰ أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنَّة والكتاب؛ يتبيَّن لك معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول، والناس عنها في غفلة، وبمعرفته يتبيَّن معنىٰ الأحاديث في هذا الباب وأمثالها، وأما الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله، ويظنها في قوم كانوا فبادوا؛ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: «خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًّا، ثم قال: **هذا سبيل الله**. ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: **هذه سبل، علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**. وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. رواه أحمد والنسائي].

الشَّرْح:

لا يزال شيخ الإسلام الإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيِّن

معنىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومَنْ أولىٰ الناس بها، ولبيان معنىٰ ذلك استدل بقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وهذه الآية دالَّة علىٰ أنَّ فطرة الخلق موافقة لفطرة الشرع.

وما دل علىٰ صحته الشرع والفطرة وصريح العقل؛ فأيُّ عذر بعد ذلك في كفر الكافرين والمشركين؟! قال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قال بعض العلماء: إن هذا من باب التعجُّب، يعني: ما أعظم كفره! وإنما كان كفر الإنسان عظيمًا؛ لأن الله أعطاه عقلًا، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وأمدَّه بكل ما يحتاج إلىٰ التصديق، ومع ذلك كفر؛ فيكون كفره عظيمًا».

هذا الباب في بيان حقيقة الدِّين الحنيف وملَّة إبراهيم التي هي دعوة المرسلين جميعًا، ومن أولىٰ النَّاس بهذه الحنيفيَّة، حنيفيَّة التَّوحيد، وهو توكيد لمعنىٰ الأبواب السَّابقة؛ لأنَّه حقيقة الدِّين كلّه.

فالتَّوحيد أصل الدِّين، وأساس الملَّة، وهو شجرة الإسلام، وشرائع الإسلام تفصيل لكلمة التَّوحيد، وإقامة أركان الإسلام ومبانيه عبوديَّة لله وتوحيد له، فمن هنا وجبت العناية بشرح وتبيين التَّوحيد وحقوقه ولوازمه والدَّعوة إليه.

---

(١) تفسير جزء عم (ص٦٤).

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التوحيد العلمي أساسه إثبات صفات الكمال للربِّ تعالىٰ، ومباينته لخلقه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، والتوحيد العملي أساسه تجريد القصد بالحب والخوف، والرجاء والتوكل والإنابة، والاستعانة والاستغاثة، والعبودية بالقلب واللسان والجوارح لله وحده؛ فمدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه علىٰ هذين التوحيدين، وأقرب الخلق إلىٰ الله أقومهم بهما علمًا وعملًا، ولهذا كانت الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أقرب الخلق إلىٰ الله، وأقربهم إليه وسيلة أولو العزم، وأقربهم الخليلان، وخاتمهم سيِّد ولد آدم وأكرمهم علىٰ الله؛ لكمال توحيده وعبوديته لله؛ فهذان الأصلان قطب رحىٰ القرآن، وعليهما مداره، وبيانهما من أهم الأمور».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الله سبحانه فطر عباده علىٰ شيئين: إقرار قلوبهم به علمًا، وعلىٰ محبته والخضوع له عملًا وعبادة واستعانة؛ فهم مفطورون علىٰ العلم به والعمل له، وهو الإسلام الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: «**كل مولود يولد علىٰ الفطرة**»، وفي رواية: «**علىٰ هذه الفطرة**»، وفي الصحيحين عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل**

---

(١) الصَّواعق المرسلة علىٰ الجهميَّة والمُعطِّلة (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٢) بيان تلبيس الجهميَّة في تأسيس بدعهم الكلاميَّة (٤/ ٥٨٥).

تحسون فيها من جدعاء؟»، ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]».

فإقامة الوجه لله حنيفًا هو توحيد الله، وهو ملَّة إبراهيم، وهو الدِّين الذي اصطفاه الله لرسله وخلقه، وهو ما أمر به النبيُّون - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ذراريهم وأقوامهم، وهو البرّ الجامع لأصول الإيمان وشرائعه وحقائقه وشعبه، قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنه الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلِّقة بالجوارح والقلب وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوىٰ بعينها، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾».

---

(١) بدائع التَّفسير (١/ ٣٨٠).

واستدل الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله تعالىٰ:** ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وبقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]؛ ليبيِّن أن التوحيد دين ودعوة جميع النبيِّين عليهم السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المقصود هاهنا أن جميع الرسل كان دينهم الإسلام؛ ولهذا ثبت في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّا معاشر الأنبياء ديننا واحد**»، فإنهم كلهم متفقون علىٰ أصول التوحيد وتوابعه».

وقال الحافظ ابن رجب أيضًا[2]: «ثم ختم الله الشرائع والملل بالشريعة العامة الكاملة، الحنيفيَّة المحمَّديَّة، المحتوية علىٰ جميع محاسن الشرائع، المتضمِّنة لجميع مصالح العباد في المعاش والمعاد؛ فأكمل الله بها دينه الذي ارتضاه لنفسه».

واستدلال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله تعالىٰ:** ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]؛

(١، ٢) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٥٥٧).

فيه بيان السبب الموجب لاتباع إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أمر الله بذلك في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾، ولأن ملَّة إبراهيم هي التوحيد ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ مفارقة ملل اليهودية والنصرانيَّة لملة إبراهيم ملة التوحيد، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنه وصف صاحب الملَّة بأنه حنيفٌ غير مشرك، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد؛ فهو أولىٰ بأن يُتبع ممَّن ملته اليهودية والنصرانية؛ فإن الحنيفية والتوحيد هو دين جميع الأنبياء، الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده؛ فمن كان عليها فهو المهتدي، لا من كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فإن الحنيفية تتضمَّن الإقبال علىٰ الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذَّل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيُعبد وحده ويُطاع وحده، ولا يُجعل معه إله آخر، فمن أولىٰ بهذه الهداية: صاحب هذه الملة، أو ملة اليهودية والنصرانية؟!».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦] في إثر قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ

(١) بدائع التفسير (١/ ١٤٥).

ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ حثٌّ لليهود والنصارىٰ علىٰ الأخذ بالأسباب التي يصيرون بها علىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهي توحيد الله، وهي حنيفية التوحيد التي دعا إليها إبراهيم، وفي الآية دعوة للإيمان بالرسل جميعًا، لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم، عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم علىٰ ملة إبراهيم، وهم مهتدون، وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم؛ فليسوا من إبراهيم وملَّته في شيء، وإنَّما هم في شقاق وعداوة؛ فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأن لا يُفرق بين أحد منهم، فيؤمن ببعضهم ويُكفر ببعضهم، فمن لم يأتِ بمثل هذا الإيمان؛ فهو بريء من ملة إبراهيم، مشاق لمن هو علىٰ ملته».

وأنبياء بني إسرائيل كلهم مجمعون علىٰ اتباع عقيدة التوحيد ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والإيمان بالرسل جميعًا، واليهود ضلُّوا عن ذلك، فعبدوا العجل وقالوا: عزير ابن الله.

قال نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

ودعوة الأنبياء جميعًا واحدة، وهي الأمر بتوحيد الله والنهي عن الشرك،

---

(١) بدائع التفسير (١/ ١٤٦).

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

ومن أعظم ما يكون من حث الله لنا لاتِّباع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بيان محتوىٰ دعوته وأنها حنيفية التوحيد التي بعث الله بها رسله، وتذكير الله لنا بأبوته للخلق جميعًا، عربهم وعجمهم؛ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهي دعوة حقٍّ من نبي مرسل من الله، أبٍ لجميع الخلق مشفق عليهم، داعية لأسباب سعادتهم الدنيوية والأخرويَّة.

قال تعالىٰ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨].

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إبراهيم ﷺ هو الأب الثالث للأنبياء؛ فالأول: آدم، والثاني: نوح، والثالث: إبراهيم؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ في نوح: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، وآدم معلوم أنَّه أبو البشر، قال الله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]».

وقال تعالىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «في تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنَّهم ذريته؛ إشارةً إلىٰ الاقتداء به فإنَّه أبوهم الثاني؛ فإن الله لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلًا إلا من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]،

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٢٩٩).

(٢) عدَّة الصابرين (ص١٨٨).

فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر؛ فإنه كان عبدًا شكورًا».

واستدلال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ أموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**»؛ يبيِّن أن أصل الإيمان ومنبعه من القلب، وحقيقته باعثة علىٰ تحقيقه، فاعتقاد القلوب وعلومها وأعمالها أساس الإسلام الموجبة لإقامة شرائعه وشعائره، وهو حقيقة الدِّين كله، وهو أفضل الأعمال؛ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ سُئل: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله** ﷺ»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»، رواه البخاري.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الإيمان هو الاعتقادات القائمة بالقلوب، وأصله: الإيمان بالأصول الخمسة التي ذكرها الله في قوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فذكر الله في هذه الآية الإيمانَ بالله وملائكته وكتبه ورسله، والمصير إليه - وهو اليوم الآخر -، وهو الذي ذكره النبيُّ ﷺ لجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سؤاله عن الإيمان المقرون بالإسلام».

فعلم القلب وعقيدته مستلزم لانقياد الجوارح، وقيامها بأركان الإسلام وشعائره وشرائعه.

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٠٩).

وبأعمال القلب يُدرك المسلم فضائل ودرجات وحسنات الطاعات، إذا قصد فعلها ولم يتمكَّن من ذلك؛ لعوارض أو موانع، قال النبيُّ ﷺ: «**من سأل الله الشهادة بصدق؛ بلَّغه الله منازل الشهداء وإن مات علىٰ فراشه**»، رواه مسلم.

وبأعمال القلوب في كمال توكُّلها علىٰ الله يدخل الموحِّد الجنَّة بغير حساب، فقد قال النبيُّ ﷺ في صفة السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: «**هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلىٰ ربهم يتوكلون**»، متفق عليه.

ونية القلب سبب مضاعفة الحسنات وتكفير السيئات، فكلما عظم إخلاص القلب في التألُّه لله بعبوديته وطاعته؛ تضاعف ثواب الحسنات، قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله حرَّم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله. يبتغي بذلك وجه الله**»، رواه مسلم.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **للنبيِّ** ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»، رواه البخاري.

وقال النبي ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»، متفق عليه.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «رُبَّ عمل صغير تعظمه النيَّة، ورُبَّ عمل كبير تصغره النيَّة».

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٧١).

وقال العلَّامَة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الأعمال إنَّما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص».

فكلَّما عظم قلب المسلم بتوحيد الله علمًا واعتقادًا وعملًا تضاعفت حسناته وطاشت بالسجلَّات، كما في حديث الرجل الذي وُضعت سيئاته في كفة، وبطاقته من كلمة التوحيد في كفة؛ فطاشت بالسجلات، رواه الترمذي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك لعظم ما في قلبه من الإيمان واليقين، وإلا فلو كان كل من نطق بهذه الكلمة تكفَّر خطاياه؛ لم يدخل النار من أهل الكبائر المؤمنين - بل والمنافقين - أحدٌ، وهذا خلاف ما تواترت به الآيات والسنن»[2].

فالقلب هو الأساس، فهو منبع التوحيد والإسلام والإيمان، وهو الملك الذي تأتمر الجوارح بأمره وتنتهي بنهيه واختياره وإيثاره، قال النبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، متفق عليه.

والكافر إذا أسلم وتبدَّل اعتقاده من الكفر إلىٰ الإيمان، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ؛ يُغفر له ما تبع الكفر من أعمال بغفران توبته من الكفر والشرك، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص٢٦).

(٢) مختصر الفتاوىٰ المصرية (ص٥٧٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يقضي ما تركه من العبادات؛ لأن كل ذلك كان تابعًا للاعتقاد، فلما رجع عن الاعتقاد غُفر له ما تبعه من الذنوب».

والكافر إذا بقي علىٰ كفره؛ فإن الله يعاقبه علىٰ المباحات فضلًا عن فعل السيِّئات وترك الواجبات من حقوق كلمة التَّوحيد، حيث لم يؤدِّ حق الله فيها بتوحيده وعبوديته وشكره.

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن الكافر آثم حتىٰ في المباح، الآن الكافر يأكل ويشرب وآمِنٌ، ويلبس، وكل شيء، كل نعمة فإنه معاقب عليها، زيادة علىٰ عقوبة الكفر».

فالشأن أن يكون القلب سليمًا، وبهذا يدخل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]؛ فسلامة القلب تكون بصحة اعتقاده وعلمه وعمله وإراداته، وسلامته من الشبهات والبدع، والشهوات المحرمة، والغل والحسد للمسلمين.

---

(١) الصارم المسلول (ص١٥٥).

(٢) تفسير سورة الشورىٰ (ص٢٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «سلامة القلب المحمودة هي سلامته من الأمراض؛ كالشبهات والأخلاق الردية من: النفاق، والغلِّ، والحسد، والبخل، والجُبْن، وشهوة الزنا، والكِبر، ونحو ذلك».

ومن أعظم ما يكون من سلامة القلب «البصيرة» في معرفة الحق واعتقاده، وإيثاره علىٰ داعي الهوىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن اتباع الهوىٰ يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصدُّ عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم؛ فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأَرَتْه نفسه الحسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن؛ فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنىٰ له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكُّر أو بالعظة؟!».

ومن أعظم ما يحتاجه المسلم لصلاح دنياه وآخرته جمعية قلبه علىٰ الله، فتكون إراداته وعزائمه وهمومه وخطراته مجتمعة علىٰ قصد الله ومرضاته، وألا تتشعَّب به الهموم والإرادات والخواطر في أودية الهوىٰ والضلال.

ومن أعظم الصفات الموجبة لدخول الجنة رحمةُ القلوب وشفقتها علىٰ المسلمين، وأمَّا الغلُّ والغش والحسد للمسلمين، والكيد بهم، والأذىٰ لهم فهو ظلم، والظُّلم ظلمات يوم القيامة.

عن عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة**

(١) السياسة الشرعية (ص ١٨٩، ١٩٠).

(٢) بدائع التفسير (٢/ ٩٠).

ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِط، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قُرْبَىٰ ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق»[(١)].

وبدعة الخوارج التي هي شرُّ البدع، منشؤها من غلِّ قلوبهم علىٰ الجماعة - الراعي والرعيَّة -، ومن سلوكهم غير ما أمر الله به من معاملتهم، عدولًا عن السنة إلىٰ إنفاذ غيظ قلوبهم بإخافة السبل، والعدوان علىٰ الآمنين؛ فعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث لا يغلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**». رواه أحمد وأبو داود، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان.

وغل قلوب الخوارج والرافضة علىٰ المسلمين من أسباب حرمانهم من عفو الله ومغفرته؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيَّ ﷺ قال: «**تُفتح أبواب الجنَّة يوم الاثنين والخميس، فيُغفر لكل عبد لا يُشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظروا هذين حتىٰ يصطلحا**»، رواه مسلم[(٢)].

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المشاحن كل صاحب بدعة فارق عليها الأمَّة».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «هذه الشحناء - أعني

---

(١) رواه مسلم كتاب الجنَّة ونعيمها، باب الصِّفات التي يُعرف بها في الدُّنيا أهل الجنَّة النَّار (ص١٢٤١ - رقم ٧٢٠٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب النهي عن الشحناء (ص١١٢٤ - رقم٦٥٤٦).

(٣) لطائف المعارف (ص٢٧١، ٢٧٢).

شحناء البدعة - توجب الطعن علىٰ جماعة المسلمين، واستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم، كبدع الخوارج والروافض ونحوهم».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أيضًا**[1]: «القلب السليم هو الذي ليس فيه شيء من محبَّة ما يكرهه الله، فدخل في ذلك سلامته من الشرك الجليِّ والخفيِّ، ومن الأهواء والبدع، ومن الفسوق والمعاصي - كبائرها وصغائرها - الظاهرة والباطنة؛ كالرياء والعجب، والغل والغش، والحقد والحسد، وغير ذلك.

وهذا القلب السليم هو الذي لا ينفع يوم القيامة سواه، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]؛ إذا سلم القلب لم يسكن فيه[2] إلا الرب».

والقلب يحتاج كل وقت إلىٰ تجديد إيمانه وزيادته بالعلم النافع والعمل الصالح، وتنقيته من أخلاط الغفلة والجهل والهوىٰ والشهوات المحرَّمة؛ ليبقىٰ حيًّا يسير إلىٰ ربه سيرًا حثيثًا، حتىٰ يوافي ربَّه بموجبات رضاه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكُّر

---

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) **يعني**: لم يسكن فيه سوىٰ إرادة الله وما يرضاه، ولم يُرِدْ بذلك عقيدة الحلول والاتِّحاد، حاشاه من ذلك.

(٣) بدائع التفسير (٢/ ٩٥).

علىٰ التفكر وبالتفكُّر علىٰ التذكر، وإلا أوشكت أن تيبس، وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**». وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدَّة حاجة العباد إلىٰ ما أمر الله به من العبادات علىٰ تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلىٰ عباده؛ أن وظَّفها عليها وجعلها مادةً لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

إن الغرس والزرع النافع قد أجرىٰ الله سبحانه العادة أنه لا بُدَّ أن يخالطه دَغَل، ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه؛ كمل الغرس والزرع، واستوىٰ، وتمَّ نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكىٰ، وإن تركه أوشك أن يغلب علىٰ الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة، بحسب كثرته وقلَّته».

فالقلب حياته بأن يكون ذاكرًا لله؛ فلا يغفل عن ذكره وطاعته، وأن يكون مخلصًا لله، فأعماله وإراداته كلها لله، وأن يكون متألهًا لله خوفًا ورجاءً ومحبة وتوكلًا وإنابةً.

فللقلب ذكر وضده الغفلة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فمتىٰ غفل القلب عن ذكر الله؛ ترك الأعمال الصالحة، وإذا استولت الغفلة عليه؛ اتبع هواه إلىٰ الأعمال الطالحة.

وحقيقة العبوديَّة في القلب بحيث تكون إراداته وهمَّته وعمله لله،

متجرِّدًا عن عبودية الهوىٰ والنفس والشيطان.

وعكوف القلب علىٰ إرادة وجه الله ومحابه ومراضيه هو الأصل، فتجريد القلب من عبودية ما سوىٰ الله والتعلُّق بغير الله؛ هو حقيقة التوحيد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التماثيل جمع تمثال، وهي الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله، واشتغاله به، والركون إليه؛ عكوفٌ منه علىٰ التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف علىٰ تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم علىٰ تماثيلهم. فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفًا عليها؛ فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سمَّاه النبي ﷺ عبدًا لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»».

وحديث ورود الحوض الذي ذكره الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب فيه بيان أسباب إدراك خير الآخرة، وهو اتِّباع النبيّ ﷺ في الشَّرع الذي بُعث به، فلذلك قال النبيُّ ﷺ: «**أنا فرطكم علىٰ الحوض**».

وحرص النبي ﷺ علىٰ أمته أن يردوا حوضه؛ فيه بيان خصاله العظيمة من الرأفة والرحمة لأمته، صلوات الله وسلامه عليه.

وقول النبي ﷺ: «**وددت أنَّا قد رأينا إخواننا**»، متَّفق عليه، فيه بشارة

(١) بدائع التفسير (٢/ ١٩٩).

لإخوانه المسلمين الذين اتَّبعوه بقرَّة أعينهم برؤية نبيِّهم ﷺ في الدار الآخرة، فإنَّ الله ما جعل هذا الودَّ في قلبه إلا ليُحقِّقه له.

وفي قول الله لنبينا محمَّد ﷺ فيمن منعه من ورود الحوض: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»، رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ دليلٌ علىٰ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يعلم الغيب، وفيه دليل علىٰ أن الحدث والابتداع من أسباب الحرمان من ورود حوض النبي ﷺ.

وما شأن النَّبي ﷺ فيمن يرد حوضه إلَّا كشأن إذن الله له في الشَّفاعة، فهو لا يسقي من حوضه إلَّا من أذن له الله؛ كالشَّفاعة تمامًا، لا يشفع إلَّا لمن أذن له الله، وبهذا تظهر ربوبيَّة الله وملكه وأمره، والحوض يرده من أذن الله له من الموحِّدين المتَّبعين غير المحدثين.

قلا العلَّامة المجدِّد عبد اللَّطيف بن عبد الرَّحمن آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وقد ثبت أنَّه ﷺ قال: «**يؤخذ بأناس من أمتي ذات الشمال، فأقول: أصحابي أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**».

وقد تكلَّم بعض أهل العلم علىٰ هذا الحديث بما يخالف ما قاله هذا المعترض – عثمان بن منصور – ويردُّه، وقرَّروا: أنَّ فيه ما دلَّ عليه حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشفاعة من أنَّه ﷺ لا يشفع إلَّا بعد الإذن فيمن عُيِّن له، وحدَّ وخصَّ.

وفيه: أنَّه ﷺ لا يعلم ما يحدث بعده، وما يجري في أمته إلَّا ما أخبر به

(١) مصباح الظَّلام في الردِّ علىٰ من كذب علىٰ الشيخ الإمام (ص٣٥٢).

من بعض الجزئيات والحوادث، وأنَّ من قام به سبب يمنع الشفاعة، كالشرك بالله واتِّخاذ الأنداد معه؛ فلن تنفعه شفاعة الشافعين».

ومن أسباب الحرمان من ورود الحوض؛ الظلمُ أو المعاونة عليه، قال النبي ﷺ: «**إنه سيكون أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم علىٰ ظلمهم؛ فليس مني ولست منه، وليس يرد عليَّ الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يُعنهم علىٰ ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوض**». رواه أحمد والنسائي، وصحَّحه الترمذي وابن حبان[1].

فمن أراد أن يرد حوض النبي ﷺ يوم القيامة؛ فلينهل من سُنَّته علمًا واعتقادًا واتباعًا وعملًا ودعوة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «نصب للمؤمنين حوضًا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا، وحرم من الشرب منه هناك من حرم نفسه من الشرب من شرعه ودينه هاهنا».

وقال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحوض[3]: «يَرِدُه المؤمنون من أُمَّته، وسهولة ورودهم عليه كسهولة ورودهم علىٰ شرعه؛ جزاءً وفاقًا، فمن كان وروده علىٰ سنة رسول الله ﷺ وشرعه سهلًا، وينقاد للشرع ويُطبِّقه ما استطاع؛ فسيكون وروده لهذا الحوض سهلًا ميسرًا،

(١) وصحَّحه العلَّامَة الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (ص٣١٣).

(٢) الجواب الكافي (ص١٥٩).

(٣) شرح عقيدة أهل السنة والجماعة (ص٤١٣، ٤١٤).

والعكس بالعكس».

وقال سماحة العلَّامَة المجدِّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يُصد عنه أقوام أعرضوا عن دين الله وكفروا بالله، ولهذا يُصدون عنه، ويذادون عنه، نسأل الله السلامة والعافية».

وأسبق الناس ورودًا للحوض أسبقهم إلىٰ سنة النبي ﷺ وما بُعث به؛ لذلك قال النبي ﷺ: «**أول الناس عليَّ ورودًا فقراء المهاجرين**»، رواه أحمد من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]، وهكذا من بعدهم من كل طبقة من المسلمين السابقون السابقون في كل كرامة في الدار الآخرة.

فسنة النبي ﷺ جمعت خيري الدنيا والآخرة، فمن اعتصم بها هُدي إلىٰ صراط مستقيم، وأدرك ثواب الدُّنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «السعيد من اعتصم بكتاب الله، واتَّبع الرسول ﷺ في سنته وشريعته، والمهتدي بمناره المقتفي لآثاره؛ هو أفضل الخلق في دنياه وآخرته».

فالاعتصام بالسُّنَّة يكون ممَّن عرف قدرها، وفضلها، وثوابها، فمن عظم قدر نعمة الله عنده ببعثة محمَّد ﷺ؛ اتبعه.

---

(١) التعليقات البازية علىٰ شرح الطحاوية (١/ ٤٥٨).

(٢) صححه العلَّامَة الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة» (ص٣١٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٤٥).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «صلَّىٰ الله عليه في الأوَّلين والآخرين أفضل وأكثر وأزكىٰ ما صلىٰ علىٰ أحد من خلقه، وزكَّانا وإياكم بالصَّلاة عليه أفضل ما زكَّىٰ أحدًا من أمَّته بصلاته عليه.

والسلام عليه ورحمة الله وبركاته، وجزاه الله عنا أفضل ما جزىٰ مُرْسلًا عمَّن أرسل إليه؛ فإنه أنقذنا به من الهلكة، وجعلنا في خير أمة أُخرجت للناس، دائنين بدينه الذي ارتضىٰ واصطفىٰ به ملائكته، ومن أنعم عليه من خلقه، فلم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت ولا بطنت نِلْنا بها حظًّا في دين ودنيا، ودفع بها عنا مكروه فيهما أو في واحد منهما؛ إلا ومحمَّد ﷺ سببها، القائد إلىٰ خيرها، الهادي إلىٰ أرشدها، الذائد عن الهلكة وموارد السوء في خلاف الرشد، المنبِّه للأسباب التي تورد الهلكة، القائم بالنصيحة في الإرشاد والإنذار فيها.

فصلَّىٰ الله علىٰ محمَّد وعلىٰ آل محمَّد، كما صلىٰ علىٰ إبراهيم وآل إبراهيم، إنه حميد مجيد».

وكذَّب بالحوض ولم يؤمن به الخوارجُ وطائفة من المعتزلة، ومن كذب به فهو أحرىٰ أن لا ينال فضل ما كذَّب به.

وقد كان السلف يدعون علىٰ من أنكر الحوض أن يحرمه الله من وروده، قال أبو برزة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]: «من كذَّب به فلا سقاه الله منه».

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٢٣، ٤٢٤).

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الحوض (ص ٦٧١- رقم ٤٧٤٩).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فيهم**(١): «أَخْلِقْ بهم أن يُحال بينهم وبين وروده، كما قال بعض السلف: من كذّب بكرامة لم ينلها».

والإيمان بالحوض هو من الإيمان باليوم الآخر، وهو من علم العامة والخاصَّة، قال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «قد تركت بعدي عجائز، ما تُصلي واحدة منهن صلاةً إلا سألت ربَّها أن يوردها حوض محمَّد ﷺ»(٢).

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الأخبار التي ذكرناها في حوض النبي ﷺ توجب العلم؛ أن يعلم كنه حقيقته أنها كذلك، وعلىٰ ما وصف به نبيُّنا محمَّد ﷺ حوضه؛ فنحن به مصدقون، غير مرتابين ولا جاحدين، ونرغب إلىٰ الذي وفقنا للتصديق به - وخذل المنكرين له والمكذبين به عن الإقرار به والتصديق به؛ ليحرمهم لذَّة شربه - أن يوردنا فيسقينا منه شربةً نعدم لها ظمأ الأبد بطوله، ونسأله ذلك بتفضله».

وحوض النبيِّ ﷺ نؤمن به عقيدة تواتر نقل أخبارها الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤): «بلغني أن بعض المتأخرين أوصلها إلىٰ رواية ثمانين من الصحابة»، والنبي ﷺ ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣٧٤).

(٢) رواه أبو يعلىٰ في مسنده (٦/ ٩٦-رقم ٦٠٠)، والحاكم في مستدركه واللفظ له (١/ ٨٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة (ص٢٨٥).

(٣) السنة (ص٣٢١، ٣٢٢).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٦٩).

﴿يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، وأخباره ﷺ نتلقَّاها بالإيمان والاعتقاد الجازم علىٰ نحو ما صحَّ من الرواية عنه.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تواتر الآثار عن النبيِّ ﷺ في الحوض؛ حمل أهل السنَّة والحق - وهم الجماعة - علىٰ الإيمان به وتصديقه».

والحوض مادته من الكوثر، وهو نهر في الجنة له ميزابان يمدان الحوض.

والحوض أشدُّ بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلىٰ من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الإشباع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر[2].

وورود الحوض هو من بشارة الله للمؤمنين في عرصات يوم القيامة، فمن ورده فقد أراد الله بشارته وطمأنينته في المحشر، حتىٰ يتجاوز كل العقبات ليدخل الجنة، فيفوز برضوان الله ونعيمه.

وحديث ورود الحوض في بعض ألفاظه: «فأقول: أمتي! أمتي!».

وهذا اللفظ مع نصوص أخرىٰ؛ كقوله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»، وقوله ﷺ: «**ستفترق أمتي**»، وقوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة من يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي؛ إلا دخل النار**»، رواه مسلم؛ يدل علىٰ أن «الأمَّة» يُراد بها أمَّة الدعوة وأمة

(١) التمهيد (٢/ ٣٠٩).

(٢) النهاية في الفتن (١/ ٤١٠).

الإجابة، بحسب سياق اللفظة في نصِّها وموضوعها.

قال العلَّامَة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معنىٰ قوله: «**لأهل الكبائر من أمتي**»؛ إنَّما أراد أمته الذين أجابوه، فآمنوا به وتابوا من الشرك؛ إذ اسم الأمة قد يقع علىٰ من بُعث إليه أيضًا؛ أي أنهم أمته الذين بُعث إليهم، ومن آمن وتاب من الشرك؛ فهم أمته في الإجابة، بعدما كانوا أمته في الدعوة إلىٰ الإيمان».

وقال العلَّامَة أبو زكريا يحيىٰ بن إبراهيم السلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٥٠هـ)**[2]: «اسم الأمة يقع علىٰ ثلاثة وجوه، ينتظم مرة وينفصل أخرىٰ:

أولها: أمة الدعوة، وهي التي بُعِث إليها المبلغ؛ فلزمتها الحجَّة من مجيبٍ مقرٍّ أو عصي مُصِرّ، قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾ [الرعد: ٣٠]، وفي الخبر: «**أنا حظكم من الأنبياء، وأنتم حظي من الأمم**».

والثانية: أمة الإجابة، وهي التي شهدت له بالبلاغ والأمانة، فمنعت دمها ومالها، واستوثقت ذمتها من صدق صادق وَمُدَاجٍ منافقٍ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

والثالثة: أمة الاتِّباع، وهي التي أطاعت أمره واقْتَصَّت أثره، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وهي الفرقة الناجية من الثلاث وسبعين فرقة من هذه الأمَّة».

---

(١) التوحيد (٢/ ٦٥٨).

(٢) منازل الأئمة الأربعة (ص٨٣، ٨٤).

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «**هذه سبل، علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، رواه أحمد والنسائي؛ فيه فوائد عظيمة:

الأولىٰ: الحق هو سبيل الله؛ وما خالفه فهو باطل وضلال.

الثانية: وجوب طلب معرفة سبيل الله؛ لاتباعه، ومحاذرة سبل الشيطان والضَّلال.

الثالثة: أن الداعية لسبيل الله من الأنبياء وورثتهم؛ دعاة إلىٰ الهداية والجنَّة.

الرابعة: أن دعاة البدع شياطين تدعو إلىٰ النار.

الخامسة: أن البدع سبب تفرُّق الأمَّة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

السادسة: أن الدعوة إلىٰ صراط الله، والتحذير من سبل البدع والضلال؛ باعثه تقوىٰ الله ونصيحة الخلق، واتباع وصية الله وأمره بذلك؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

السابعة: أن سلوك الصراط المستقيم هو من توحيد الله، قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «متىٰ حقَّق الإنسان التوحيد فلابد أن

(١) تفسير سورة فُصِّلتْ (ص٤٥).

يقوم بشرائع الإسلام؛ لأنه إذا وحَّدَ الله بالقصد، وجعله هو حياته؛ فلابد أن يتجه إليه بالطريق الذي شرعه مُوصلًا إليه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن التوحيد - وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله» - هو أن يعبد الله، وهو تعالىٰ إنَّما يُعبد بما أمر به؛ فهو العمل لله بأمر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]. فكل عمل من أعمال البر فهو جزء من التوحيد، ومن العمل لله، ومن عبادة الله وتوحيده».

الفائدة الثامنة: اعتضدت سنَّة النبيِّ ﷺ في البيان وتطابقت مع القرآن في إضافة «الصراط المستقيم» إلىٰ الله سبحانه.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «سبيل الله هو شرعه؛ لأنه يهدي إليه، ويُوصل إليه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ وأضيف إلىٰ الله لسببين:

السبب الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده، وشرعه لهم.

والسبب الثاني: أنه موصل إليه.

ويُضاف «السبيل» أحيانًا إلىٰ سالك السبيل؛ فيُقال: سبيل المؤمنين،

---

(١) الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير (٣/ ١٢١).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٠٩).

كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥]. ولا تناقض بينهما؛ لأنه يُضاف إلىٰ المؤمنين باعتبار أنهم هم الذين سلكوه، وإلىٰ الله باعتبار أنه الذي شرعه، وأنَّه موصل إليه».

الفائدة التاسعة: أنَّ من استقام علىٰ صراط الله في الدنيا؛ فإن مجاوزته للصراط في الآخرة بحسب استقامته عليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من صبَّر نفسه علىٰ الاستقامة علىٰ الصراط، ولم يعرج عنه يمنة ويسرة، ولا كشف شيئًا من الستور المرخاة علىٰ جانبيه، مما تهواه النفوس من الشهوات أو الشبهات، بل سار علىٰ متن الصراط المستقيم حتىٰ أتىٰ ربَّه، وصبر علىٰ دقة ذلك؛ عرض له الصراط في الآخرة، ومن وسَّع علىٰ نفسه الصراط في الدنيا فلم يستقم علىٰ جادته، بل كشف ستوره المرخاة من جانبيه يمنة ويسرة، ودخل ممَّا شاءت نفسه من الشهوات والشبهات؛ دقَّ عليه الصراط في الآخرة، فكان عليه أدقَّ من الشَّعر».

سُئل أبو علي الجوزجاني: كيف الطريق إلىٰ الله؟

قال: أصح الطرق وأعمرها وأبعدها من الشُّبَهِ: اتِّبَاع الكتاب والسنَّة: قولًا وفعلًا، وعقدًا ونيَّةً؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤].

وسُئل: كيف طريق اتِّباع السنَّة؟

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٠٧).

قال: بمجانبة البدع، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع، بذلك أمر النبيُّ ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣][1].

وإنَّما وقع الابتداع وكثر الخلاف بعد خير القرون؛ لتركهم اتباع الكتاب والسنة، وعدولهم عنهما بما يوقع في الفرقة والخلاف والضلال؛ فنبذوا الوحي، وقدَّموا عليه معقولاتهم، قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل؛ فإنهم أسَّسوا دينهم علىٰ المعقول، وجعلوا الاتِّباع والمأثور تبعًا للمعقول، وأما أهل السُّنَّة؛ قالوا: الأصل في الدّين الاتِّباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدِّين علىٰ المعقول؛ لاستغنىٰ الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنىٰ الأمر والنَّهي، ولقال من شاء ما شاء، ولو كان الدِّين بُني علىٰ المعقول لجاز للمؤمنين أن لا يقبلوا شيئًا حتَّىٰ يعقلوا».

ومن أعظم ما بُدِّلَ به الدين وحُرِّفت به الشريعة: القياس الفاسد، والقياس والمعقول الفاسد يأتي من ضلال العقول وزللها في فهم معاني الشريعة، وإلَّا فالعقل الصريح يوافق النقل الصحيح، كما توافقه الفطرة، ولا تخالفه، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود: ١٧]، قال العلَّامَة

(١) الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص١٠٢).

(٢) الحُجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٣٢٠، ٣٢١).

عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «البيِّنة: الوحي، والشاهد: الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعَلِمَ بعقله حُسْنَه؛ فازداد بذلك إيمانًا إلىٰ إيمانه».

ومن لم يُدرك معنىٰ الشرع في نصوصه؛ فهذا لنقص علمه، وواجبه تصديق الوحي لا تكذيبه أو معارضته، قال العلَّامَة أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الوقوف مع النقل مقام الصديقين».

فالعقل خُلق ليفهم خطاب الشرع، لا ليتعالم فيُكذب وحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إن الله عَزَّوَجَلَّ بفضله وكرمه أنزل كتابه؛ فكشف به الحيرة، وأتمَّ به الحُجَّة علينا، ولم يفرِّط في شيء فيه حتَّىٰ يحوجنا إلىٰ استعمال الرَّأي والعقل، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: ٢٠، ٢١]، وقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النور: ٦٣]؛ فهذا حجَّة من الله علىٰ خلقه، دعاهم إليها ليكونوا متبعين لمن يأخذون عنه الدّين».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٧٤٣)، باختصار.

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٩).

(٣) الحجَّة في بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السنة (٢/ ٤٣٩).

وقال أبو القاسم الأصبهاني أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ الدِّين إِنَّمَا جَاءَ من قِبَل الله تَعَالَىٰ، لم يوضع عَلَىٰ عقول الرِّجَال وآرائهم، قد بَيَّن الرَّسُول - ﷺ - السُّنَّة لأمته، وأوضحها لأَصْحَابه؛ فَمن خَالف أَصْحَاب رَسُول الله - ﷺ - فِي شَيْءٍ من الدِّين فقد ضلَّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنه ما بُدِّل دين الله في الأمم المتقدمة وفي هذه الأمَّة إلا بمثل هذا القياس؛ ولهذا قيل: ما عُبدت الشمس والقمر إلَّا بالمقاييس».

وكل فرق البدع ضلُّوا بسبب تقديمهم الهوىٰ علىٰ الهدىٰ؛ فعدلوا عن الوحي المعصوم، ونبذوه وراء ظهورهم؛ اتباعًا لأهوائهم.

والحدُّ الفاصل بين السنِّي والبدعي هو أنَّ السُّنِّي أعماله صادرة عن الاتِّباع، والبدعي أعماله صادرة عن الهوىٰ، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: «أنتم في زمان قليلٌ قرَّاؤُهُ، كثير فقهاؤه، يُحفظ فيه حدود القرآن، ويُضيَّعُ حروفه، قليل من يُسأل، كثير من يعطي، يطيلون فيه الصَّلاة، ويُقْصرون فيه الخطبة، يُبْدونَ فيه أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي زمان كثير قُرَّاؤهُ، قليل فقهاؤه، يُحفظ فيه حروف القرآن ويُضيَّعُ حدوده، كثير من يسأل، قليل من يُعْطي، يطيلون

---

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السنة (٢/ ٤٤٠).

(٢) الاستقامة (ص٢٥١).

(٣) رواه مالك في الموطَّأ عن يحيىٰ بن سعيد، أنَّ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: فذكره. الموطَّأ (١/ ٢٢٤- رقم ٥٧٥) رواية أبي مصعب الزُّهري.

الخطبة ويقصرون الصَّلَاة، ويُبْدُون فيه أهواءهم قبل أعمالهم».

قال العلَّامة أبو المطَرِّف عبد الرَّحمن بن مروان القُنَازِعي الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: «يبدون فيه أعمالهم قبل أهوائهم»، يعني: يبدّون فيه الحق بما افترض عليهم قبل اتِّباعهم لأهوائهم التي تقصر بهم عن الطَّاعات واكتساب الحسنات».

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لا يُؤْمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**»، قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حديث حسن صحيح.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وصف الله المشركين باتِّباع الهوىٰ في مواضع من كتابه، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وكذلك البدع، إنَّما تنشأ من تقديم الهوىٰ علىٰ الشَّرع، ولهذا يُسمَّىٰ أهلُها أهل الأهواء.

وكذلك المعاصي، إنَّما تقعُ من تقديم الهوىٰ علىٰ محبَّة الله ومحبَّة ما يُحبُّه».

وخاصية ضلال الجهميَّة والمعتزلة وفروعهم كالأشاعرة؛ هو من تقديم معقولهم الفاسد غير الصريح علىٰ الوحي المعصوم، وخاصية

(١) تفسير الموطَّأ (١/ ٢٢٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٧، ٣٩٨).

ضلال الصوفية من تقديم أذواقهم الباطلة علىٰ الوحي المعصوم، وكلٌّ من فرق الضلالة يُسمِّي «ضلاله» الذي عارض به الوحي «حقائق».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هؤلاء - المعتزلة والصوفية - قد يسمون ما أحدثوه من البدع «حقيقة» كما يسمُّون ما يشهدون من القدر «حقيقة». وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيَّد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه ويذوقه ويجده، ونحو ذلك. وهؤلاء لا يحتجُّون بالقدر مطلقًا؛ بل عمدتهم اتباع آرائهم وأهوائهم، وجعلهم لما يرونه ويهوونه حقيقة، وأمرهم باتباعها دون اتباع أمر الله ورسوله، نظير بدع أهل الكلام من الجهمية وغيرهم، الذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفة للكتاب والسنة حقائق عقليَّة يجب اعتقادها، دون ما دلَّت عليه السمعيات. ثم الكتاب والسنة إما أن يحرفوه عن مواضعه، وإما أن يُعرضوا عنه بالكلية، فلا يتدبرونه ولا يعقلونه، بل يقولون: نفوض معناه إلىٰ الله. مع اعتقادهم نقيض مدلوله. وإذا حُقق علىٰ هؤلاء ما يزعمونه من العقليات المخالفة للكتاب والسنة؛ وجدت جهليَّات واعتقادات فاسدة، وكذلك أولئك إذا حُقق عليهم ما يزعمونه من حقائق أولياء الله المخالفة للكتاب والسنَّة؛ وجدت من الأهواء التي يتَّبعها أعداء الله لا أولياؤه.

وأصل ضلال من ضلَّ إنَّما هو بتقديم قياسه علىٰ النصِّ المنزل من عند الله، واختياره الهوىٰ علىٰ اتباع أمر الله؛ فإن الذوق والوجد ونحو ذلك هو

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٦٩، ١٧٠).

بحسب ما يحبه العبد؛ فكل محب له ذوق ووجد بحسب محبته؛ فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بيَّنَه النبيُّ ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقىٰ في النار**». وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّد نبيًّا**».

وأما أهل الكفر والبدع والشهوات؛ فكل بحسبه، قيل لسفيان بن عيينة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟! فقال: أنسيت قوله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]؟! أو نحو هذا من الكلام، فعباد الأصنام يحبون آلهتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]».

وعبارة أبي العالية «تعلَّموا الإسلام، فإذا تعلَّمتموه فلا ترغبوا عنه»، عبارة من أعلم التابعين بمعاني القرآن، ومن هنا ظهرت قيمة عبارته، ومضمونها دالٌّ علىٰ قيمتها؛ فهي وصية بلزوم الإسلام، يُوصي أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما أمر الله به في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ

تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال الحافظ أبو بكر بن أبي داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، وبعده السُّدِّي، وبعده سفيان الثوري».

ووصيَّة أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتعلُّم الإسلام وصيَّة عظيمة، فلا يمكن للمسلم أن يقيم إسلامه ويعبد ربَّه إلَّا بما شرعه، ولابُدَّ من معرفة ذلك. فيجب علىٰ المسلم أن يطلب علم دينه الذي يدين الله ويعبده به، قال الحافظ أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المسلم العاقل الذي قد عَلِمَ أن الله عَزَّوَجَلَّ قد تعبده بعبادات؛ وجب عليه أن يعبده فيها كما أمره، لا كما يريد هو، ولكن بما أوجب العلم عليه، فطلب العلم ليفقه ما تعبد الله عَزَّوَجَلَّ به من أداء فرائضه واجتناب محارمه؛ لا يسعه جهله، ولا يعذره به العلماء العقلاء في تركه».

وفي مجيء جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ النبي ﷺ بحضرة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ حثٌّ وتعليم وتوجيه لكل المسلمين إلىٰ طلب علم الدين. قال الحافظ أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنَّما سأل النبي ﷺ بحضرة

(١) تهذيب الكمال (٢/ ٤٨٩).

(٢) الأربعون حديثًا (ص١٣).

(٣) الأربعون حديثًا (ص٢٥).

أصحابه، إنَّما أراد أن يعلِّمهم أمر دينهم، فينبغي للمسلمين أن يعلموه».

والجهل يقطع الإنسان عن سلوك صراط الله المستقيم؛ فمن لم يعرفه كيف يسلكه؟!

والجهل قد يُرْكِسُ الجاهل في مضادة الحق ومحاربته؛ فيكون من أعداء الله الجاهلين الضالين.

أمَّا العلم فإنه يدلُّ علىٰ العمل الصالح ويهدي إليه، والعلم النافع والعمل الصالح هو الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]؛ فالهدىٰ العلم النافع، ودين الحق العمل الصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لم يعلم، و«حسن القصد» من أعون الأشياء علىٰ نيل العلم ودركه. و«العلم الشرعي» من أعون الأشياء علىٰ حسن القصد والعمل الصالح؛ فإن العلم قائد، والعمل سائق، والنفس حَرُونٌ، فإن ونىٰ قائدها؛ لم تستقم لسائقها، وإن ونىٰ سائقها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلم؛ حار السالك، ولم يدر أين يسلك».

فالإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب بيَّن معنىٰ الإسلام، وأمر بلزومه، وحذَّر من الردة، وحثَّ علىٰ الاعتصام بالكتاب

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٥٤٤).

والسنة، وحذَّر من البدعة، وبيَّن ما يجب علىٰ كل مسلم من سلوك الصراط المستقيم، ومحاذرة واجتناب سبل الضلال.

ومن اعتصم بالكتاب والسنة بفهم السلف، ودعا الناس إليهما، وعلَّم الخلق دين الله صافيًا من كدر البدع والضلالات؛ أظهر الله به الدين، ونصر به الحق.

قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أهل السنة في كل مقام أصح نقلًا وعقلًا من غيرهم؛ لأن ذلك من تمام ظهور ما أرسل الله به رسوله ﷺ من الهدىٰ ودين الحق؛ ليظهره علىٰ الدين كله؛ ظهوره بالحجَّة، وظهوره بالقدرة».

وكل خير تُدركه الأمَّة في دينها ودنياها؛ إنَّما هو بفضل اتباعها لصراط الله المستقيم، فما أعظم حاجة الأمَّة وضرورتها لاتباع صراط الله المستقيم؛ فاللهم اهدنا إليه، آمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الناس كلهم مضطرون إلىٰ هذا الدعاء، ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة؛ فليسوا إلىٰ شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدىٰ إلىٰ الصراط المستقيم؛ حصل النصر

(١) الاستقامة (ص١٦١).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٠٩).

والرزق، وسائر ما تطلب النفوس من السعادة، والله أعلم».

والاجتماع علىٰ كلمة التوحيد وإقامة شرائع وشعائر الإسلام وأحكامه؛ من أعظم أسباب حفظ الملك، وهذا التمكين سببه التَّوحيد وعبوديَّة الله وإقامة شرعه.

قال العلَّامَة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من الأسباب التي جعلها الله سببًا لحصول الملك: الإيمانُ والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها، والصبر وعدم التنازع؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سببٌ للاستخلاف المذكور، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦]؛ فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سببٌ للنصر علىٰ الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها تركُ الدِّين، والتفرُّق الذي أطمع فيهم الأعداء، وجعل بأسهم بينهم».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٢٠).

وواجب المسلم الاعتصام بالله من أسباب الضلال وزيغ القلوب، والردة بعد الإسلام، والغواية بعد الهداية، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وكان أكثر دعاء النبيِّ ﷺ: «**يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ طاعتك**»؛ فهذا حال رسول الله ﷺ المعصوم المسدَّد بالوحي، فما أحوجنا إلىٰ هذا الدعاء.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلىٰ العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوِّه الظاهر والباطن، وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوَّة الاعتصام به وتمكنه».

فالاعتصام بالله والتوكل عليه في الهداية هو أوثق أسباب إقامة الدين والثبات عليه، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

والإيمان بالقرآن أنه كلام رب العالمين، ووحيه المبين، ونوره المبيِّن لصراطه المستقيم؛ يوجب الائتمام به، فقد أكمله وأتم بيانه العليم الحكيم، قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فالمؤمن بتمام وكمال الشرع يتبعه، ولا يحدث فيه، ولا يسلك السبل المخالفة له.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٢).

قال العلَّامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا كان قد أتمَّه، وهذا المسلم قد اعتقده وسكن إليه، ووجد قرار القلب عليه، فبماذا يحتاج إلىٰ الرُّجوع إلىٰ دلائل العقول وقضاياها، والله أغناه عنه بفضله، وجعل له المندوحة عنه؟! لم يدخل في أمر يدخل عليه من الشُّبهة والإشكالات، ويوقعه في المهالك، بالرُّجوع إلىٰ الخواطر والمعقولات، واتِّباع الآراء في قديم الدَّهر وحديثه، وهل نجا من نجا إلا باتِّباع سنن المرسلين - عليهم الصلاة والتسليم -».

وقال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ينبغي للمرء أن يحذر محدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، والسُّنَّة إنَّما هي التَّصديق لآثار - أخبار - رسول الله - ﷺ -، وترك معارضتها بكيف، ولم، والكلام والخصومات في الدِّين والجدال محدث، وهو يوقع الشَّك في القلوب، ويمنع من معرفة الحق والصَّواب، وليس العلم بكثرة الرِّواية، وإنَّما هو الاتباع والاستعمال».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنَّ جعل القرآن إمامًا يؤتم به في أصول الدين وفروعه؛ هو دين الإسلام، وهو طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين، فلم يكن هؤلاء يقبلون من أحد قط أن

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٣٦٦).

(٢) الحجَّة في بيان المحجَّة (١/ ٤٣٧).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٤٧١، ٤٧٢).

يعارض القرآن بمعقول أو رأي يُقدِّمه علىٰ القرآن، ولكن إذا عرض للإنسان إشكال سأل حتىٰ يتبيَّن له الصواب».

واتخاذ القرآن إمامًا يكون بِرَدِّ متشابهه إلىٰ محكمه، فيأتم المسلم بأم الكتاب رادًّا إليه ما يرجع بيانه ومعناه إليه، هذه طريقة المهتدين.

وطريقة الزائغين بخلاف ذلك وعكسه؛ فإنهم يُسلطون المتشابه علىٰ المحكم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن المبطلين[1]: «سلَّطوا المتشابه علىٰ المحكم وردُّوه به، ثم ردُّوا المحكم متشابِهًا، فتارة يحتجون به علىٰ الباطل، وتارة يدفعون به الحق».

واتخاذ القرآن إمامًا يكون بحسن النيَّة في طلب الحق منه، أما الرجوع إليه لتبرير الباطل أو الإعراض عن الحق الذي فيه، من أجل تطويع نصوصه للمذاهب الباطلة؛ فهذا ليس من الائتمام بالقرآن.

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هناك من الناس من يريد اتباعَ الهوىٰ، ولا يريد اتباع الحقِّ، فيذهب إلىٰ الكتاب والسنَّة عَلَّهُ يجد ما يُبَرِّر ما ذهب إليه.

فمثلًا هناك من يُبَرِّر للاشتراكيَّة، ويبحث في القرآن والسُّنَّة عما يؤيد رأيه هذا، فإِنْ وجد ما يخالف رأيه تركه وتجاوزه إلىٰ غيره، فهذا الرجل لم

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢١١).

(٢) تفسير سورة القصص (ص٩).

يقصد الحقَّ.

وكذلك بعض الذين يُشرِّعون القوانين أو الأمور الفقهيَّة، أو ما شابه ذلك، لا يرجعون إلىٰ الكتاب والسُّنَّة إلا من أجل تبرير مواقفهم، فإذا رأوا ما يُخالفها أغمضوا أعينهم، وإن رأوا ما يُشير إليها - ولو لإبطالها - فتحوا أعينهم.

وهؤلاء لهم غرض في صدورهم في تصفُّحهم للقرآن والسنة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «العقيدة الواسطية»، وهي كلمة عظيمة المعنىٰ، قال: «من تدبَّر القرآن طالبًا للهدىٰ منه؛ تبيَّنَ له طريقُ الحقِّ».

كلمة عظيمة، فيها أمران: تدبُّر، وطلب الهدَىٰ.

فـ«**تَدَبَّرَ**»: الفعل، و«طالبًا للهُدىٰ»: النية الصالحة، «تبين له طريقُ الحقِّ»؛ جواب الشرط».

وشرائع الإسلام وشعب الإيمان كلها داعية إلىٰ الأخذ والتدين به، فعباداته تزكية للنفوس، وتألُّه لله، وصلاح للأفراد والشعوب والمجتمعات، وأحكامه هي العدل، وأخباره هي الصدق؛ قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال العلَّامَة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشريعة إنَّما سُمِّيت شريعة من حيث إنَّ الماء إذا كان حياة الأنفس في هذه الدار الدنيا، وكان لا يُوصل إليه في الأنهار إلا من

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٨/ ٣٥٣).

شرائعها؛ فسُميت الشريعة شريعة من حيث إنها موصلة للخلق إلىٰ الحقِّ، كما كانت شريعة الماء موصلة للخلق إلىٰ الماء».

وقال العلَّامَة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ صراط الله من أكبر الأدلَّة علىٰ ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده عزيز السلطان، حميد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أنَّ له ملك السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا فله الحكم علىٰ عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه».

فوصيَّة أبي العالية بلزوم الإسلام وتحذيره من الرَّغبة عنه هو حثٌّ بما أمر الله به، وهو من الحثّ علىٰ الخير،

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وهذا منهج المصلحين الناصحين للإسلام والمسلمين الدعوةُ للتمسُّك بالقرآن وإقامته والعمل به، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

والمؤمنون لا يرتابون في إسلامهم، ولا في قرآنهم، لا يزدادون بتلاوته واتباعه إلا إيمانًا، وطمأنينة ويقينًا أنه دين الحق، فالقرآن ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فعلومه ومعانيه تورث الفرح بالله وعبوديته، وهذه العبودية زكاء للمتقين، تزيد المؤمنين إيمانًا وثبوتًا علىٰ الإسلام.

---

(١) تيسيرالكريم الرحمن (٢/ ٨٣٩).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كتابه الذي هو ذكره، وما تضمَّنه من الحق الذي تطمئن إليه القلوب، وتسكن إليه النفوس، ولو كان باطلًا لم يزد القلوب إلا شكًّا وريبًا؛ فإن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة، فلو كانت كلماته وألفاظه لا تفيد اليقين بمدلولها لم تطمئنَّ به القلوب؛ فإن الطمأنينة هي سكون القلب إلىٰ الشيء ووثوقه به، وهذا لا يكون إلا مع اليقين، بل هو اليقين بعينه».

ومعاني القرآن يزداد العلماء بها يقينًا بأنه حقٌّ من عند ربنا، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

والإسلام هو القرآن وحي الله إلىٰ خلقه، والسُّنَّة بيانُ النبيِّ ﷺ للقرآن؛ فهو نور علىٰ نور، ووحي مفصل لمعاني تنزيل القرآن، وهذا الوحي جعله الله هدًىٰ للناس، يهتدون به في أمر دينهم ودنياهم، فلا يزيغ عنه إلا هالك ضال.

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أعلم خلقه أن رسول الله - ﷺ - يهدي إلىٰ صراط مستقيم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وليس لنا مع سنة رسول الله - ﷺ - من الأمر شيء إلَّا الاتِّباع والتَّسليم، ولا تُعرض علىٰ قياس ولا غيره، وكل ما سواها من قول الآدميّين تبع لها، ولا عذر لأحد يتعمَّد ترك السُّنَّة ويذهب

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٤١).

(٢) الحجَّة في بيان المحجَّة (٢/ ٣٩٨).

إلىٰ غيرها؛ لأنَّه لا حجَّة لقول أحد مع قول رسول الله - ﷺ - إذا صحَّ».

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

فالله أوحىٰ إلىٰ رسوله محمَّد ﷺ القرآن؛ ليهتدي الناس، فلا يضلون ولا يصيبهم الشقاء والعنت؛ فالقرآن هدًىٰ ورحمة؛ ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولو تُرك الناس وأهواءهم؛ لأصابهم الضلال والشقاء والعنت، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

والمسلم عقيدته ودينه ومنهجه وسلوكه وخلقه هو الإسلام؛ هذا ذكره، وهذا منهجه الذي يصبح ويمسي عليه، يسلك صراط ربِّه في معاملة الله، وفي معاملة عباد الله، وفي سعيه لدينه ودنياه؛ عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّد ﷺ رسولًا. كان حقًّا علىٰ الله أن يرضيه**»؛ رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

والمسلمون فرحون بدينهم، فخورون بإسلامهم، يقدّرون نعمة الإسلام والهداية حقَّ قدرها، نعمة هي السبب في دخولنا الجنَّة؛ لا ريب

أنَّها أعظم النعم وأفضل المنن، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، فالمسلم كلما قرأ القرآن والسنة وتديَّن واهتدىٰ بهما، وأقام شعائر وشرائع الإسلام؛ ازداد يقينًا وإيمانًا بأنه دين الحق؛ فيزداد تمسكًا به ولا يرغب عنه.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

قال العلَّامَة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ﴾؛ فعلًا، واتصافًا بما يأمر بالاتصاف به، ودعوة إليه، وحرصًا علىٰ تنفيذه في نفسك وفي غيرك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلىٰ الله وإلىٰ دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء، إذا علمت أنه حقٌّ وعدل وصدق؛ تكون بانيًا علىٰ أصل أصيل، إذا بنىٰ غيرك علىٰ الشكوك والأوهام، والظلم والجور.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ أي: فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضًا ما فيه الخير الدنيوي والأخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشرَّ ويرهبكم عنه، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه؛ هل قمتم به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجَّة عليكم، وكفرًا منكم بهذه النعمة؟».

وكيف يبتغي المسلم دينًا غير الإسلام، وهدًىٰ في غير القرآن، وفي

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨١٤).

القرآن تفصيل كل شيء؛ ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وفي القرآن بيان كل شيء؛ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؟!

وهذا القرآن الذي عجز كل مخلوق عن الإتيان بمثله؛ لا يضاهيه كتاب في لفظه ومعانيه، محتواه برهان صدقه، وأنَّ دين الإسلام دين الحق، ما قرأه بتدبُّر وإنصافٍ عاقلٌ إلَّا وشهد بصحته وأنه دين الحق، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

ومن كان إسلامه صادقًا عن عقيدة صحيحة، وعمل بأركان الإسلام ومبانيه، وإقامة شرائعه وشعائره؛ لا يبتغي غير الإسلام دينًا، وقد شبَّه النبيُّ ﷺ كراهية الردَّة للمؤمنين بكراهيتهم أن يُلقوا في النار، وهو كذلك؛ لأن الكافر أو من ارتد إلىٰ الكفر بعد الإيمان مصيره إلىٰ النار.

ففي «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحَبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يُحبَّ المرء لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار**».

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا رسخ الإيمان في القلب،

(١) فتح الباري (١/ ٥٦).

وتحقق به، ووجد حلاوته وطعمه؛ أحبَّه، وأحبَّ ثباته ودوامه والزيادة منه، وكره مفارقته، وكان كراهته لمفارقته أعظم عنده من كراهة الإلقاء في النار».

وإنما تقع الردَّة من الضالين، الذين لم يؤسِّسوا عقيدتهم علىٰ العلم الصحيح، فالمبتدعون والمتعالمون والمتفيهقون والمتكلمون المتفلسفون هم الذين يرتدون، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، فالمرتابون في دينهم هم الذين يرتدون، أما الموحِّدون المؤمنون عن اعتقاد صحيح لا يرتدون، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ومن ارتدَّ فقد أوجب لنفسه الخلود في نار جهنم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

ودين الإسلام دين الحقِّ، متىٰ قامت الأمَّة به؛ أظهرها الله وأعزَّها ونصرها، وهدىٰ بها الأمم، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد أظهره - الإسلام - الله

(١) الجامع لكلام شيخ الإسلام في التفسير (٦/ ٤٠).

علمًا وحجَّةً وبيانًا علىٰ كلِّ دين، كما أظهره قوة ونصرًا وتأييدًا، وقد امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود، وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها».

وقد كان الكفار يتمنون لو أُوحي إليهم كتاب من السماء من عند ربِّ العالمين يهتدون به؛ ففي هذا أعظم التذكير بمنَّة الله علىٰ خلقه في اصطفاء الله لهم الإسلام دينًا، والقرآن نورًا مبينًا.

قال تعالىٰ عن الكافرين: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧-١٧٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: قد كانوا يتمنَّون قبل أن تأتيهم - يا محمَّد - لو كان عندهم من يُذكِّرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولىٰ، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٦).

ولهذا قال تعالىٰ هاهنا: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾، وعيد أكيد، وتهديد شديد علىٰ كفرهم بربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتكذيبهم رسوله ﷺ».

واليهود أنفسهم شهدوا بكمال شريعة الإسلام، وما في القرآن من العلم والبيان، فقد جاء رجل من اليهود إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال له: إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت؛ لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأيُّ آية؟ قال: قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣]. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله إنِّي لأعلم اليوم الذي نزلت فيه علىٰ رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها علىٰ رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة[1].

محتوىٰ القرآن مَنْ عرفه وأنصف من نفسه، تيقَّن أنه يهدي لأحسن الاعتقاد والأقوال والأفعال، وأنه يُزَكِّي النفوس والمجتمعات، وأنه يهدي للتي هي أحسن، وأنه دين يسر، وأنَّ أحكامه مبنيَّة علىٰ رعاية المصالح، واجتناب المفاسد؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالىٰ: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٦]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]:

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (ص١١-رقم ٤٥)، ومسلم، كتاب التفسير، باب في تفسير آيات متفرقة (ص١٣٠٥ - رقم ٧٥٢٥).

(٢) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ٨٤٦).

«إن ما بعث الله به نبيَّه محمَّدًا ﷺ من الكتاب والحكمة يجمع مصالح العباد في المعاش والمعاد علىٰ أكمل وجه».

وكلُّ من تحقَّق بمحتوىٰ القرآن؛ عَلِم كمال من أوحاه إلىٰ نبيِّه ﷺ، وازداد إيمانًا به، ويقينًا بكمال من أحكمه لفظًا ومعنًىٰ وعقيدة، وعبادة وتشريعًا، صالحًا لكل الناس علىٰ مرِّ الدهور والعصور، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من تأمل خطاب القرآن وألفاظه، وجلالة المتكلم به وعظمة ملكه، وما أراد به من الهداية العامة لجميع الأمم قرنًا بعد قرن إلىٰ آخر الدهر، وأنه جعله إنذارًا لكلِّ من بلغه من المكلفين؛ لم يخف عليه أنَّ خطابه العام إنَّما جُعل بإزاء أفعال حسنة محمودة، وأخرىٰ قبيحة مذمومة».

ومن رغب عن الإسلام واتبع الهوىٰ؛ فقد رغب عن ولاية الله ونصره، وأيُّ خسران أعظم من هذا؟! قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وهذا من أعظم ما خشيه النبيُّون - عليهم السلام - إن لم يتولَّوا الله بالاعتصام بشرعه، قال نبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكفار قومه: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

فمن أراد النصر والهداية فليعتصم بالله وحبله، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٧٠٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الاعتصام: افتعال من العصمة، وهو التمسُّك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف؛ فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء، ومنه سُميت القلاع: العواصم؛ لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية علىٰ الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسَّك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة؛ فإن السائر إلىٰ الله كالسائر علىٰ طريق نحو مقصده؛ فهو محتاج إلىٰ هداية الطريق، والسلامة فيها، فلا يصل إلىٰ مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له؛ فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلىٰ الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعُدَّة والسلاح، والمادة التي يسلم بها في طريقه».

وحثُّ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ لزوم الإسلام، والاتباع للنبيِّ ﷺ؛ لأنَّهما أعظم النعم، وتحذيره من الكفر والبدع؛ لأنهما مفسدان للدين، من موجبات العذاب في النار؛ قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ما أدري أي النعمتين عليَّ أعظم: أن هداني للإسلام أو عافاني من الأهواء».

---

(١) بدائع التفسير (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) مختصر الحجَّة علىٰ تارك المحجَّة (١/ ٢٨٩).

وقال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ما أدري أي النعمتين عليَّ أفضل: أن هداني للإسلام، أو لم يجعلني حروريًّا».

فالمسلمون فرحون بإسلامهم، يشكرون الله علىٰ هذه النعمة العظيمة، التي لا توازيها نعمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ فهم لا يرغبون عنها كفرًا ولا ردةً، نعمة الهداية لأسباب دخول الجنة يشكرونها ولا يكفرونها، بل يشكرون الله علىٰ هذا الاصطفاء.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من حصل له نصيب من دين الإسلام؛ فقد حصل له الفضل العظيم، وقد عظمت عليه نعمة الله، فما أحوجه إلىٰ القيام بشكر هذه النعمة، وسؤاله دوامها والثبات عليها إلىٰ الممات، والموت عليها، فبذلك تتم النعمة».

فالإسلام، والقرآن، والرسول محمَّد ﷺ المُبلِّغ عن الله؛ أعظم النعم، وأفضل المنن من الله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالخير الدُّنيوي والبرزخي والأخروي كُلُّه في اتِّباع القرآن والاهتداء به، والضَّلال والشَّقاء والعذاب في الرَّغبة عنه واتِّباع الأهواء.

---

(١) تهذيب الكمال (٢/ ٤٨٩).

(٢) لطائف المعارف (ص١٦٩).

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّما سميت الأهواء؛ لأنها تهوي بصاحبها في النار».

(١) مختصر الحجَّة علىٰ تارك المحجَّة (١/ ٢٩٠).

الباب الثاني عشر

باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء.

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] الآية. وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء**» رواه مسلم، ورواه أحمد من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه: قيل من الغرباء؟ قال: «**النّزاع من القبائل**». وفي رواية: «**الغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس**». ورواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «**فطوبىٰ يومئذ للغرباء إذا فسد الناس**».

وللترمذي من حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جده: «**فطوبىٰ للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي**».

وعن أبي أمية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** سألت أبا ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيف تقول في هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتىٰ إذا رأيتم شحًّا مطاعًا، وهوًىٰ متبعًا، ودنيًا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بنفسك ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض علىٰ الجمر؛ للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**». قلنا: منا أم منهم؟ قال: «**بل منكم**»، رواه أبو داود والترمذي.

وروىٰ ابن وضاح معناه من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظه: «**إن من بعدكم أيامًا الصابر فيها المتمسِّك بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم**». ثم قال: أنبأنا محمَّد بن سعيد، أنبأنا أسد قال: نا سفيان بن عيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد أخي الحسن يرفعه: قلت لسفيان: عن النبي ﷺ؟ قال: نعم، قال: «**إنكم اليوم علىٰ بيِّنة من ربكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في الله، ولم تظهر فيكم السكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب العيش. وستحولون عن ذلك فلا تأمرون بالمعروف، ولا تنهون عن المنكر، ولا تجاهدون في الله، وتظهر فيكم السكرتان، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنَّة له أجر خمسين**». قيل منهم؟ قال: «**لا، بل منكم**». وله بإسناد عن المعافري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبىٰ للغرباء الذين يمسكون بكتاب الله حين يُترك، ويعملون بالسنة حين تطفأ**»].

الشَّرْح:

هذا الباب فيما جاء في غربة الإسلام متعاضد مع ما سبقه من الأبواب

(١) فضل الإسلام (ص٣٩-٤١).

في الحثِّ علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنة، ذكر فيه الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ صفة الغرباء وفضلهم، وأبواب كتاب «فضل الإسلام» للإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلها في بيان حقيقة الإسلام وملَّة إبراهيم، وفضل الاعتصام بالكتاب والسنَّة، والتحذير من البدعة.

ونبينا محمَّد ﷺ بُعث بتجديد ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ الناس في مكة ومن حولها كانوا علىٰ ملة إبراهيم، فحرَّف هذه الملَّة عمرو بن لحي الخزاعي، وجلب الشرك من الشام إلىٰ مكة؛ فتغيَّرت ملة إبراهيم، وعُبدت الأصنام، قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «بعث الله محمَّدًا ﷺ يُجدِّد لهم دين أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ».

وورثة الأنبياء من الأئمة المجدِّدين، والعلماء المصلحين؛ يقومون بحفظ الدين وتجديده وتعليمه وإحيائه، قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله**»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كل منهم يقوم مقام الأنبياء في

(١) كشف الشبهات (ص٢٩)، مطبوع ضمن «متون التوحيد والعقيدة»، ط: دار الآثار – القاهرة.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق**»، (ص١٢٥٩ – رقم ٧٣١١)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحقِّ**» (ص٨٥ – رقم ٤٩٥٠).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٩٧).

القدر الذي ناب عنهم فيه، هذا في العلم والمقال، وهذا في العبادة والحال، وهذا في الأمرين جميعًا».

والإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن جدَّد لهذا الدين في عصرنا الحديث، فقد كان الناس في وقته في ضلال بعيد، من الغلوِّ في القبور وأنواع البدع والجهل، فقام بدعوة الناس إلىٰ ملة إبراهيم وأحياها، ونصره الإمام محمَّد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واجتمعت الكلمة علىٰ إقامة التوحيد وتحكيم الشريعة؛ فذهبت الفرقة واجتمعت الكلمة واضمحلت البدع، وأشرقت السنَّة، وأعزَّ الله الإسلام والمسلمين.

قال العلَّامَة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا تجديد الإمام[1]: «إنه نشأ في أناس قد اندرست فيهم معالم الدين، ووقع فيهم من الشرك، والبدع؛ ما عمَّ وطمَّ في كثير من البلاد، إلا بقايا متمسِّكين بالدين، يعلمهم الله تعالىٰ، وأما الأكثرون فعاد المعروف بينهم منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، نشأ علىٰ هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

ففتح الله بصيرة شيخ الإسلام، بتوحيد الله، الذي بعث الله به رسله وأنبياءه، فعرَّف الناس ما في كتاب ربهم من أدلة توحيده الذي خلقهم له، وما حرَّمه الله عليهم من الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، فقال لهم ما قال المرسلون لأممهم، أن: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩]».

وقوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء»؛

---

(١) الدرر السنية (١/ ٤٤٢).

فيه بيان حال الإسلام كيف بدأ، وكيف يكون بعد ذلك، وفيه ثناء علىٰ من تمسَّك بالإسلام بعقائده وشرائعه وشعائره؛ لأنَّ خبر النبيِّ ﷺ عن غربة الإسلام فيه إعلام بما يقع من المسلمين من تضييع شرائعه وشعائره، إلَّا ما شاء الله، وهذا نحو قوله ﷺ: «**تنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة**»، ونحو قوله ﷺ: «**أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة**»، وكقوله ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتىٰ لا يدرىٰ ما صلاة ولا زكاة ولا نسك**»، وهذا كلُّه حثٌّ علىٰ تجديد الإسلام وحفظ أركانه وشرائعه وشعائره عملًا وتعليمًا؛ لتذهب الغربة عنه ويقوىٰ بقيام المسلمين به؛ فيعم الخير البلاد والعباد.

قال العلَّامة المجدِّد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الغربةَ اشتدَّت، والأمر كما وصفت، وأعظم مما إليه أشرت، ولكن ليكن منك علىٰ بال ما ورد في فضل الغرباء ووصفهم. فاغتنم نصرة الإسلام، والدعوة إليه، ونشره وتعريفه وتقريره، في كل مجلس ومجمع، فإنّ أكثر الناس قد ضلَّ عنه، ولا يدري عن حقيقته ومسمّاه، وقد وقع ذلك ممن ينتسب إلىٰ الدين، ونسي ما كان عليه من تقرير التوحيد وأدلّته، وجاء بما يناقضه، ويقوِّي عضد الشرك، ويقتضي نصرة أعداء الملة والدين».

والغرباء هم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم**

(١) عيون الرسائل (١/ ٢٥٤، ٢٥٥).

حتىٰ يأتي وعد الله»، رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جدًّا غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ﷺ؟! فإن نفس ما جاء به يضادُّ أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهىٰ فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غايات مقاصدهم وإراداتهم.

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلىٰ الله علىٰ طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم؟!».

ومع غلبة الجهل وكثرة الضَّلال تكون الغربة هي في الحقيقة التحقُّق بعبودية الله، وتجريد التوحيد له وحده لا شريك له، وتجريد الاتباع للنبي ﷺ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ -: التمسُّك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلىٰ أحدٍ غير الله ورسوله ﷺ، لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالعبودية له وحده، وإلىٰ رسوله ﷺ بالاتباع لما جاء به وحده، وهؤلاء هم القابضون علىٰ الجمر».

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٥٩).

وقال الحافظ أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله ﷺ: «**وسيعود غريبًا**»؛ معناه - والله أعلم - أن الأهواء المضلَّة تكثر، فيضل بها كثير من الناس، ويبقىٰ أهل الحق الذين هم علىٰ شريعة الإسلام غرباء في الناس، ألم تسمع إلىٰ قول النبي ﷺ: «**تفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»، فقيل: من هي الناجية؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا سبب غربة أفراد الطائفة المنصورة الفرقة الناجية[٢]: «هو غريب في دينه، لفساد أديانهم، غريب في تمسُّكه بالسنَّة؛ لتمسكهم بالبدع، غريب في اعتقاده؛ لفساد عقائدهم، غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريب في طريقه؛ لضلال وفساد طريقهم، غريب في نسبه لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم؛ لأنَّه يعاشرهم علىٰ ما لا تهوىٰ أنفسهم».

ومجموع روايات وألفاظ الحديث يُبيِّن معنىٰ الغربة ووصف الغرباء، وضم سائر الأحاديث ذات الموضوع نفسه إليها يزيد أكثر في توضيح معنىٰ الغرباء.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «هم في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث، الذين يصلحون إذا فسد الناس، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناس من السنَّة، وهم الذين يفرون بدينهم من الفتن،

---

(١) الغرباء (ص٢٤، ٢٥).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٦٠).

(٣) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣١٩).

وهم النزَّاع من القبائل؛ لأنهم قلُّوا، فلا يوجد في كل قبيلة منهم إلا الواحد والاثنان، وقد لا يوجد في بعض القبائل منهم أحد، كما كان الداخلون إلىٰ الإسلام في أول الأمر كذلك، وبهذا فسر الأئمة هذا الحديث».

وقول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق إلىٰ قيام الساعة»؛ يدل علىٰ أن الغربة لا تستحكم علىٰ الأرض والخلق، وأنه قد يضعف نور النبوة في بعض النواحي من الأرض، وليس في كلِّها، أو أنه قد يضعف نور النبوة في بعض الأوقات ولا يستمر ذلك، حتىٰ يجدد الله الدين بمن يستعملهم لذلك، قال النبي ﷺ: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته**»، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

والدين اصطفاه الله عَزَّوَجَلَّ لينصره بمن يصطفيهم من عباده لنصره، ووعد الله بظهوره في الأرض كلها، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

والدين تكفَّل الله بحفظه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وسيبقىٰ محفوظًا إلىٰ قبل قيام الساعة حين «**لا يقال في الأرض: الله الله**»، وحينها تقوم السَّاعة.

وهذا كلُّه يوجب للمسلمين حسن الظن بالله، والثقة به، والتوكُّل عليه

في مواجهة الغربة بالقيام بأسباب إحياء شرائع الإسلام وشعائره، وتجديد الإسلام ونصره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كثير من الناس إذا رأىٰ المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات علىٰ دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوىٰ. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه؛ فليصبر إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار. وقوله ﷺ: «**ثم يعود غريبًا كما بدأ**»؛ يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر، كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر؛ ولهذا قال: «**سيعود غريبًا كما بدأ**». وهو لما بدأ كان غريبًا لا يُعرف ثم ظهر وعُرف؛ فكذلك يعود حتىٰ لا يعرف ثم يظهر ويعرف، فيقل من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولًا. ويحتمل أنه في آخر الدنيا لا يبقىٰ مسلم إلا قليل، وهذا إنَّما يكون بعد الدجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحًا تقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ثم تقوم القيامة.

وأما قبل ذلك فقد قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ تقوم الساعة**». وهذا الحديث في الصحيحين، ومثله من عدة أوجه. فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٩٥، ٢٩٦).

تزال طائفة ممتنعة من أمته علىٰ الحق أعزاء، لا يضرهم المخالف، ولا خلاف الخاذل. فأما بقاء الإسلام غريبًا ذليلًا في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا».

وقال شيخ الإسلام أيضًا[1]: «قد تكون الغربة في بعض شرائعه، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة، ففي كثير من الأمكنة يخفىٰ عليهم من شرائعه ما يصير به غريبًا بينهم، لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد، ومع هذا فطوبىٰ لمن تمسَّك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله ﷺ؛ فإن إظهاره والأمر به والإنكار علىٰ من خالفه هو بحسب القوَّة والأعوان».

وآخر حديث الغرباء فيه بيان أنَّ موضع إعادة تجديد الإسلام وقوَّته، هو من حيث قامت دولة الإسلام بالمدينة النبوية، حيث قال النبيُّ ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تَأْرِزُ الحيَّةُ في جحرها**»، رواه مسلم[2].

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «في هذا دليل علىٰ فضيلة المدينة، وأنها في آخر الزمان ستكون مأوىٰ الإسلام، فكما أنَّ الإسلام انتشر

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٩٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين (ص٧٥، رقم ٣٧٣).

(٣) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٤١٤).

بقوته وجهاده من المدينة».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ملخصًا أحوال الإسلام والمسلمين منذ البعثة إلىٰ اليوم من حيث غربته وقوته وظهوره[1]: «بُعث النبي ﷺ ودعا إلىٰ الإسلام، لم يستجب له في أوَّل الأمر إلا الواحد بعد الواحد من كل قبيلة، وكان المستجيب له خائفًا من عشيرته وقبيلته، يؤذىٰ غاية الأذىٰ، وينال منه، وهو صابر علىٰ ذلك في الله عَزَّوَجَلَّ، وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين يطردون ويشردون كل مشرد، ويهربون بدينهم إلىٰ البلاد النائية، كما هاجروا إلىٰ الحبشة مرتين، ثم هاجروا إلىٰ المدينة، وكان منهم من يُعذَّب في الله، وفيهم من قتل؛ فكان الداخلون في الإسلام حينئذ غرباء، ثم ظهر الإسلام بعد الهجرة إلىٰ المدينة وعزَّ، وصار أهله ظاهرين كل الظهور، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأظهر الله لهم الدين وأتمَّ عليهم النعمة.

وتوفي النبيُّ ﷺ والأمر علىٰ ذلك، وأهل الإسلام علىٰ غاية من الاستقامة في دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا علىٰ ذلك في زمن أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم أعمل الشيطان مكائده علىٰ المسلمين، وألقىٰ بأسهم بينهم، وأفشىٰ فيهم فتنة الشبهات والشهوات، ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا، حتىٰ استحكمت مكيدة الشيطان وأطاعه أكثر الخلق؛ فمنهم من دخل في

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣١٧-٣١٩).

طاعته في فتنة الشبهات، ومنهم من دخل في فتنة الشهوات، ومنهم من جمع بينهما، وكل ذلك مما أخبر النبي ﷺ بوقوعه.

فأما فتنة الشبهات: فقد روي عنه من غير وجه أن أُمته ستفترق علىٰ أزيد من سبعين فرقة، علىٰ خلاف الروايات في عدد الزائد علىٰ السبعين، وأن جميع تلك الفرق في النار إلا فرقة واحدة، وهي من كان علىٰ ما هو عليه وأصحابه ﷺ.

وأما فتنة الشهوات: ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم، أيُّ قوم أنتم؟** فقال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نقول كما أمرنا الله. قال: **أو غير ذلك؟ تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون**».

وفي «صحيح البخاري» عن عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**والله ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكن أخشىٰ عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**».

وفي «الصحيحين» من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ؛ معناه أيضًا.

ولما فتحت كنوز كسرىٰ علىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **بكىٰ، وقال:** إن هذا لم يُفتح علىٰ قوم قط إلا جعل بأسهم بينهم. أو كما قال.

وكان النبيُّ ﷺ يخشىٰ علىٰ أمته هاتين الفتنتين، كما في «مسند الإمام

أحمد» عن أبي برزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّما أخشىٰ عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن**». وفي رواية: «ومضلات الهوىٰ».

فلما دخل أكثر الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما؛ أصبحوا متقاطعين متباغضين، بعد أن كانوا إخوانًا متحابين متواصلين؛ فإن فتنة الشهوات عمَّت غالب الخلق، فافتتنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم؛ لها يطلبون، وبها يرضون، ولها يغضبون، ولها يوالون، وعليها يعادون، فقطعوا لذلك أرحامهم وسفكوا دماءهم، وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك.

وأما فتنة الشبهات والأهواء المضلة فبسببها تفرَّق أهل القبلة وصاروا شيعًا، وكفَّر بعضهم بعضًا، وصاروا أعداءً وفرقًا وأحزابًا بعد أن كانوا إخوانًا قلوبهم علىٰ قلب رجل واحد، فلم ينجُ من هذه الفرق إلا الفرقة الواحدة الناجية، وهم المذكورون في قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك**»».

غربة المسلم في إقباله علىٰ مرضاة الله في ليله ونهاره، همّه عبودية الله، رتَّب نفسه علىٰ ذلك، وجعل وظائفه في نهاره وليله عبودية الله؛ فاستغرق وقته في أن يكون من عباد الله المخلصين، استبق الخيرات وأقبل بكليته علىٰ الله، وصارت نيته في عبادة الله في كل ما يأتي ويذر، حتىٰ في المباحات، وهذه حنيفية التوحيد، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يُفطرون، وببكائه إذا النَّاس يضحكون، وبورعه إذا النَّاس يخلطون، وبصمته إذا النَّاس يخوضون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالون، وبحزنه إذا النَّاس يفرحون»، وهذا والله المعنىٰ الذي تحقَّق به علَّامة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفقيه القرآن؛ فشأن الغريب إرادة وجه الله، ومحاذرة الغفلة، وجمعية قلبه وجوارحه علىٰ طاعة الله في أوقاته كلها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أهل هذا الشأن هم غرباء الغرباء، وغربتهم أعز الغربة؛ فإن الغربة عند أهل الطريقة غربتان: ظاهرة وباطنة.

فالظاهرة: غُربة أهل الصلاح بين الفساق، وغربة الصادقين بين أهل الرياء والنفاق، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق، وغربة أهل الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلبوا الخشية والإشفاق، وغربة الزاهدين بين الراغبين في كل ما ينفد وليس هو بباق.

وأما الغربة الباطنة: فغربة الهمَّة، وهي غربة العارف بين الخلق كلهم، حتىٰ العلماء والعباد والزهَّاد؛ فإن أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم، وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يُعرِّجون بقلوبهم عنه.

كان أبو سليمان - الداراني - يقول في وصفهم: همَّتهم غير همَّة الناس، وإرادتهم من الآخرة غير إرادة الناس، ودعاؤهم غير دعاء الناس.

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٢٨).

وسُئل عن أفضل الأعمال، فبكىٰ وقال: أن يطَّلع علىٰ قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره».

وفي قوله ﷺ: «إن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض علىٰ الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم»؛ حثٌّ علىٰ الصبر علىٰ طاعة الله والتمسُّك بالدين.

قال الحافظ أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الغرباء في وقتنا هذا من أخذ بالسنن، وصبر عليها، وحَذِرَ البدع، وصبر عنها، واتبع آثار من سلف من أئمة المسلمين، وعرف زمانه وشدة فساده وفساد أهله؛ فاستغنىٰ بإصلاح شأن نفسه من حفظ جوارحه، وترك الخوض فيما لا يعنيه».

وفي قول النبي ﷺ: «إن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض علىٰ الجمر»؛ حثٌّ علىٰ الصبر علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنَّة في مواجهة المضلات والأهواء وأسباب الزيغ والضلال.

قال العلَّامَة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنه ﷺ أخبر أنه في آخر الزمان يقلُّ الخير وأسبابه، ويكثر الشر وأسبابه، وأنه عند ذلك يكون المتمسِّك بالدين من الناس أقل القليل، وهذا القليل في حالة شدَّة ومشقَّة عظيمة، كحالة القابض علىٰ الجمر؛ من قوة المعارضين، وكثرة الفتن المُضِلَّة - فتن الشبهات والشكوك والإلحاد، وفتن الشهوات -، وانصراف

(١) الغرباء (ص٧٩).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص٢٨٠، ٢٨١).

الخلق إلىٰ الدنيا وانهماكهم فيها، ظاهرًا وباطنًا، وضعف الإيمان، وشدة التفرُّد؛ لقلة المعين والمساعد.

ولكن المتمسِّك بدينه، القائم بدفع هذه المعارضات والعوائق التي لا يصمُدُ لها إلا أهل البصيرة واليقين، وأهل الإيمان المتين؛ من أفضل الخلق، وأرفعهم عند الله درجة، وأعظمهم عنده قدرًا.

وأما الإرشاد فإنه إرشاد لأمته أن يوطِّنوا أنفسهم علىٰ هذه الحالة، وأن يعرفوا أنه لا بد منها، وأن من اقتحم هذه العقبات، وصبر علىٰ دينه وإيمانه - مع هذه المعارضات -؛ فإن له عند الله أعلىٰ الدرجات، وسيعينه مولاه علىٰ ما يحبه ويرضاه؛ فإن المعونة علىٰ قدر المؤنة».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن النبي** ﷺ **قال**: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا**»؛ هو من الأحاديث المبيِّنة لواقع الإسلام؛ ليتخذ المسلمون لكل مرحلة ما أوجبه الله عليهم من حفظ الدين ونصره وإعلائه وحفظ شرائعه وشعائره.

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا خبر من النبي ﷺ عن أمر وقع، وأمر سيقع، فالأمر الذي وقع قوله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا**»، وهو كذلك، فالإسلام أول ما ظهر في مكة كان غريبًا؛ إذ المسلمون قلَّة، ومضىٰ بعد ذلك مدَّة، وهم لا يزيدون عن العشرة، ثم تكاثروا.

وسيعود - أيضًا - غريبًا في آخر الزمان؛ يعني: يقل المسلمون، وهذه

(١) التعليق علىٰ صحيح مسلم (١/ ٤١٩).

القلة قد يراد بها القلة النسبية؛ فلا يمنع أن يكونوا ألوفًا من المسلمين؛ لأن المسلمين الآن يقدَّرون بمليار أو أكثر، لكن في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كانوا قلة؛ يعني: مات عن مائة وأربعين ألفًا، فلا نقول: إن القلة والغربة ستكون في آخر الزمان بحيث يكون عشرة أو عشرون من المسلمين، قد يكونون مئات أو ألوفًا، لكن هم بالنسبة للعموم غرباء.

وقوله عليه الصلاة والسلام : «**سيعود غريبًا**»؛ هذا خبر عن شيء مستقبل».

ومن أعظم أسباب غربة الدين نصرة الولاة للمبتدعين، وعظم هذا الشر في خلافة المأمون والمعتصم والواثق من الخلفاء العبَّاسيين، وبقي الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ غريبًا وحيدًا من الأنصار، فثبت وصبر حتَّىٰ هيَّأ الله للإسلام المتوكل الذي ناصر السنَّة حتىٰ تَجَدَّد الدين وحُفظت الملة وأخمد الله بدعة المعتزلة.

قال العلَّامة أبو محمَّد الحسن بن عليٍّ البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كان الأمر مستقيمًا حتىٰ كانت الطبقة الرابعة في خلافة بني فلان، انقلب الزمان وتغير الناس جدًّا، وفشت البدع، وكَثُر الدعاة إلىٰ غير سبيل الحق والجماعة، ووقعت المحن في كل شيء لم يتكلَّم به رسول الله ﷺ، ولا أصحابه».

حتىٰ قال[2]: «فصار الإسلام غريبًا، والسنَّة غريبة، وأهل السنة غرباء في جوف ديارهم».

---

(١) شرح السنة (ص٩٥).

(٢) شرح السنة (ص٩٦).

وقال البربهاري في شأن نصرة بعض ولاة العباسيين لبطانتهم المعتزلة المبتدعة[1]: «دامت لهم المدة، ووجدوا من السلطة معونة علىٰ ذلك، ووضعوا السيف والسوط دون ذلك، فدرس علم السنة والجماعة وأوهنوهما وصارتا مكتومتين؛ لإظهار البدع والكلام فيها، ولكثرتهم، واتَّخذوا المجالس، وأظهروا رأيهم، ووضعوا فيها الكتب، وأطمعوا الناس، وطلبوا الرئاسة، فكانت فتنة عظيمة لم ينج منها إلا من عصم الله».

وقال مبيِّنًا زوال الغربة بتسخير الله من ينصر السنَّة[2]: «فهلك الخلق حتىٰ كان أيام جعفر - الذي يقال له: المتوكل -، فأطفأ الله به البدع، وأظهر به الحق، وأظهر به أهل السنَّة، وطالت ألسنتهم مع قلَّتهم وكثرة أهل البدع إلىٰ يومنا هذا».

وما جاء في فضل الغرباء المتمسِّكين بالكتاب والسنة من مضاعفة ثواب حسناتهم «**أجر خمسين**» من عمل الصحابة؛ فيه حثٌّ علىٰ التمسُّك بالكتاب والسنة، وتجديد الدين، وحفظ علومه وعقائده وأحكامه وشرائعه وشعائره، وفيه بيان أن من أسباب مضاعفة الحسنات فعلها في وقت قلة الأعوان علىٰ الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، فنصرة الإسلام وحفظه وإحياء شرائعه وشعائره في فترة الضعف والقلَّة؛

(١) شرح السنة (ص٩٩، ١٠٠).

(٢) شرح السنة (ص١٠٠، ١٠١).

من أعظم أسباب مضاعفة الحسنات، وهكذا التمسُّك بالكتاب والسنة في وقت غفلة الناس من أعظم أسباب مضاعفة الحسنات، قال النبي ﷺ: «**عبادة في الهرج كهجرة إليَّ**»، رواه مسلم.

قال العلَّامة الموفق أبو محمَّد بن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن النبي ﷺ أخبرنا أن في آخر الزَّمان تكثر البدع، وتموت السُّنن ويغرب الدّين، وأن الدُّنيا لا تزداد إلَّا إدبارًا، وأنه يصير المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وأنه يقل أهل الحق، إلَّا أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم حتَّىٰ يأتي أمر الله، وأنه يعظم ثوابهم ويكثر أجرهم.

وشبه النَّبي ﷺ الدِّين في آخره بأول ابتدائه في غربته وقلة أهله، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**بدأ الدّين غريبًا وسيعود كما بدأ**»، ثمَّ جمع بينهم في أن لهم طوبىٰ، فقال: «**طوبىٰ للغرباء**»، ثمَّ فضَّل المتأخِّرين في بعض الأخبار، فقال في حديث: «**يأتي علىٰ النَّاس زمان يكون للقائمين بالكتاب والسُّنَّة مثل أجر خمسين شهيدًا**. قالوا: يا رسول الله منا أو منهم؟ قال: **منكم**».

وهذا فضل عظيم، وذلك - والله أعلم - لعظم نفعهم، وصعوبة الأمر عليهم، وكثرة أعدائهم، وتألبهم عليهم، وقلَّة أنصارهم، وقد جاء في خبر: «**يأتي علىٰ النَّاس زمان يكون المتمسك بدينه كالقابض علىٰ الجمر**»، فهذه الصعوبة هي الموجبة لذلك الأجر».

وفي قول النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحقِّ**»؛ حثٌّ

(١) حكاية المناظرة في القرآن (ص٥٣-٥٦).

علىٰ حفظ الدين والدعوة إليه.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تكفَّل الله بحفظ هذه الشريعة، ولم يجمع أهلها علىٰ ضلالة، وجعل منهم طائفة قائمة بالحق، لا تزال ظاهرة علىٰ من خالفها حتىٰ تقوم الساعة.

وأقام لها من يحملها ويذب عنها بالسيف واللسان والحجَّة والبيان، فلهذا أقام الله تعالىٰ لهذه الأمة من خلفاء الرسل وحَمَلَة الحجَّة في كل زمان من يعتني بحفظ ألفاظ الشريعة وضبطها، وصيانتها عن الزيادة والنقصان، ومن يعتني بحفظ معانيها، ومدلولات ألفاظها، وصيانتها عن التحريف والبهتان.

والأولون أهل الرواية، وهؤلاء أهل الدراية والرعاية، وقد ضرب النبي - ﷺ - مثل الطائفتين، كما ثبت في «الصحيحين» عن أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم؛ كمثل غيث أصاب الأرض، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها ناسًا؛ فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرىٰ، إنَّما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به ونفع به، فعلم وعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرسلت به**»».

وواجب المسلم الدعوة للحق، ودفع الغربة عن الإسلام، وإعزاز

---

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٥٥٨).

الدين، ونصح الخلق.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هؤلاء الغرباء قسمان:

أحدهما: من يُصلح نفسه عند فساد الناس.

والثاني: من يُصلح ما أفسد الناس، وهو أعلىٰ القسمين، وأفضلهما».

والصالح المصلح هو الذي حثَّ الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ التزامه، فقد صدَّر باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء بقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦][٢].

فهذا نعت الغرباء الصالحين المصلحين؛ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ هم أولو بقية، قال العلَّامَة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾؛ قيل: أولو طاعة. وقيل: أولو تمييز. وقيل: أولو بقيَّة من خير. ويقال: فلان علىٰ بقية من الخير؛ إذا كان علىٰ طاعة، أو مسكة من عقل، أو علىٰ خصلة محمودة».

والمسلم يحب للمسلمين وأوطانهم ما يحبُّ لنفسه، فيرجو صلاحهم وهدايتهم وصلاح أمة الإسلام وديارها، ويبذل الأسباب الموصلة لذلك: بالنصيحة بالمعروف، والدعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة،

---

(١) مجموع مؤلفات الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٢٠).

(٢) فضل الإسلام (ص٣٩).

(٣) تفسير القرآن (٢/ ٤٦٧).

ويتعاون مع المسلمين علىٰ البِرِّ والتقوىٰ، ويتواصىٰ معهم بالحق والصبر، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

قال العلَّامَة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلىٰ الله وإلىٰ دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلىٰ أصل الدين، والدعوة إلىٰ التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمِّل العبد نفسه، ويُكمِّل غيره».

والفضل العظيم في مضاعفة ثواب المتمسِّكين بالكتاب والسنَّة زمن الغربة «**أجر خمسين**» من الصحابة؛ لا يستلزم فضلهم علىٰ الصحابة، فالفضيلة بنوع لا تستلزم الفضيلة مطلقًا، ولن يبلغ أحد فضل الصحابة ولا منزلتهم، ولن يدرك شأوهم، قال النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، متفق عليه، وقال النبي ﷺ: «**لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ العلائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ فضيلة صحبة النبي ﷺ والفوز

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٩٠، ٩١).

(٢) تحقيق منيف الرُّتْبَةِ لمن ثَبَتَ له شريف الصحبة، مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ العلائي (ص٢٧٥، ٢٧٦).

برؤيته لا يعدل بعمل، وأن من منحه الله تعالىٰ ذلك فهو أفضل ممن جاء بعده علىٰ الإطلاق؛ لوجوه:

أحدها: مشاهدة النبي ﷺ.

وثانيها: فضيلة السبق إلىٰ الإسلام.

وثالثها: فضيلة الذب عن حضرته ﷺ.

ورابعها: فضيلة الهجرة معه أو إليه أو النصرة له.

وخامسها: ضبطهم الشريعة، وحفظهم عن رسول الله ﷺ.

وسادسها: تبليغهم إياها إلىٰ من بعدهم.

وسابعها: السبق بالنفقة في أول الإسلام.

وثامنها: أن كل فضل وخير وعلم وجهاد ومعروف عُمل في هذه الشريعة إلىٰ يوم القيامة؛ فحظهم منه أجلُّ ونوالهم منه أجزل؛ لأنهم سنُّوا سنن الخير وفتحوا أبوابه، ونقلوا معالم الدين وتفاصيل الشريعة إلىٰ من بعدهم، وقد قال ﷺ: «**من سنَّ سُنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة**».

وقال ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدًىٰ كان له من الأجور مثل أجر من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**».

فهم مساهمون لجميع هذه الأمَّة في كل أجر يحصل إلىٰ يوم القيامة، مع ما اختصوا به بما تقدَّم ذكره».

وحديث سعيد البصري عن النبيّ ﷺ: «إنَّكم اليوم علىٰ بيِّنة من ربّكم، ولم تظهر فيكم السّكرتان»، حديث ضعيف.

وهو من رواية سفيان بن عيينة عن أسلم البصري، عن سعيد، عن النبي ﷺ؛ مرسل، منقطع ليس بمتَّصل، فسعيد أخو الحسن لم يدرك النبي ﷺ.

وأما قوله: «ولم تظهر فيكم السكرتان: سكرة الجهل، وسكرة حب العيش»، المراد بالسكر هنا: تغطية العقل، وليس شراب المسكر، فالجهل تتعطَّل به شرائع الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، بل وأركان الإسلام، كما قال النبي ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتىٰ لا يُدرىٰ ما صلاة ولا نسك ولا صيام**».

وحب العيش يتعطل به ذروة سنام الإسلام، وهو الجهاد في سبيل الله، قال النبي ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزَّرْع، وتركتم الجهاد؛ سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم**»، رواه أحمد وصححه ابن القطان.

والجهاد حياة لأمة الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، وهذه وإن وردت في خصوص الجهاد فهي عامَّة لكل أوامر الله ورسوله ﷺ.

والجهاد فيه حفظ ديار الإسلام، وحفظ سيادتهم علىٰ أراضيهم، وفيه حفظ لنفوس ودماء وأعراض وأموال المسلمين.

والجهاد فيه حفظ دين المسلمين، وفيه دعوة الكافرين إلىٰ ما يكون

سببًا في سعادتهم وعتق رقابهم من النار.

والجهاد فيه بأس شديد، قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، إلا أنه مما يطاق وفي مقدور المكلفين، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لمَّا نزلت هذه الآية اشتدَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا علىٰ الركب، وقالوا: يا رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**»، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: **نعم**، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قال: **نعم**، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: **نعم**، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: **نعم**. رواه مسلم.

فقول الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصَّلاة، والصِّيام، والجهاد، والصَّدقة» دليل علىٰ أنَّ الجهاد من التَّكليف بما يُطاق، وهذا قاله الصَّحابة للنبيِّ ﷺ، ولم ينكره عليهم، وهو ﷺ الذي أدَّىٰ إليهم هذه

الأوامر الإلهية بالوحي الذي بُعث به إليهم.

والجهاد إنَّما يقوم به من يريد أن تكون كلمة الله هي العليا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فهؤلاء يبذلون نفوسهم في سبيل الله؛ رغبةً فيما عند الله وإعزازًا لدينه، قال تعالىٰ: ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧٤].

وفي الحديث: «**ولم تظهر سكرة الجهل وسكرة حب العيش**» حثٌّ للمسلمين علىٰ أن يشروا الحياة الدنيا بالآخرة، وتحذير من ضد ذلك، لأنَّ القلب إذا استولت عليه الغفلة وغمره حب الدنيا وسها عما خُلق له من عبودية الله ورضاه، وتعطَّلت إراداته وعزائمه عما يرضي الله إلىٰ ما تهواه نفسه من حب الدنيا؛ انقطع عن الله، وربما تأله قلبه لشهوات نفسه وملذاتها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال الله تعالىٰ: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]؛ أي: فيما يغمر قلوبهم من حبِّ المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة. وقال تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: ١٠، ١١] الآيات؛ أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها؛ أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٥٩٦، ٥٩٧).

فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فالغمرة تكون من اتباع الهوىٰ، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو» الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر «الغفلة» و«الشهوة».

فـ«الغفلة» عن الله والدار الآخرة تسدُّ باب الخير الذي هو الذكر واليقظة. و«الشهوة» تفتح باب الشر والسهو والخوف؛ فيبقىٰ القلب مغمورًا فيما يهواه ويخشاه، غافلًا عن الله، رائدًا غير الله، ساهيًا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حب الدنيا علىٰ قلبه، كما روي في «صحيح البخاري» وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة** [1]**، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط**»».

الدنيا فيها جواذب من متاعها وزخرفها وزينتها وشهواتها، فلا تركن إلىٰ ما حرم منها، ولا يصدَّك حلالها عما خُلقت له من عبودية الله وذكره، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا يشغلك مباحها عما هو خير لك من استباق الخيرات، وهل أركس المبطلون في الإعراض عما خلقوا له إلا هذه الجواذب! قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) القطيفة هي التي يُجلس عليها، والخميصة هي التي يرتدىٰ بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لما عرف الموفَّقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها، أماتوا فيها الهوىٰ طلبًا لحياة الأبد، لما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق تلمَّحوا المقصد، فقَرُب عليهم البعيد، وكلما أمرَّتْ لهم الحياة؛ حلا لهم تذكُّرُ: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]».

وما أكثر الآيات القرآنية الدالَّة علىٰ أننا في هذه الدنيا علىٰ جناح سفر إلىٰ الدار الآخرة، حتىٰ لا نغفل بالدنيا عن الآخرة، ولنجعل الدنيا حرثًا للآخرة، ونتزوَّد في الدنيا بما يكون سببًا لدخول جنة الآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

قال العلَّامَة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «نبَّه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ علىٰ أنَّا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتَّخذه وطنًا ومستقرًّا، وإنَّما دخلناه لنتزوَّد منه إلىٰ دار القرار؛ فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممرٌّ لا وطن ومستقرٌّ».

---

(١) الفوائد (ص ٦٢).

(٢) الفوائد (ص٢٤، ٢٥).

وكلما اجتذبتك أيُّها المسلم أسباب الغفلة من متاع الدُّنيا وغرورها فاتَّخذ الأسباب الموجبة لحفظ دينك وتقويته وأسباب استمرار سيرك إلىٰ الله.

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أعظم مقويات الإيمان ومغذياته: اللهج بذكر الله، والإكثار من دعائه، والإنابة إليه في السراء والضراء، في جميع النوازل الخاصة والعامة، الكبيرة والصغيرة، فهي من مغذيات الإيمان، والإيمان يغذيها، فكل من الأمرين يمد الآخر، وكلما ازداد العبد من هذه الأمور ومن الرجوع إلىٰ الله في كل أحواله؛ ازداد إيمانه، وكثرت شواهده، وازداد العبد بصيرةً ويقينًا، وقوي توكله.

ومن مغذيات الإيمان: قوة الصبر علىٰ طاعة الله وعن معاصيه وعلىٰ أقداره، مع استصحاب التوكل والاستعانة بالله علىٰ ذلك، بل هو الإيمان أصلًا وفرعًا وغذاءً وثمرة، فمتىٰ غرست شجرة الإيمان في القلب وتأصلت بمعرفة الله ومعرفة ما له من الأسماء الحسنىٰ والصفات العظيمة، والتفرد بكل كمال وكل فضل وإفضال، وانبعثت دواعي الإنابة إلىٰ الله بذكره ودعائه، والرجوع إليه، وامتثال أمره واجتناب نهيه، والصبر علىٰ أقداره، والرضىٰ به ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، وتعاهد العبد هذه الشجرة بالأوراد الشرعية والوظائف المرتبة، وهي: أعمال اليوم والليلة، ودوام التوبة والاستغفار كل وقت، والعزم الجازم علىٰ تحقيق الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة للرسول ﷺ، والاجتهاد في تحقيق ذلك، وتنقية القلب من

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص٨١، ٨٢).

كل ما يضاد ذلك، من رياء وفخر وعجب وكبر وتيه، ومن غل وحقد وغش مما ينافي النصيحة ومحبة الخير للمسلمين، وتعاهدها أيضًا ببذل ما يستطيعه العبد من النفع للعباد، من تعليم، ونصيحة لهم في دينهم ودنياهم، وتوجيهه لهم إلىٰ الخير بحسب أحوالهم، ودعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة بحسب قدرته واستطاعته وبحسب الظروف التي هو فيها؛ متىٰ وفق لذلك كله، آتت هذه الشجرة أكلها كل حين بإذن ربها.

والله تعالىٰ هو الموفق وحده، المحمود وحده، الذي لا ملجأ للعبد ولا منجا منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو المرجو في كل الأمور».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، خذ نصيبك من الدنيا من حلالها، وأدِّ حق الله في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]، فلا تُغبن بالفاني علىٰ الباقي. أمَّا المؤمنون الذين عاشوا في الدُّنيا للمقصود الذي أراده الله منهم في هذه الحياة الدُّنيا فهم يتحدَّثون في الآخرة بما كانوا فيه من أسباب بلوغهم الجنَّة ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن

(١) الفوائد (ص٦٦).

موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي علىٰ تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلىٰ قليل ولا كثير، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]».

المؤمن يحذر الآخرة ويعمل لها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]،

والكافر في لهو الدنيا ومتاعها وزينتها وزخرفها معرضٌ عن الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الحياة الدنيا، وصفها بالدنيا من الدنوِّ وهو القرب، وذلك لانحطاط مرتبتها ولسبقها علىٰ الآخرة؛ لأنَّ الدار الدنيا هي أول دار ينزلها الإنسان، وهي سابقة في الزمن علىٰ الآخرة؛ فهي دنيا قريبة، وهي أيضًا دنيا من حيث المرتبة، ليست بشيء بالنسبة للآخرة؛ ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما صحَّ عنه: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»، فليست خيرًا من الدنيا التي أنت فيها فقط، بل من الدنيا منذ أن خلقها الله إلىٰ أن تفنىٰ، موضع السوط الذي يكون بقدر المتر في الجنة؛ خير من الدنيا وما فيها، إذًا هي دنيا حقيقيَّة».

وإيثار الحياة الدنيا علىٰ الآخرة يقطع عن أداء حق الله، ومن أعظم ذلك الصلاة المفروضة فضلًا عن نوافلها.

(١) تفسير سورة النجم (ص٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إِذا جنَّ اللَّيْل تغالبَ النَّومُ والسهرُ، فالخوف والشوق فِي مقدَّم عَسْكَر الْيَقَظَة، والكسلُ والتواني فِي كَتِيبَة الْغَفْلَة، فَإِذا حَمَلَ الْعَزْمُ حمل علىٰ الميمنة، فانهزمت جنود التَّفْرِيط، فَمَا يطلع الْفَجْر إِلَّا وَقد قُسِمت السُّهْمَان وَبَردَتِ الْغَنِيمَة لأَهْلهَا».

ومتىٰ كان اعتقاد المؤمن أن الساعة قريب، وأن الجنة أقرب إليه من شراك نعله؛ سعىٰ للجنة بالأسباب الموجبة لدخولها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ما زال ربكم يقرِّب الساعة حتىٰ جعلها كغدٍ».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إنه عبَّر عن الآخرة بالغد؛ تنزيلًا للآخرة والدنيا علىٰ أنهما نهاران: يوم وغد».

وقال الرسعني أيضًا[٤]: «المقصود تنبيه العباد من رقدة غفلتهم عن الآخرة».

وبسبب ما كان عليه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من قوَّة التحقق واليقين والاعتقاد بقرب الساعة والحساب، أدلجوا وبلغوا المنزل، وجمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة، فمكَّن الله لهم وأعزَّهم ونصرهم وفتحوا الأمصار، وعتقوا

---

(١) الفوائد (ص٦٩).

(٢) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (١/ ١٦٧).

(٣) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٧٢).

(٤) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٧٣).

رقاب العباد من النار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «صَاح بالصحابة واعظُ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]، فَجَزِعت للخوف قُلُوبهم، فجرت من الحذر الْعُيُون، ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]».

ووعظنا أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالمسارعة في طاعة الله، والحذر من الغفلة عن الله ونسيان أنفسنا بمتاع الدنيا عما خُلقنا له، فقال: «أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله عَزَّوَجَلَّ فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم، فنهاكم الله عَزَّوَجَلَّ أن تكونوا أمثالهم، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]، أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا علىٰ ما قدَّموا في أيام سلفهم، وخلوا بالشقوة والسعادة، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تفنىٰ عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه، إن الله أثنىٰ علىٰ زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم»، رواه

(١) الفوائد (ص٧٦).

الطبراني في «المعجم الكبير»[١].

وفي تحذير الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حب العيش بعد ذكر فضل الغرباء؛ فيه بيان تعاضد الأمرين للعمل للآخرة وإن قلَّ أو غفل السالكون، وهو من الصبر علىٰ طاعة الله وتقواه وعبوديته، والصبر عن معصيته، والصبر علىٰ قدره، وهذا حقيقة الدين كله.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «السنَّة - والذي لا إله إلا هو - بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضىٰ، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا علىٰ سنَّتهم حتىٰ لقوا ربهم، فكذلك - إن شاء الله - فكونوا».

والقلب السليم الحي الذي أقبل علىٰ ربِّه وجرَّد الإخلاص والإنابة إليه؛ لا ريب أنه يسير سيرًا حثيثًا في هذه الدنيا إلىٰ الدار الآخرة، متَّبعًا صراط الله المستقيم، معرضًا عن سبل البدع والضلالات والأهواء من الشبهات والشهوات، آخذًا بالعبودية لله، مسارعًا في مرضاته، متزودًا من شعب الإيمان بما يوجب ثباته علىٰ السير إلىٰ الله حتىٰ يوافيه وهو راضٍ عنه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «من علامات صحَّته - القلب - أن يرتحل

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد جيد»، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥١٨).

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ١٤٢).

(٣) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان (١/ ١٤٣، ١٤٤).

عن الدنيا حتىٰ ينزل بالآخرة، ويحل فيها حتىٰ يبقىٰ كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلىٰ هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته، ويعود إلىٰ وطنه، كما قال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كُنْ فِي الدُّنْيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القبُورِ**».

فَحَيَّ علىٰ جنَّات عدنٍ فإنها ... منازلك الأولىٰ وفيها المخيّمُ

ولكنَّنا سَبْيُ العدوِّ، فهل ترىٰ ... نعود إلىٰ أوطاننا ونُسَلَّمُ

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة، ولكل منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»».

وقال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وكان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»، لا تقل: أعمل - إن شاء الله - في المساء ففيه وقت، أتوب إلىٰ الله في المساء، لا تقل هكذا، إذا قلت هكذا ذهب عنك الوقت، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك، ما دمت صحيحًا اغتنم وقتك؛ يعني: ربما تمرض، وما دمت حيًّا اغتنم وقتك؛ فإنك ستموت، وكل حي سيموت؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]».

وقد شرع الله لعباده من الأسباب ما يوقظهم من الغفلة، ويذكرهم لما

(١) التعليق علىٰ ميمية ابن القيم (ص٦٦، ٦٧).

خُلقوا له من عبودية الله وتوحيده، ويحفظ عليهم دينهم ويمنعهم من نسيان الآخرة باللهو عنها في الدنيا والركون إليها، من أعظم ذلك ذكر الله خصوصًا الصلوات الخمس المفروضة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «جعل الصلاة سببًا موصلًا له إلىٰ قربه ومناجاته ومحبته والأنس به.

وما بين الصلاتين تحدث له الغفلة والجفوة والأعراض والزلَّات والخطايا، فيبعده ذلك عن ربِّه، وينحيه عن قربه، ويصير كأنَّه أجنبي عن العبودية، ليس من جملة العبيد، وربما ألقىٰ بيده إلىٰ أسر العدو، فأسره وغلَّه وقيده وجنه في سجن نفسه وهواه، فحظه ضيق الصدر، ومعالجة: الهموم والغموم، والأحزان، والحسرات، ولا يدري السبب في ذلك.

فاقتضت رحمة ربه الرحيم به أن جعل له من عبوديته عبودية جامعة مختلفة الأجزاء والحالات، بحسب اختلاف الأحداث التي جاءت من العبد، وبحسب شدَّة حاجته إلىٰ نصيبه من كل خير من أجزاء تلك العبودية.

فبالوضوء يتطهَّر من الأوساخ ويقدم علىٰ ربه متطهرًا، والوضوء له ظاهر وباطن، وظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسره طهارة القلب من أوساخه وأدرانه بالتوبة، ولهذا يقرن سبحانه بين التوبة والطهارة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وشرع النبي

(١) الكلام علىٰ مسألة السماع (ص١٩١، ١٩٢).

ﷺ للمتطهر بعد فراغه من الوضوء أن يتشهَّد، ثم يقول: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»، فكمل له مراتب الطهارة باطنًا وظاهرًا.

فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب، وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة، فشرع أكمل مراتب الطهارة قبل الدخول علىٰ الله والوقوف بين يديه، فلما طهر ظاهرًا وباطنًا أذن له بالدخول عليه بالقيام بين يديه؛ إذ يخلص من الإباق بمجيئه إلىٰ داره ومحل عبوديته».

وقال العلَّامَة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لولا الصلاة التي تتكرَّر علىٰ المؤمنين في اليوم والليلة لتذكرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن، والثناء علىٰ الله، ودعاءه، والخضوع له الذي هو روح الذكر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالىٰ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالىٰ.

وذكر حماد بن زيد عن المُعَلَّىٰ بن زياد أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي.

قال: أذبه بالذكر.

وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة؛ اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله

---

(١) تيسير اللطيف المنان (ص١٨٥).

(٢) الوابل الصيب (ص١٧١).

تعالىٰ ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار.

فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ».

ومقصود الصلاة عبودية الله وإقامة ذكره، قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الله عَزَّوَجَلَّ شرع الصلوات الخمس إقامةً لذكره، واستعمالًا للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قِسْطَه من العبودية التي هي المقصود بخَلْقِ العبد، فوضعت الصلاة علىٰ أكمل مراتب العبودية».

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدًى، وإن لكم معادًا يجمعكم الله عَزَّوَجَلَّ فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله عَزَّوَجَلَّ من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنته التي عرضها السموات والأرض.

وإنما يكون الأمان غدًا لمن خاف الله تعالىٰ واتقىٰ، وباع قليلًا بكثير، وفانيًا بباق، وشقاوة بسعادة.

ألا ترون أنكم في أصلاب الهالكين، وسيخلفكم بعدكم الباقون؟! ألا ترون أنكم في كل يوم تشيِّعون غاديًا إلىٰ الله ورائحًا قد قضىٰ نحبه، وانقطع أمله، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسَّد ولا ممَهَّد، قد خلع

(١) الوابل الصَّيِّب (ص٣١).

(٢) الوابل الصيِّب (ص٣٦).

الأسلاب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب؟!».

وإذا استولت عليك الغفلة، واختطفتك الدنيا بزخرفها وزينتها وغرورها؛ فذكِّر نفسك بسرعة انقضائها، وتيقَّن أن ما عند الله خير وأبقىٰ، ومتاع الدنيا ينفد وليس بباقٍ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن ضَعُفَت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه فليتدبر قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤].

وخطب النبي ﷺ أصحابه يومًا، فلما كانت الشمس علىٰ رؤوس الجبال وذلك عند الغروب قال: «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضىٰ إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضىٰ منه**»، فليتأمَّل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي من الدنيا بأسرها؛ ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظٍّ خسيس لا يساوي شيئًا، ولو طلب الله تعالىٰ والدار

(١) الوابل الصيب (ص٣٤، ٣٥).

الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئًا موفَّرًا وأكمل منه، كما في بعض الآثار: «**ابن آدم، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعًا، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعًا**»».

فاتخذ أيها المسلم من ساعات الليل والنهار ممرًّا لك إلىٰ دار البرزخ وجنات الخلد، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، فالدنيا حلالها بلاغ إلىٰ الآخرة إذا أديت حق الله فيها.

بادر إلىٰ طاعة الله وعبادته ما دمت في عافية، وفي وقت الاستخلاف والعمل، قبل أن تنقطع عن العمل، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣].

أما عمارة الدنيا باللهو واللعب بلا عبودية ولا طاعة لله ولا أداء لحقه، ولا تحقيقًا للمعنىٰ الذي خلقنا من أجله؛ فهذا عبث الكفَّار، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وهذا غرور بالدنيا الفانية التي غرَّت الغافلين، قال تعالىٰ: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

فالله عَزَّوَجَلَّ وصف متاع الحياة الدنيا بالغرور، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فلا تصدَّك سفاسفها ومتاعها عما خُلقت له، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

فلا تؤثر الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، فإذا حضرت الصلاة فلا تنشغل

بالمال والتجارة واللهو عنها، ولك في حلال الدنيا غنية عن حرامها.

ومتىٰ غفل الإنسان عما خُلق له من عبودية الله وذكره وطاعته، ونسي الله؛ أنساه الله نفسه، فتراه ساعيًا في هلاك نفسه من حيث لا يشعر، فالمخلوق ضعيف ما لم يعتصم بالله في ذكره وعبوديته، ظلوم جهول ما لم يستعن بالله في الهداية إلىٰ الصراط المستقيم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها؛ فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه، واشتغل عنه بغيره، وضيع مصالحه؛ فإنه يفسد ولا بد.

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها، واشتغل عن مصالحها، وعطَّل مراعاتها، وترك القيام عليها بما يصلحها؟! فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان!

وهذا هو الذي صار أمره كله فُرُطًا، فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك.

ولا سبيل إلىٰ الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالىٰ، واللهج به، وأن

---

(١) الوابل الصيب (ص١٠٥).

لا يزال اللسان رطبًا به، وأن ينزله منزلة حياته التي لا غنىٰ له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدَّة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكنِّ – الأبنية والمساكن – في شدة الشتاء والسَّموم».

قال تعالىٰ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: يا من ليس له همة إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ ﴾ [الشورىٰ: ٢٠] الآية».

ثم قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فإن قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ ﴾؛ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة أي بيده هذا وهذا، فلا يقتصرن قاصر الهمَّة علىٰ السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلىٰ نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلىٰ الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا، وممن يستحقُّ هذا».

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم (ص٣٦٨).

والناس طبقات بحسب سعيهم في هذه الحياة الدنيا، فعن أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النبي ﷺ قال: «**إنَّما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقًّا؛ فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا فهو صادق النيَّة، يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملت بعمل فلان. فهو بنيَّته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالًا ولم يرزقه علمًا فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقًّا؛ فهو بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا فهو يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان. فهو بنيَّته، فوزرهما سواء**»، رواه التِّرمذي»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الناس أقسام. أصحاب «دنيا محضة»، وهم المعرضون عن الآخرة. وأصحاب «دين فاسد» وهم الكفَّار والمبتدعة، الذين يتدينون بما لم يشرعه الله من أنواع العبادات والزهادات. و«القسم الثالث» وهم أهل الدين الصحيح أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب والسنة والجماعة، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحقِّ».

(١) صحَّحه أبو زرعة العراقي في طرح التَّثريب (٤/ ٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٣، ٦٢٤).

الباب الثالث عشر

باب التحذير من البدع

في خاتمة كتاب «فضل الإسلام» قال الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: [باب التحذير من البدع.

عن العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، قلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا. قال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ، **والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي؛ عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**»، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وعن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمَّد ﷺ فلا تعبدوها، فإن الأوَّل لم يدع للآخر مقالًا. فاتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم. رواه أبو داود.

وقال الدارمي: أخبرنا الحكم بن المبارك، أنبأنا عمرو بن يحيىٰ، قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: كنا نجلس علىٰ باب عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلىٰ المسجد، فجاءنا أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا. فجلس معنا حتىٰ خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسىٰ: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت آنفًا في المسجد أمرًا أنكرته، ولم أرَ - والحمد لله - إلا خيرًا. قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه. قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصًىٰ، فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة. فيهللون مائة. فيقول: سبحوا مائة. فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك - أو: انتظار أمرك -. قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء؟ ثم مضىٰ ومضينا معه حتىٰ أتىٰ حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًىٰ نعد به التكبير والتهليل والتسبيح. قال: فعدّوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمَّد، ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلىٰ ملة هي أهدىٰ من ملة محمَّد أو مفتتحو باب ضلالة. قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وايم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم. ثم تولىٰ عنهم، فقال عمرو بن سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج».

والله المستعان وعليه التكلان.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمَّد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين].

الشَّرْح:

ختم الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ متن «فضل الإسلام» بالتحذير

---

(١) فضل الإسلام (ص٤٢-٤٥).

من البدع، وهذا من نصحه للمسلمين، ومن حسن تعاضد أبواب هذا الكتاب في تحقيق مقصود تأليفه من: الحث علىٰ لزوم الإسلام، والتحذير من الردة، والحث علىٰ الاعتصام بالكتاب والسنَّة، والتحذير من البدعة.

وختم الإمام هذا الكتاب بما ختم به النبيُّ ﷺ دعوته وهو يعظ أصحابه قبل أن يودعهم، فأوصىٰ بتقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والسمع والطاعة لولاة الأمور بالمعروف، ولزوم السنة ومحاذرة البدعة.

وفي قول النَّبي ﷺ: «عليكم بسنَّتي» حثّ للاعتصام بالكتاب والسُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة بيان للقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، والوصيَّة بالمبيِّن وصيَّة بالمبيَّن، وقد جاءت وصيَّة النبيِّ ﷺ بالقرآن منطوقًا بها في أكبر مجمع حضره الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في حجَّة الوداع، حيث قال النبيُّ ﷺ موصِّيًا أمَّته لأسباب عصمتها من الضَّلال والاختلاف: «**تركت فيكم ما إن تمسَّكتم به لن تضلُّوا بعدي: كتاب الله**».

وتقوىٰ الله هي وصية الله للأولين والآخرين، وهي حقيقة الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وحثَّ النبيّ ﷺ في خاتم وصيّته لأصحابه وهو مودِّع لهم علىٰ السمع والطاعة للولاة بالمعروف؛ لأنه به ينتظم عقد الجماعة، وتقوم به مصالحهم الدينية والدنيوية، وبه تأتلف الجماعة وتذهب أسباب الفرقة

والشحناء، وتحفظ السبل ويأمن الناس، ويقومون بشرائع الإسلام وشعائره ويُجاهد العدو.

وحديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه بيان الواقع الذي ستستقبله الأمة من وقوع الاختلاف والفرقة، وفيه حثٌّ علىٰ التمسك بسنته ﷺ وسنة خلفائه الراشدين الأربعة؛ فإنَّه هو الدين الصحيح، وهو الموجب للهداية عند وقوع الاختلاف والفرقة.

وحديث العرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه ذمُّ الاختلاف لتحذير النبي ﷺ منه.

وتغليظ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإنكار علىٰ المتحلِّقين للذكر بالحصىٰ بين الأذانين؛ لتحققه بما في البدع من الشر العظيم، ولفراسته بما تؤول إليه البدع، فإن البدع تبدأ صغارًا ثم تعود كبارًا، ومن فراسته بأولئك المبتدعين قوله: «حدثنا رسول الله ﷺ أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم»، وقد وقع ما تفرَّسه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيهم، قال عمرو بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأيت عامة أولئك الحلق يطاعنونا يوم النهروان مع الخوارج».

وبنحو قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال أبو قلابة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ابتدع رجل إلا انتحل السيف».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إنَّ البدع هي مبادئ الكفر ومظانُّ الكفر، كما أنَّ السُّنن المشروعة هي مظاهر الإيمان ومقوِّيةٌ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٥٦٥، ٥٦٦).

للإيمان؛ فإنَّه يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، كما أخبر الله عن زيادته في مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وغير ذلك».

ومن فوائد أثر ابن مسعود وأبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا معرفة منهجيَّة الصَّحابة بردِّ المسائل والفقه إلىٰ الأكابر من علماء الصَّحابة خصوصًا في المسائل العظيمة ومنها إنكار البدع، فقد رجع أبو موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إنكار بدعة المتحلِّقين للذِّكر بين الأذانين.

وقد سُئل أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن مسألة المواريث والفرائض: بنت، وبنت ابن، وأخت؛ فقال: للبنت النّصف، وللأخت ما بقي، فقيل لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك فقال: قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين، ثم قال: للبنت النِّصف، ولبنت الابن السُّدس تكملة الثُّلثين، وما بقي فلأخت، فقال أبو موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم. رواه البخاري.

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبيِّنًا هذا المنهج في عبارة جامعة: «**لا يزال النَّاس بخير ما كان العلم في أكابرهم، فإذا صار العلم في أصاغرهم فذلك حين هلكوا**».

وهذا منهج أبان عنه علماء الصَّحابة في محاجَّة المبتدعين، توجيهًا لهم لأسباب الهداية وتحذيرًا من أسباب الغواية ومن ضلال التعالم والعُجب والكبر، قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في محاجَّة الخوارج: «أتيتكم من عند

أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين نزل عليهم القرآن، وهم أعلم بتأويله».

وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم ينكر ذكر الله، وإنما أنكر الصفة المبتدعة للذكر، وهو ما اصطلح عليه بـ«البدعة الإضافية»، والعمل الصالح شرطاه: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للنبي ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال النبي ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيات**»، متفق عليه من حديث الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال النبيُّ ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»، متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واللفظ لمسلم.

والمتابعة لا تتحقق إلا إذا كانت العبادة موافقة للشريعة في أمور ستة، قال شيخنا العلَّامَة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: وهي:

١- **السبب**: فمن تعبَّد بسبب ليس بشرعي فهو بدعة؛ مثاله: لو قام ليلة السابع والعشرين من رجب بحجة أنها ليلة المعراج؛ فهو بدعة.

٢- **الجنس**: لو تعبَّد المسلم لله بعبادة لم يُشرع جنسها فهي غير مقبولة؛ مثاله: لو ضحَّىٰ شخص بفرس فإنه مردود عليه؛ لأنَّ الأضاحي إنَّما تكون من بهيمة الأنعام، وهي: الإبل، والبقر، والغنم.

٣- **القدر**: فلو تعبد شخص لله عَزَّوَجَلَّ بقدر زائد علىٰ الشريعة فيما لا تُشرع فيه الزيادة لم يقبل منه؛ مثاله: رجل صلىٰ الظهر خمسًا؛ فهو مردود.

(١) شرح الأربعين النووية (ص١١٦-١١٨).

٤- **الكيفية**: فلو خالف الشريعة في الكيفية فهو مردود؛ كما لو صلىٰ وسجد قبل أن يركع.

٥- **الزمان**: فمن خالف الشريعة في مواقيت العبادات المؤقَّتة لم تُقبل؛ كما لو تعمَّد الصلاة قبل وقتها، أو ذبح الأضحية قبل صلاة العيد.

٦- **المكان**: فإذا لم يلتزم المكان الذي شرعت فيه العبادة لم تُقبل؛ كما لو اعتكف في غير المساجد؛ فإنه مردود.

وفي اعتذار المتحلقين للذكر البدعي بين الأذانين بقولهم: «ما أردنا إلا الخير»؛ دليل علىٰ تعالم أو نقص علم هؤلاء المبتدعين؛ لجهلهم بشروط العمل الصالح، وهي الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للرسول ﷺ، وعامة أو كل ضلال المبتدعين ومنهم الخوارج سببه الجهل أو سوء القصد أو الاثنان معًا.

والنصوص عن النبي ﷺ؛ كثيرة متعاضدة في النهي عن البدع الإضافية مما هو مشروع بأصله ممنوع بوصفه وصفته؛ من ذلك:

حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: جاء أعرابيٌّ إلىٰ النبي ﷺ فسأله عن الوضوء؛ فأراه ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: «**هذا الوُضوء، فمن زاد علىٰ هذا فقد أساء وظلم**»، رواه النسائي وأبو داود.

وقال النبي ﷺ: «**لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من سائر الليالي**»، متفق عليه.

ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن صيام يوْمَيْن: يوم الفطر ويوم النحر، متفق عليه.

فالصيام في أصله مشروع، لكنَّ صيام يوم العيد ممنوع بوصفه، ولا يجوز صيامه إجماعًا، ومن صامه لم يُقبل منه، وكان مبتدعًا، وعمله مردود عليه، وإثمه مغلظ لمفارقته الجماعة في فطرهم؛ فإن النبيَّ ﷺ قال: «**صومكم يوم تصومون، وفطركم يوم تفطرون**».

والنبي ﷺ رمىٰ الجمار بمثل حصىٰ الخذف، رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ونهىٰ عن الابتداع برمي الجمار بخلاف مقدار ما رمىٰ به من الحصىٰ، فقال: «**بمثل هؤلاء فارموا وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو**».

والواجب علىٰ طالب العلم أن يُميِّز بين الذكر المشروع والذكر البدعي الممنوع، فالذي أنكره ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التحلق البدعي والذكر البدعي، أما الجلوس المشروع لتعلُّم وتعليم القرآن؛ فهذا من أسباب تعليم القرآن، وأخذه مشافهة بسماع التلاوة الصحيحة منهج سلفي فعله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومنهم ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه.

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعمرون مجالسهم بسماع القرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «السَّماع الإيمانِيُّ القرآنِيُّ النَّبويُّ الدِّينيُّ الشَّرعيُّ هو سماع النَّبيِّين – عليهم الصلاة والسلام –، وسماع العالمين، وسماع العارفين، وسماع المؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾، إلىٰ قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]،

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٧٨، ٧٩).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، إلىٰ قوله ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٣]، الآية».

وقال شيخ الإسلام متمِّمًا بيان هذا السماع المشروع(١): «وهذا كان سماع سلف الأمَّة، وأكابر مشايخها وأئمَّتها؛ كالصَّحابة والتَّابعين ومن بعدهم من المشايخ».

وقال(٢): «وكان عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذكِّرنا ربَّنا. فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمَّدٍ ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن، والباقي يستمعون، وقد ثبت في الصَّحيح: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ بأبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته، وقال: «**لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»، وقال: «**مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك**»، فقال: لو علمت أنَّك تسمع لحبَّرته لك تحبيرًا. أي لحسَّنته لك تحسينًا».

وكذلك ينبغي لطالب العلم أن يفهم معنىٰ النهي عن التحلُّق يوم

(١، ٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٨٠).

الجمعة، الوارد في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن: «**الشراء والبيع في المسجد، وأن تُنشد فيه ضالة، وأن ينشد فيه شعر، ونهىٰ عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة**»، رواه النسائي وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسن[1].

قال الحافظ أبو الفضل العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يُجمع بين أحاديث النهي - عن إنشاد الشعر في المسجد - وبين أحاديث الرخصة بوجهين:

أحدهما: أن يُحمل النهيُ علىٰ التنزيه، وتحمل الرخصة علىٰ بيان الجواز.

والثاني: أن تحمل أحاديث الرخصة علىٰ الشعر الحسن المأذون فيه، كهجاء المشركين ومدح النبي ﷺ، والحث علىٰ الزهد ومكارم الأخلاق، ويُحمل النهي علىٰ التفاخر والهجاء والخنا والزور وصفة الخمر، ونحو ذلك».

وأما معنىٰ النهي عن التحلق يوم الجمعة فقد قال أبو سليمان حَمد الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «إنَّما كُره الاجتماع قبل الصلاة للعلم والمذاكرة، وأمر أن يُشتغل بالصلاة، وينصت للخطبة والذكر، فإذا فرغ منها كان الاجتماع والتحلق بعد ذلك».

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يجلسون حلقًا لتدريس العلم يوم الجمعة

---

(١) جامع الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد (ص ٨٨- رقم ٣٢٢).

(٢) شرح جامع الترمذي بواسطة مرقاة الصعود إلىٰ سنن أبي داود (١/ ٣٧٣).

(٣) معالم السنن (١/ ٣١٠).

من غير مضارة ولا مشاغلة للمتعبدين في يومها، قال معاوية بن قُرَّة: «أدركت ثلاثين من أصحاب محمَّد ﷺ إذا كان يوم الجمعة اغتسلوا ولبسوا من صالح ثيابهم، ومَسُّوا من طيب نسائهم، ثم أتوا الجُمُعة فصلوا ركعتين، ثم جلسوا يبثون العِلْمَ والسُّنَّة حتىٰ يخرج الإمام»[1].

(١) تهذيب الكمال (٧/ ١٦١).

الخاتمة

أحمد الله علىٰ تيسيره أسباب شرح المتن المبارك «فضل الإسلام»، وحاجة المسلمين إلىٰ تفهمه واعتقاده والأخذ به ضرورة في كل وقت، وخصوصًا في وقت الغربة؛ حيث كثرت البدع والأهواء والضلالات وتفاقم الخلاف، ودعاة الضلالة اتخذوا أنواعًا من وسائل الإعلام المعاصر لإضلال الخلق والدعوة للبدع، والغلاة منهم صاروا دعاة لإباحة الردة، كفىٰ الله المؤمنين شرورهم.

متن «فضل الإسلام» هو كسائر متون العقيدة للإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ نافع مبارك، مبني علىٰ نصوص القرآن والسنة وآثار الصحابة.

و«فضل الإسلام» بيَّن فيه شيخ الإسلام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقيقة الإسلام، ومعنىٰ ملة إبراهيم، وحذَّر فيه من الردة والابتداع، وحثَّ علىٰ لزوم الإسلام والاعتصام بالكتاب والسنَّة.

والعناية بهذا المتن شرحًا وتدريسًا هو من النصيحة للمسلمين، ومن التواصي بالحق والصبر، ومحتوىٰ المتن دالٌّ علىٰ ما فيه من النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، وتدريس هذا المتن من أسباب شكر هذا الإمام الذي نصح للإسلام والمسلمين وجدَّد الدين، فمن شكره

تدريس علومه، فإن هذا من أسباب تسلسل حسناته وزيادتها، جزاه الله عن الإسلام خيرًا.

والحمد لله رب العالمين

دليل المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول: باب فضل الإسلام	٧
الباب الثاني: باب وجوب الدخول في الإسلام	١٢٥
الباب الثالث: باب تفسير الإسلام	١٧٥
الباب الرابع: باب قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾	٢١٥
الباب الخامس: باب وجوب الاستغناء بمتابعة الكتاب عن كل ما سواه	٢٣٣
الباب السادس: باب ما جاء في الخروج عن دعوىٰ الإسلام	٢٤٩
الباب السابع: باب وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه	٢٨٥
الباب الثامن: باب ما جاء أنَّ البدعة أشد من الكبائر	٣١٥
الباب التاسع: باب ما جاء أنَّ الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة	٣٤٧
الباب العاشر: باب قول الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾	٣٥٧

الباب الحادي عشر: باب قول الله تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ٣٨١

الباب الثاني عشر: باب ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء ٤٣٧

الباب الثالث عشر: باب التحذير من البدع ٤٨١

الخاتمة ٤٩٣